رواية

سعاد العامري

دمشقيّ

ترجمها عن الإنكليزية مع الكاتبة:

عماد الأحمد

ساحر الكتب

سعاد العامري

دمشقيَ

رواية

منشورات المتوسط

الحقوق

اسم الكتاب: دمشقيَ

المؤلف: سعاد العامري

ترجمها عن الإنكليزية مع الكاتبة: عماد الأحمد

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

النوع: رواية

سنة النشر: 2019 م

منشورات المتوسط - ميلانو - إيطاليا

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142
Milano / Italia العراق / بغداد *شارع المتنبي* محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

البريد الإلكتروني: / www.almutawassit.org
info@almutawassit.org

جميع الحقوق محفوظة ©

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى

ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

إن المواقف والأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن وجهة نظر ورأي المؤلف ولا تلزم أية جهة أخرى.

شكر خاص:

تشكر منشورات المتوسط الأستاذين عارف حجاوي وزياد عبدالله لجهدهما الكبير في المراجعة والتنقيح والبحث والتحرير الذي أدى في النهاية لإصدار هذا الكتاب على الصورة التي هو عليها الآن.

الجزء الأوّل

تِيْتِة بسيمة وجِدُّو نعمان

الفصل الأوّل

تِيْتِة بسيمة وجِدُّو نعمان

لم يتبادر إلى ذهن تِيْتِة بسيمة أن رحلتها إلى قريتها عرّابة في فلسطين ستهزّ كيانها ووجدان العائلة بأسرها، وستُغيّر حياتها وعلاقاتها الاجتماعية مرّة وللأبد جرّاء الخيانة الزوجية التي امتدّت شهرَيْن، وستجعل من المرأة القليلة الكلام أصلاً شبه بكماء بقيّة حياتها. مئة وخمسون كيلومتراً فصلت عرّابة عن دمشق، وثلاثون سنة فصلت تِيْتِة بسيمة عن أمّها الحنون، ووالدها القاسي، وأشقّائها الخمسة الأصغر منها.

كان يُسمَح للمرأة المتزوّجة، وفقاً لعادات بلاد الشام في ذلك الزمن قبل مئة عام ونيّف (1896)، بزيارة أهلها عندما تمنح زوجها، أو على الأصحّ عائلة زوجها، ابناً ذكراً.. وريثاً يحفظ ممتلكات العائلة، وتحديداً الأرض التي ينبغي أن تبقى في الجانب الأبوي للأسرة. حالف الحظّ تِيْتِة بسيمة، فوضعت طفلها الأوّل بعد أقلّ من عام على زواجها. كان طفلاً جميلاً، أسموه أحمد، إلا أن عجلة الحظّ دارت بما لا تشتهي تِيْتِة بسيمة ذات الخمسة عشر عاماً، لأن بكرها سرعان ما مرض وتوفّي. وراحت أخوات

زوجها الخمس يردّدنَ أنها هي السبب، فقد كان ينبغي أن تضع خرزة زرقاء وتميمة حول عنق الطفل من اليوم الأوّل. لا شكّ أن مثل هذا الطفل الجميل سيُصاب بالعين من قِبَل النساء العاقرات، "مو حرام ولد هيك متل القمر يموت وعمره شهرَيْن! يا عيب الشوم!" كانت تِيْتِة بسيمة تبكي ليلاً ونهاراً، فقد زاد هذا الحدث الأليم تِيْتِة المتديّنة الجادّة تديّناً يقرب من التّصوّف. عادت جموع الرجال والنساء، الذين جاؤوا للاحتفال مع جِدُّو وتِيْتِة وأفراد الأسرة جميعهم بولادة أحمد ذي العينَيْن الزرقاوَيْن، لكنْ، لتقديم العزاء هذه المرّة. جلسوا صامتين خاشعين متّشحين بالسواد، يستمعون إلى الشيخ الذي يتلو ما تيسّر له من القرآن. وحلّت فناجين القهوة المرّة محلّ حلوى الكراوية التي تناولوها قبل أسابيع احتفاءً بولادة الطفل. أصبح أحمد الذي حمل كل من تِيْتِة وجِدُّو اسمه، ليصبحا أمّ أحمد وأبو أحمد بقيّة حياتهما، رمزاً لحزنهما الأكبر في هذه الحياة.

لو كُتبت الحياة لأحمد لعاشت تِيْتِة في نعيم، وذهبت مرفوعة الرأس إلى قريتها، لتُريه ليس لأمّها وأبيها فقط، بل لجميع أفراد حمولتها ذات النفوذ الواسع: حمولة آل عبد الهادي في عرّابة ونابلس. وهكذا كان عليها انتظار أن يهبها الله صبياً آخر، وكلها إيمان بواسع رحمة الله وحكمته، وإقرار بحقّه في أن يمتحن صبر تِيْتِة بسيمة مثلما امتحن صبر أيّوب. غاصت عميقاً في إيمانها، سائلة المولى الرحمة والعون، وما كان بمستطاعها سوى تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وأداء صلواتها الخمس،

والزيادة عليها أيضاً، بالإضافة إلى ممارسة الجنس بكثرة مع جِدُّو نعمان، إلى أن امتحن الله صبرها، فرزقها أربع بنات واحدة تلو الأخرى. سنتان فصلتا الواحدة عن الأخرى: خالتي المستبدّة ليلى وُلدت عام 1898، وخالتي الطّيّبة كريمة في عام 1900، وخالتي الجادّة فايزة وُلدت في عام 1902، وخالتي المرحة عازفة العود إسعاف في عام 1904.

أخذت أخوات زوجها الخمس يُعيّرنها بـ "أمّ البنات"، فأين منها لقب "أمّ الفرسان"؟! وأمسى جِدُّو نعمان، وهو الذكر الوحيد بين شقيقاته الخمس، الرجل الوحيد في أسرة مكوّنة من عشر إناث، هذا إضافة إلى الجاريَتَيْن ساجدة وغالية.

كان على تِيْتِة بسيمة أن تنتظر حتّى عام 1910، أي بعد أربعة عشر عاماً من زواجها، لتتمكّن أخيراً من إنجاب طفل أشقر، ذي عينَيْن زرقاوَيْن، أسموه حكيم، وكان نسخة طبق الأصل عن الطفل المتوفّى أحمد. أصبح حكيم الذي حمل لقب الأمير، كما كان متوقّعاً، مدلّلاً ومتعجرفاً، كذا كان صغيراً، وكذا ظلّ بعد أن كبر.

كان على رحلة عودة تِيْتِة بسيمة إلى أهلها في عرّابة أن تنتظر بضع سنوات أُخر، وبضعة أولاد آخرين. استنفدت المسؤوليات العائلية الكثيرة حياتها، وأنجبت خالي ناجح، الذي ظلّ يشرب حتّى الموت، وخالي صادق الوسيم وصاحب المزاج السّيّئ الذي كان سِكّيراً أيضاً، وتوفّي شابّاً.

وفي عام 1922، في سنّ الأربعين، أنجبت تِيْتِة بسيمة طفلتها الأخيرة، ابنتها الجميلة والمدلّلة.. أمّي سامية.

زيارة مفاجئة

سمعت الجارية ساجدة عصر يوم ربيعي مشمس طرقات قوية متكرّرة على البوّابة. نهضت بتثاقل من ركن المطبخ، حيث تعوّدت أن تجلس القرفصاء، وذهبت لتفتح الباب. أغضبتْها طرقات الباب الأشبه بنقيق دجاجة، فسرّعت من خطواتها المتثاقلة. مدّت رأسها من درفة الباب الصغيرة "الخوخة"، كما دأبت أن تفعل من باب السلامة وحفظ الخصوصية. كانت شمس العصر تصبغ بيوت الزقاق الضيّق بالذهب، وتُلقي أجسام المارّة ظلالاً طويلة على أرض الزقاق، لكن هذا لم يكن ما حال دون تعرّفها على الشّابّ القصير المتين البنية الذي وقف أمامها. كان غريباً. عرّف الشّابّ بنفسه بصوت هادئ مهذّب، كما قد تعوّد أن يكلّم النساء وقد مددنَ رؤوسهنّ من الأبواب المواربة الصغيرة:

"أنا إبراهيم عبد الهادي من عرّابة"، وشدّد على اسم عائلته عبد الهادي. وبعد إدراكه أن اسمه الأوّل، وحتّى اسم عائلته، لم يعنيا شيئاً للخادمة السوداء التي كان جسدها المتين يسدّ فتحة الخوخة تماماً، أوضح:

"أنا إبراهيم، شقيق بسيمة. جئتُ من عرّابة لمرافقة أختي...".

"هل قلتَ شقيق بسيمة خانم؟ تفضّل، تفضّل.. ادخل". شجّعتْه كلمات ساجدة الترحيبية ونبرتها الدافئة على الدخول والسير في الممرّ الطويل المنحني الذي يحمي خصوصية بيت شقيقته: قصر البارودي. تبع إبراهيم ساجدة بخجل واحترام، ليصل إلى فناء فسيح جميل، وصعد سلالم البازلت الضّيّقة التي أوصلتْه إلى "الفرنكة"، في الجناح الجنوبي، حيث كانت غرفة المعيشة الشتوية للأسرة.

تعرّفت خالتي ليلى، التي كانت في العشرينيات من عمرها على خالها إبراهيم الذي لم تره سوى مرّات قليلة في حياتها. أعلنت عن وصوله بصخب وفرح:

"خالو إبراهيم إجا، ماما خالو إبراهيم هون".

"أخي إبراهيم هنا؟ خير إن شاء الله. عسى أن تكون العائلة بخير، يا ربّ العالمين...". كرّرت تِيْتِة أدعيتها وهي تتوجّه منفعلة نحو الدرج لمقابلة شقيقها الأصغر.

"إبراهيم حبيبي، شو جابك؟ في شي؟"

"لا، لا، يا أختي، كل شيء على ما يرام".

"أمّي بخير؟"

ردّ إبراهيم، مستخلِصاً ابتسامة من وجهه المتعب: "أمّي بخير والحمد لله والعائلة كلها بخير. هل هكذا تستقبلين أخاً لم تريهِ منذ سنين؟ ألا ينبغي أن تقولي أهلاً وسهلاً أوّلاً؟"

رحّبت تِيْتِة بسيمة بشقيقها الأصغر، وعانقتْه بشوق: "أهلاً أهلاً حبيبي إبراهيم". لم تقتنع تِيْتِة بالطبع بأن كل شيء كان على ما يرام. وزيارة ابراهيم المفاجئة أكّدت بأن شيئاً مريباً قد حدث: هل مرض أحد أفراد العائلة مرضاً خطيراً، أو ربّما مات؟

لم يمضِ وقت طويل حتّى اعترف إبراهيم بما أتى به هذه المسافة كلها من عرّابة إلى دمشق. وفي أثناء احتسائه القهوة التركية الموضوعة على طاولة النحاس المستديرة، نظر إلى عينَي أخته القلقَتَيْن، وقال:

"أختي بسيمة، لا بدّ أن أخبركِ بأن أمّي مريضة، وقد أرسلتْني لأحضركَ إلى البيت، وقد..."، قاطعت تِيْتِة بسيمة إبراهيم: "دخيلَك، أخبرني الحقيقة، هل هي مريضة أم أنها...؟"، تلاشى صوت تِيْتِة بسيمة، وانسكبت دموعها على خدَّيْها الشاحبَيْن.

"لا سمح الله. لا! إنها مريضة وتريدكِ أن تأتي البيت، مشتاقة إليكِ، وتريد أن تراكِ". لم تكن كلمة مشتاقة لتُعبّر بدقّة عن المشاعر الحقيقية لأمٍّ لم ترَ ابنتها البكر منذ سنوات.

اقتربت ليلى كبرى بنات تِيْتِة بسيمة عندما أدركت خطورة الموقف، وجلست بجانب والدتها، واحتضنتها بضع ثوان، ثمّ سألت: "هل أنادي أبي؟"، فقد كان جِدُّو نعمان لا يزال في عمله.

أدركت تِيْتِة بسيمة خطورة الوضع الصّحّيّ لوالدتها، وَدَعَتْ ربّها أن يُمكِّنها من الوصول إلى بيت أهلها قبل فوات الأوان.

"يا ربِّ! يا ربِّ!" كانت تدعو، وتسأل اللهُ اللطفَ والرحمةَ، كما كانت تفعل دائماً.

استجمعت تِيْتِة بسيمة قواها، وسألت شقيقها: "هل سأرى أمّي مجدّداً؟"

"سترينها، بإذن الله". وهنا طفحت دموع إبراهيم من عينَيْه البنِّيَّتَيْن الصغيرَتَيْن.

سرعان ما وصل جِدُّو نعمان إلى البيت، ولحقت به أخواته الخمس اللواتي سمعنَ الأخبار المحزنة. ولم تستغرق "اللجنة المركزية" لعائلة البارودي، التي يرأسها جِدُّو نعمان، وقتاً طويلاً لتتخذ قراراها بمغادرة تِيْتِة بسيمة صباح اليوم التالي إلى عرّابة برفقة أخيها إبراهيم وابنتها الصغرى سامية. تبدّدت آمال تِيْتِة بسيمة الخجولة في أن يرافقها جِدُّو نعمان، أو على الأقلّ ابنتها الكبرى ليلى في هذه الرحلة الطويلة المرهقة عاطفياً وجسدياً. كانت قد بالغت في آمالها، ليس فقط لأنها شعرت بأنه من الواجب على زوجها أن يرافقها لزيارة أمّها المريضة، بل أيضاً لأنه كان من أوائل، وربّما أوّل، مَن امتلك سيّارة في دمشق. كانت على يقين من أن جِدُّو نعمان وسائقه هاني سيكونان في خدمتها.

تذكّرت كيف جاء سكّان حَيّ مكتب عنبر كلهم لرؤية هذا المخلوق السِّحْرِيّ، وكيف أخذوا يلمسونه بإعجاب واستغراب. وقتها اجتمع الكبار والصغار مبتهجين حول السّيّارة باحثين عن الخيول، حتّى لقد تعذّر على هاني استعراض السَّيْر بسيّارته بسبب الحشود الملتفّة حولها. كان هاني شابّاً وسيماً، يسعى إلى إبهار الشّابّات من خلال الاستعراض أمامهنّ بسيّارة سيّده. أفضت الغَيْرة بسكّان الحَيّ إلى نتيجة أن العربة التي تجرّها الخيول – رغم الرائحة الكريهة - أفضل من السّيّارة، والعربة بالتأكيد أسرع. وكما هو دأبها، فإن خجل تِيْتِة بسيمة حال دون تعبيرها عمّا يجول في ذهنها، ولم يعرض جِدُّو نعمان مرافقتها.

لم يغمضْ لأحد جفنٌ طيلة تلك الليلة.

ساهم الجميع مع بزوغ الفجر وأذانه في التحضيرات، أو تظاهر بذلك: ساعد جِدُّو نعمان وإبراهيم وساجدة وغالية وهاني كلاً من تِيْتِة بسيمة وسامية في التحضير لرحلة عرّابة التي ستستغرق ستّ عشرة ساعة. أمّا الأعضاء الآخرون في الأسرة الكبيرة، أي أخوات جِدُّو نعمان، وبنات وأبناء تِيْتِة بسيمة (الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين والسنوات السّتّ)، فقد تصرّفوا كجيش هُزم في حرب، كما هُزم قائده. كانوا يتراكضون مكسوري الخاطر، وفي حالة ارتباك، في الاتّجاهات جميعها ناشري الفوضى هنا وهناك. كانت هذه رحلة تِيْتِة بسيمة الأولى إلى أهلها خلال ثلاثة عقود، وكانت أيضاً واحدة من

المرّات القليلة التي تركت فيها تِيْتِة بسيمة عائلتها الكبيرة التي تتطلّب الكثير من العناية. تركت وراءها أخوات زوجها الخمس اللواتي لا يتوانينَ في مضايقتها، وأطفالها التسعة، وزوجها المتطلّب ذي الرغبات الجنسية العارمة، وفريق الخدم الذين لم يتوقّفوا، حتّى في هذه المناسبة المحزنة، عن لعب دور درامي غير ضروري في هذا المشهد الصباحي الباكر.

وبمجرّد الانتهاء من توضيب متاع تِيْتِة بسيمة وابنتها، ووضع الهدايا في حقيبَتَيْن قصديريتين سوداوَيْن كبيرَتَيْن، اصطفّ أفراد الأسرة جميعهم، ليودّعوا تِيْتِة بسيمة التي كانت تشهق بالبكاء، وسامية المذهولة، بينماقبّل جِدُّو نعمان جبهة تِيْتِة بسيمة، انكبّ أفراد العائلة والخدم على تقبيل يدها وهم ينشجون معاً. وبما أن الأحفاد لم يكونوا قد رأوا جدّتهم المريضة من قبل (والتي ربّما قد ماتت الآن)، لم يكن من الواضح ما إذا كانت هذه الدموع بكاء على فراق تِيْتِة بسيمة أم على أمّها المحتضرة. وسرعان ما صدر الفرمان "للقبيلة الباكية"، من قِبَل زعيمها جِدُّو نعمان، بالتّوقّف عن البكاء، والتّجمّع في أرض الديار. وصدرت التعليمات أيضاً لساجدة وغالية وهاني بحمل الصندوقَيْن القصديريَّيْن الثقيلَيْن، في حين حمل جِدُّو نعمان ابنته سامية المئة متر التي فصلت منزله عن السّيّارة السوداء التي كانت تنتظر عند مدخل زقاق الصّوّاف. استقرّت تِيْتِة في المقعد الخلفي، وعندئذ فقط ناولها جِدُّو نعمان طفلتهما. بكى كلّ من جِدُّو نعمان وتِيْتِة بسيمة عندما اجتازت

السّيّارة زقاق مدحت باشا الضّيّق باتّجاه الطريق الرئيس الذي يربط سوق الحريقة وسوق البزورية ببوّابة المدينة: باب توما.

وعندما دفّأ نور الصباح المدينة، وأعاد إليها الحياة، نظرت تِيْتِة بسيمة من نافذة السّيّارة إلى الألوان المتوهّجة اللامعة للمباني التي شيّدت حديثاً. تعجّبت كم تغيّرت المدينة منذ وصولها إليها في عام 1896، أي قبل ثلاثين عاماً. سألت تِيْتِة بسيمة، والسّيّارة تزيد من سرعتها خارجة من باب توما، "كم تستغرق هذه الرحلة، يا أخي؟"، ولم يكن من الواضح ما إذا كانت (أخي) موجّهة إلى أخيها إبراهيم أم إلى السائق الذي كان يضع حطّة بيضاء وسوداء على رأسه. قال السائق: "إذا لم نواجه أي مشاكل، سنصل إلى نابلس بعد غروب الشمس بإذن الله". وما إن بدأ خيال تِيْتِة بسيمة يسرح في طبيعة المتاعب التي يمكن أن يواجهوها مع حلول الظلام، أراحها السائق قائلاً: "الحمد لله، النهار أصبح أطول، لذلك سنصل قبل الغروب، إن شاء الله".

"أتمنّى أن نصل إلى عرّابة في الوقت المناسب. لنتلُ الآن معاً دعاء السفر". قالت تِيْتِة بسيمة في حين كانت تمسح دموعها بمنديل قطني أبيض، رافعة كفَّيْها أمام وجهها ومتّجهة إلى السماء (أو على الأصحّ إلى البطانة البيضاء الداخلية للسّيّارة)، وأخذت تدعو. قام إبراهيم بالشيء نفسه بينما كانت سامية تغطّ في النوم. كانت هذه الكلمات القليلة كل ما دار بين تِيْتِة بسيمة وشقيقها والسائق خلال تلك الرحلة الطويلة من شروق الشمس إلى غروبها.

سرعان ما سرحت أفكار تِيْتِة وهي تنظر من نافذة السّيّارة إلى الامتداد الشاسع لحقول الحبوب على جانبَي طريق دمشق - درعا، التربة الخصبة الداكنة نفسها التي كانت تمدّ كامل الجيش الروماني بالغذاء. تذكّرت تِيْتِة بسيمة حين وصلوا قرية القَدَم في ضواحي دمشق ما قاله لها برقَّة عريسها الوسيم قبل ثلاثين عاماً في هذه النقطة بالضبط. في تلك اللحظة فقط سمحت لنفسها بالنظر في وجهه عن كثب للمرّة الأولى. لاحظت كم كانت ابتسامته جميلة، تلك الابتسامة التي كشفت عن أسنان بيض منتظمة وراء شَفَتَيْن ممتلئَتَيْن. رأت في وجهه البشوش عشقه لمدينته دمشق، اختفى البريق في عينَيْه الزرقاوَيْن تحت حاجبَيْه عندما ابتسم ابتسامة عريضة، ملأت وجهه وهو يتحدّث عن غوطة دمشق. كان العريس ينقل عروسه، برفقة أفراد من كلتا العائلَتَيْن، من بلدتها الصغيرة "عرّابة" إلى مدينته الكبيرة دمشق، عاصمة بلاد الشام.

نظر جِدُّو في عيني تِيْتِة، وتابع تفاخره: "هل تعلمين لماذا توقّف النّبيّ محمّد في القَدَم، ولم يدخل دمشق؟ لقد لمح رونق المدينة الأخّاذ من بعيد، وقال متوجّساً منبهراً: "للمرء أن يدخل الجنّة مرّة واحدة لا مرَّتَيْن!". ورفض دخول المدينة الساحرة". تبسّمت تِيْتِة بسيمة، وبدا جلياً بأنها لا تمانع دخول الجنّة مرَّتَيْن، وأنها ستشتاق إلى قريتها الصغيرة.

قال سعيد أحد أبناء عمّ جِدُّو نعمان: "لكنْ، هناك أسطورة أخرى تقول إن النّبيّ تعثّر، وأُصيبت قَدَمه، لذلك سُمّيت

القَدَم، فرأى في ذلك فألاً سيّئاً، فعدل عن دخول المدينة".

لم تكن تِيْتِة بسيمة اليافعة تدرك حينها أنها على وشك دخول الجنّة للمرّة الأولى في حياتها، وأنها لن تغادرها لحين مرض والدتها.. أو ربّما موتها.

الفلاح يبقى فلاحاً (من القَدَم إلى حوران)

أيقظ صفاء اليوم الربيعي ذاكرة تِيْتِة بسيمة، وأنعشها. يبدو أن ذاكرتها قد سجّلت كل شيء: تتذكّر الآن كل منحنى ومنعطف ومَعلم على هذا الطريق الضّيّقة اللامتناهية. أخذتها الرحلة على الطريق الجبلي الروماني القديم الذي كان يربط دمشق بالحجاز مقابل الطريق الساحلي الذي يربط معظم المُدُن المتوسّطية: الإسكندرية وغزّة وعسقلان ويافا وعكّا وحيفا وصور وصيدا وبيروت واللاذقية وأنطاكيا واسطنبول. نظرت تِيْتِة إلى بحر القمح المتماوج، بينما كانت السّيّارة تعبر ببطء هضبة حوران البركانية، ودفعها ترامي حقول الربيع الخضراء ونضارتها وامتدادها إلى الاسترخاء قليلاً، وأعاد إليها بعض الأمل في أن ترى أمّها قبل وفاتها. كم تمنّت أن تعانقها.. أن تمسك بيدها، وتمسّد جبينها وهي طريحة الفراش.

أحسّت كما لو كان أفراد عائلتها قد رافقوها من عرّابة إلى دمشق بالأمس فقط. تذكّرت تلك القافلة الطويلة من عربات الخيول التي حملت أمّها وإخوتها وعمّاتها، بينما كان الرجال العزّاب يخبّون على الخيول والجمال صعوداً وهبوطاً حاملين جهازها. وليُبهر أنسباءه الدمشقيّيْن، جلب

والدها يوسف مجموعة من الوجهاء البارزين، أغلبهم من عائلة عبد الهادي، ليُشكّلوا جاهة لمقابلة نظرائهم الدمشقيّيْن. ودعا أعمامها جميعهم، ومعظم أبناء عمومتها الذكور، ورؤساء الحمايل الأخرى في عرّابة، وبعض التّجّار الأغنياء من مدينة نابلس. ركبوا جميعاً العربات والخيول طول الطريق من أجل "تسليمها" إلى زوجها وعائلة زوجها في دمشق. حضروا مراسم زواج ابنتهم التي استمرّت ثلاثة أيّام، وعادوا ببضائع الشام لبيعها في محلاتهم بنابلس.

الآن وقد ذاقت تِيْتِة حياة البذخ الدمشقية ثلاثين عاماً، أدركت الفروق بين تجّار نابلس الأغنياء كوالدها، وتجّار دمشق الأغنياء كزوجها. توقّف حلم اليقظة الذي كانت تعيشه فجأة عندما توقّفت السّيّارة على حين غرّة. استغرق الأمر بضع ثوان قبل أن تدرك أن السائق تفادى صبياً صغيراً يعبر الشارع في قرية حورانية يمرّ بها الشارع. أحاط القرويون الحوارنة الغاضبون بالسّيّارة بلمح البصر، وأخرجوا السائق الشّابّ منها عنوة، وأخذوا يدفعونه أمامهم. لم يتسبّب الحادث بأي أذى للطفل، ولكن الفوضى التي نجمت عنه صدمت الجميع، وأيقظت الطفلة سامية. كانت قد غرقت في النوم بسرعة تحت بطّانيّتها السميكة عندما وضعها والدها في المقعد الخلفي للسّيّارة قبل بضع ساعات. "ششش حبيبتي، نامي، يا روحي، نامي". ولكنْ، عبثاً، "تعي لعند ماما، ششش، سيكون كل شيء على ما يرام". وضعت تِيْتِة الطفلة في حضنها، عانقتْها بقوّة،

وأخذت تُهدهدها. أصابت عدوانية القرويّيْن الحوارنة وقسوتهم، والصخور البازلتية الرمادية الداكنة والسوداء مزاج تِيْتِة بالكآبة.

ذكّرها هذا بشعورها بالانقباض عندما رأت للمرّة الأولى التربة والحجارة البازلتية التي تتشكّل منها منطقة حوران وبيسان ومنطقة بحيرة طبريّا. تذكّرت كيف أعربت عن كرهها لتلك الحجارة الداكنة لأحد أبناء عمومتها الذين رافقوها إلى دمشق:

"الأحجار البيضاء المتلألئة في عرّابة ونابلس أجمل من هذه السوداء. آمل ألا تكون المنازل في دمشق مَبنية من مثل هذه الحجارة الداكنة".

"انتظري حتّى تريْ قصر البارودي. إنه واحد من أجمل القصور في دمشق. إن سقوفه الخشبية المزركشة هي الأجمل في المدينة. إنه أروع من قصر العظم، القصر الذي حدّثونا عنه في المدرسة، هل تصدّقين ذلك؟! إنه أكبر بثلاث مرّات من قصر عمّك عبد الفتّاح في عرّابة. بل أكبر حتّى من قصر حسين باشا عبد الهادي في نابلس".

كان من المستحيل على تِيْتِة البالغة من العمر أربعة عشر عاماً أن تتخيّل قصراً أكبر من قصر عمّها في عرّابة. وبما أنها لم ترَ قصر عبد الهادي في نابلس، فلم تتمكّن من المقارنة. ولكنْ، بما أن عمّها حسين عبد الهادي كان قد حكم معظم فلسطين، لم يكن بمقدورها تصوّر قصر أفخم من قصره. لم يكن والدها ككل أفراد عائلته يتفاخر بالقصر

فحسب، بل كان يتفاخر أيضاً بالرجل نفسه، إلا أنها كانت صغيرة، فلم تعرف أن عمّها حسين بك عبد الهادي الذي كانوا يتفاخرون به كان في عيون الكثيرين، وخاصّة الفلاحين، خائناً لا بطلاً. لقد وقف حسين بك مع الجنرال المصري الغازي إبراهيم باشا (الابن البكر لمحمّد عليّ باشا) الذي جاء من مصر ليحكم فلسطين بين عامَي 1834-1844. نجح إبراهيم باشا، بمساعدة حسين بك عبد الهادي وأمثاله، في شقّ صفوف الفلاحين وسحق ثورتهم عام 1834 في المرتفعات الوسطى من فلسطين. وهكذا لم يكن مفاجِئاً أن ينتهي حسين بك حاكماً لمعظم فلسطين. كان لحسين بك الذي كان في الأصل من قرية تِيْتِة، قصر في عرّابة، وآخر في نابلس، وثالث في حيفا، حيث عاش بعيداً عن الناس الذين خانهم، وحكَمَهُم.

الفلاح يبقى فلاحاً في مكان مثل فلسطين، حيث تُنحَتُ الذاكرة في الحجر، فأصول عائلة عبد الهادي تُردُّ دائماً إلى قرية عرّابة رغم أنهم كانوا يعيشون في مدينة حيفا الساحلية، وفي مدينة نابلس. لم يصبحوا مع ذلك جزءاً من النخبة الحضرية كما كانوا يطمحون على الدوام. كان أكثر ما أدهش تِيْتِة وهي تحدّق من نافذة السّيّارة أنها خلال ثلاثين عاماً من الزواج، لم تفكّر أبداً في حياتها قبل الزواج أو تتأمّلها. لم تفكّر كثيراً بوالدَيْها وأشقّائها، وأبناء عمومتها الكثيرين، وصديقاتها وجيرانها وزملاء الدراسة والمعلّمين في الكتّاب الذي تركته للزواج من جِدُّو نعمان، وأكثر ما استوقفها أنها لم تفكّر، إلا قليلاً، في أمّها التي تعشقها.

سألت تِيْتِة بسيمة نفسها كيف تمكّنت من نسيان أمّها خلال تلك السنين كلها؟ همهمت في سرّها، "لا بدّ أن ما يقولونه صحيح: البعد جفا". ولا بدّ أن العبء الثقيل في رعاية عائلتها الدمشقية جعلها تنسى ذكرياتها كلها في فلسطين. منذ الأيّام الأولى لزواجها، لبست دورها الجديد الذي يؤهّلها لأن تكون الزوجة الصالحة لزوج متطلّب، هو الابن الوحيد المحاط بخمس شقيقات قاسيات. وانخرطت في رعاية أسرة كبيرة، وسرعان ما أصبحت أمّاً لتسعة أطفال، وفقدت نفسها في حياتها الجديدة. ولم يكن مفاجِئاً أن تدرك أنها كانت في الرابعة عشرة من عمرها فقط عندما انضمّت إلى عائلة زوجها في عام 1896.

منحت الرحلة التي امتدّت ستّ عشرة ساعة تِيْتِة بسيمة الوقت كله الذي تحتاجه، والذي لم تحظَ به من قبل، لاسترجاع حياتها. تذكّرت بكاء أمّها عائشة حين غادرت بيت أبيها عروساً في عرّابة، "الله معك، الله يحميك، ويرزقك السعادة وكل الأولاد اللي بتتمنّيهم"، شعرت بخَدَّي والدتها المبلَّلَيْن عندما همست أمّها في أذنها "تذكّري دائماً يا بنيتي، يا حبيبتي، أن والدكِ غنيّ وصاحب نفوذ وابن حمولة كبيرة. أنتِ لستِ وحيدة. تذكّري أن حمولتكِ حمولة عبد الهادي حكمت فلسطين يوماً". تدفّقت دموع تِيْتِة بسيمة على خَدَّيْها عندما تذكّرت كلمات أمّها التشجيعية التي تفيض بالحبّ. قالت عائشة لها ذلك رغم أنها كانت سترافق ابنتها لحضور حفل الزفاف في دمشق، ولكنها مثل الأمّهات جميعهنّ همست بكلمات الحزن المترافقة مع

الدموع عندما كانت ابنتها تغادر البيت. كان الخروج من عتبة بيت الوالدَيْن والانضمام إلى عائلة الزوج حدثاً مهمّاً في حياة كل امرأة. تساءلت تِيْتِة ما إن كانت ستسمع المزيد من الكلمات الحنونة من أمّها هذه المرّة. يا إلهي، كم رغبت بالعودة لرؤية والدتها في واحدة من المناسبات السعيدة العديدة التي غابت عنها، وفي حفلات زفاف أشقّائها، وطهور العديد من الأولاد الذين وُلدوا في غيابها، واحتفالات عيد الفطر وعيد الأضحى في كل سنة. لكن الاحتفال المفضّل لديها، والذي لم تقضه مع عائلتها خلال تلك السنوات كلها، كان العيد الكبير والاحتفال بعودة الحجّاج. تخرج القرية بأكملها، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، إلى الشوارع للترحيب بثلّة من الحجّاج العائدين بأمان إلى ديارهم بعد شهر من الغياب. يحمل الشباب طبولهم ومزاميرهم ودفوفهم، وتغنّي النساء أغاني الحجّ بينما يرقص الرجال والنساء الأكبر سنّاً. يتردّد صدى زغاريد نساء عرّابة في الوديان المحيطة، ممتزجةً بالأصوات الاحتفالية المماثلة القادمة من القرى المجاورة.
تبدأ التحضيرات دائماً قبل بضعة أيّام، عندما تُزيّن البوّابات والواجهات الأمامية لمنازل الحجّاج بالحنّاء والرسومات الزرقاء النِّيليَّة، متضمّنةً موضوعات متشابهة، من أشجار النخيل التي ترمز إلى الخصوبة، وكفوف الأيدي التي تحمي من عين الحسود، والطيور الصغيرة، والنجوم الزرقاء. كانت النساء يُبرزنَ براعتهنّ في صنع الخوابي الفخّاريّة والزخارف والرسومات على الجدران

الداخلية للبيت، وكان يسمح للفتيات الصغيرات مثل تِيْتِة بغمس أيديهنّ الصغيرة في أوعية الحنّة والنِّيلة الزرقاء وطبعها على الجدران وهي تقطر من أيديهنّ. دغدغت ابتسامة مكبوحة وجه بسيمة الشاحب عندما تذكّرت كيف حملت وشقيقاتها في عام من الأعوام واحداً من تلك الأوعية، ليقمنَ بتزيين المنازل المجاورة التي لم يكن لديها حاجّ عائد.

ربّما كانت غطرسة مدينة دمشق تجاه ضواحيها النائية هي التي جعلت تِيْتِة تنسى.

من جبل الشيخ إلى جنين

شيخان جليلان

رأت تِيْتِة في الأفق البعيد الذروة البيضاء الشاهقة لجبل الشيخ التي ترتفع حوالي ثلاثة آلاف متر فوق مستوى سطح البحر. أرادت إيقاظ طفلتها سامية التي عادت إلى النوم بعد الضّجّة التي أثارتها حادثة السّيّارة، إلا أنها قرّرت - هي التي لم يكن لديها ترف التفكير في حياتها الخاصّة خلال هذه السنوات كلها - أن تترك طفلتها غاطّة في نومها، ولعلّها تُريها الذروة المغطّاة بالثلوج في طريق العودة. غمرَها الشعور بالذنب إزاء قرارها الأناني، وانحنت على وجه ابنتها، ومسّدت رأسها، وغرقت مجدّداً في أفكارها. سرحت عيناها في المروج الشاسعة، جالت ببصرها في التلال الصغيرة حتّى وصلت بها إلى قمّة جبل الشيخ. ذكّرها الجبل البعيد بما يوحيه من سكينة وصفاء

بعمامة الرأس البيضاء التي تُجلِّل رأس والدها. كلاهما شيخ طويل مهيب، وإن كانا لا يشتركان في الهدوء والسكينة. تذكّرت تِيْتِة بسيمة بوضوح مجيء والدها إلى المنزل على نحو غير متوقّع عند الظهيرة، في منتصف الأسبوع. لم يكن يأتي إلى البيت في أوقات كهذه إلا نادراً أو في حالة طارئة، نظراً للمسافة الطويلة التي يقطعها على صهوة جواده في ثلاث ساعات بين منزله في عرّابة ومتجره لبيع الجملة في نابلس، كان يأتي إلى البيت دائماً بعد ظهر الخميس، ويغادر إلى نابلس باكراً صباح السبت. سألته زوجته عائشة بقلق عند مجيئه غير المتوقّع بعد ظهر الثلاثاء: "خير إن شاء الله، عسى أن يكون كل شيء على ما يرام، ما الذي أتى بكَ إلى المنزل في منتصف الأسبوع".

"لا تقلقي، يا عائشة، بل إنني أحمل أخباراً سعيدة، ولكني أريد مشاورتكِ في شيء ضروري". وعندما شعرت بسيمة الصبية بالفضول، أضاف قائلاً: "على انفراد".

أحسّت بسيمة بالقلق عندما دخل والداها غرفة الضيوف لإدراكها أن والدها نادراً ما كان يستشير أمّها في أي شيء، بل لم يكن يستشير أحداً. وشعرت بأنهما قد اختفيا هناك للأبد. وكان أكثر ما أربك بسيمة الفتيّة أن والدها، لا والدتها، هو الذي خرج من غرفة الضيوف، واستدعاها:

"بسيمة، تعالي إلى هنا، أريد وأمّك التّحدّث معكِ".

انتصبت فجأة، ثمّ لحقت بوالدها مهمهمة "أنا؟". ساهمت كآبة غرفة الضيوف ذات القباب، والضوء المصفرّ الذي يأتي من أحد النوافذ العالية في جعل ملامح وجه أمّها أكثر حزناً وتوتّراً. تلعثم قلب بسيمة، وكاد يتوقّف عن الخفقان.

دعتْها والدتها للجلوس بجوارها بعد أن أفسحت لها حيّزاً ضيّقاً: "تعالي، اجلسي بجانبي، يا بنتي". قال والد تِيْتِة بسيمة: "أنتِ تقيّة، يا بنتي، وتعرفين أن الزواج نصف الدِّين، لقد حان أن تتزوّجي، وتبني أسرة، وتُنجبي الكثير من الأطفال، بإذن الله".

وقعت الطفلة بسيمة في حَيْرة من أمرها، إذ لم تتخيّل نفسها متزوّجة على الإطلاق، ناهيكَ عن أن تصبح أمّاً لكثير من الأولاد. لم تكن مستعدّة على الإطلاق، وغرقت في حَيْرة تامّة. نظرت إلى والدتها تطلب المؤازرة، لمواجهة يأسها وعجزها على الأقلّ. قال الأب: "الرجل الذي ستتزوّجين منه رجل غنيّ، يملك ثروة كبيرة، رجل نبيل من دمشق، ابن إحدى أعرق الأسر الدمشقية. إنه من عائلة البارودي، وهم أنسباء عائلات القبّاني والجمّال والمحيسن والطّبّاع والإنجليزي، وهي الأسر الدمشقية الأكثر نفوذاً، ليس في دمشق وحسب، بل في المنطقة بأكملها من جدّة في الحجاز، إلى بيروت والقدس، وحتّى إلى اسطنبول. اسم الرجل نعمان محمّد البارودي. وسُمعته مثل سُمعة والده من الذهب الخالص. تعود أصوله إلى المدينة، وليس أيّ مدينة، بل هو من قلب دمشق. قصرهم، أي قصر البارودي، الذي سنراه كلّنا قريباً بإذن الله، متاخم للمسجد

الأموي. ولكن الأهمّ، يا ابنتي، أنه من أبناء المدينة، وليس فلاحاً مثلنا. وكما تعلمين، يا ابنتي الحبيبة: "الفلاح بيظل فلاح". فعمّكِ حسين ورغم أنه كان يعيش في نابلس، وبنى قصراً كبيراً، وربّما أكبر من قصور العائلات النابلسية الغنية جميعها مثل طوقان وآغا النمر، إلا أنهم ظلّوا يدعونه في نهاية الأمر: فلاحاً. لا تريدين هذا لأطفالكِ!" لاحظتْ بسيمة أن ملامح وجه والدها كانت تدلّ على شعور طافح بالمرارة، وليس الفرح. تبادلت بسيمة وأمّها النظرات، وقبل أن تتمكّنا من نطق كلمة واحدة، تابع والدها الذي بدا في حالة من النشوة العارمة: "كما تعلمين، يا ابنتي، لا يهمّ مَنْ يتزوّج الرجل، أمّا المرأة، فعليها دائماً أن تتزوّج رجلاً أكثر ثراء ونفوذاً من والدها. فهذا يمنحها وأفراد أسرتها جميعهم المزيد من الفرص، ويضعها في مكانة أفضل".

لم تتفوّه بسيمة بحرف، ولكن نحيب أمّها هو الذي كسر جدار الصمت، بكت الوالدة ردّاً على "الثناء" الذي تلقّته للتّوّ من زوجها "لا يهمّ مَنْ يتزوّج الرجل"، وردّاً على انعدام شعور زوجها بالخجل من الكشف عن الدافع الحقيقي لإرسال ابنته بعيداً إلى نهاية العالم، يا لها من صفقة تجارية جيّدة!

"ولكنكَ، يا يوسف، لم تُفصح لها عن أن الرجل الغني أكبر منها بعشرين سنة. لا بدّ أنه في الخامسة والثلاثين من عمره الآن، وهي لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد".

بدا الوالد متفاجِئاً من تعليق زوجته:

"ماذا أصابكِ، يا عائشة؟ يبدو أنكِ نسيتِ أننا كنّا في مثل سنّهما تقريباً عندما تزوّجنا". اعترضت الوالدة بشدّة حين بدا تجاهله لهذه النقطة بالذات: "هذه هي المشكلة بالضبط، يا يوسف!".

"وكم مرّة سنحظى بعريس لابنتنا من تجّار دمشق الأغنياء؟ إذا فوّتنا هذه الفرصة، فلن نحظى بمثلها أبداً".

"أفضّل أن تتزوّج ابنتي فلاحاً من عرّابة، وتبقى بقربي، على أن أفقدها برحيلها إلى دمشق".

لكن عائشة كانت تدرك جيّداً أن كلامها لن يلقى أي صدى عند زوجها. ليس فقط لاختلافها معه، بل لمعرفتها أيضاً أن الأُسر الإقطاعية مثل أسرة عبد الهادي لا يتزوّجون من الأُسر الفلاحية الأخرى في عرّابة. يتزوّجون فقط من أبناء العائلات الإقطاعية الأخرى في الريف الفلسطيني، مثل عائلة القاسم من القرية الإقطاعية بيت وزن أو عائلة الجيوسي من قرية كور. وكان شيوخ هذه القرى الإقطاعية، التي تُسمّى أيضاً قرى الكراسي، يمثّلون القادة السياسيّيْن لمشيخاتهم. كانوا بمثابة جامعي الضرائب، الملتزمين، نيابة عن الحكومة العثمانية، ممّا وهبهم ثروات طائلة، عدا عن النفوذ السياسي والحظوة الاجتماعية. كانت قصور قرى الكراسي كقصور عائلة عبد الهادي وجرّار أقرب إلى العمران المديني منه إلى الريفي، وذلك لعلاقاتهم القوية وتحالفاتهم السياسية مع الأُسر المتنفّذة في المُدُن مثل

نابلس. تنتمي عائشة نفسها إلى عائلة جرّار الإقطاعية الغنية من قرية الكرسي صانور. "لا يهمّ مَنْ يتزوّج الرجل!.. هل لهذا تزوّجتَني؟" اختارت عائشة أن تحتفظ بهذه العبارة لنفسها، لأنها لا تريد تحويل الأنظار عن المعركة الأساسية بفتح مسار جانبي، لا طائل تحته.

من مرتفعات الجولان إلى بحيرة طبريا

مال الشام الذي لا يقاوَم

فهمت تِيْتِة الآن فقط، عندما كانت السّيّارة تنحدر من الطريق الضّيّق والمتعرّج من مرتفعات الجولان إلى وادي بيسان في اتّجاه بحيرة طبريا، لماذا كانت والدتها استخدمت عبارة "أفقدها برحيلها إلى دمشق"؟ تقول تِيْتِة لنفسها، "لقد ابتعدتُ عن أمّي فترة طويلة، وربّما إلى الأبد". قبل ثلاثين سنة، ذرفت الأمّ وابنتها دموعاً أكثر من قدرة الوالد على الاحتمال. انتفض واقفاً، ولفّ العباءة الصوفية البنّيّة حول جسمه، وخرج من الغرفة، ثمّ عبر الفناء، وخرج من المنزل. ركب حصانه البنّيّ الداكن، وغادر إلى نابلس، تلفّه أشعّة شمس غاربة. ذهبت بسيمة وأمّها إلى سريرَيْهما تلك الليلة بقلب مثقل بالهموم مدركَتَيْن مَن الذي يتّخذ القرارات في الأسرة.

ساد التّرقّب في القرية بضعة أيّام، إلى أن ظهر رسول شابّ في القرية، أخذ يركض مثل الممسوس من حَيّ إلى حَيّ، ومن زقاق إلى آخر، يعلن عن وصول قافلة طويلة من الجِمال. ركض العشرات من الأطفال الصاخبين خلف

القافلة، في حين سارع معظم القرويّيْن إلى مشاهدتها من أسطح منازلهم. تجمّعت القرية بأكملها في النهاية أمام بيت بسيمة، حيث أفرغت حمولات الجمال من البضائع السورية عند قصر يوسف عبدالهادي، فملأت فناءَيْن من الساحات الداخلية في بيته. فهمت بسيمة ووالدتها كيف تمّ تمهيد الطريق إلى دمشق ببضائع الشام التي لا تقاوَم. سرعان ما تبع ذلك وصول عريس وسيم وأنيق وطويل القامة ونحيل، بشرته بيضاء، عيناه زرقاوان، أنفه صغير، وابتسامته رقيقة. ادّعى أفراد الأسرة جميعهم بما في ذلك بسيمة وأمّها، فضلاً عن معظم القرويّيْن أن التاجر الدمشقي الغني بملابسه الأنيقة بدا أصغر من عمره بكثير. "على العكس منّا نحن الفلاحين، لا يحرث أبناء المدينة الأرض في الشمس الحارقة".

زيجة كهذه كانت حلماً لعائلات الريف الفلسطيني، تعزّز العلاقات والتحالفات مع الأثرياء الحضريّيْن من المُدُن، بما فيها نابلس أو القدس أو حتّى الخليل. ولطالما راود الجميع حلم الزواج من عائلة بارزة من دمشق الحاضرة العثمانية لبلاد الشام. وانتشر الحديث والقيل والقال بين الناس في وصف البضائع الدمشقية الرائعة، والعريس، والجاهة. كانت الجاهة تتألّف من خمسة عشر شيخاً من أعيان عائلة البارودي وكبرائهم، جاؤوا مع العريس من دمشق، ليطلبوا رسمياً يد تِيْتِة بسيمة للزواج، ثمّ اتّفقوا على المهر الغالي غير المسبوق، وتمّت قراءة الفاتحة، والشهادة على عقد الزواج. وغنيّ عن القول إن قصور عائلة عبد الهادي

ومنازل الحمايل الأخرى جميعها فتحت بوّاباتها الكبيرة وأبوابها الصغيرة بسعادة للترحيب بالجاهة الدمشقية واستضافتها. كان الجميع فرحاً في ذلك اليوم المبارك، باستثناء عشرات الأغنام والجمال التي ذُبحت في هذه المناسبة السعيدة. قرّرت العائلتان إقامة احتفالات الزفاف الكبيرة وإتمام الزواج في قصر البارودي في دمشق، بحضور أفراد عائلة البارودي جميعهم، وكوكبة من رجالات عائلة عبد الهادي، وعدد أقلّ من نسائها. وبات العريس والجاهة تلك الليلة ليعودوا باكراً في الصباح مع العروس إلى دمشق.

شاهدت بسيمة وهي تحدِّق من نافذة السّيّارة انعكاس الأضواء على سطح البحيرة كالمرآة. ما أهدأ وأصغر بحيرة طبرية مقارنة بالبحر المتوسّط المفتوح والهائج في بيروت، حيث تعيش أمّ أكرم، إحدى أخوات زوجها الخمس. وفكّرت كم كانت الحياة أهدأ في عرّابة مقارنة بحياتها المثقلة بالتزامات لا تنتهي تجاه عائلة زوجها، الذين كانوا يأخذونها معهم أحياناً إلى بيروت.

وتنهّدت: "ولكنني لم أزر أهلي في عرّابة، ولو مرّة واحدة طيلة هذه السنوات كلها!".

من جنين إلى نابلس

شهي كالكبّة اللّبنيّة

انعكس هدوء سهل مرج ابن عامر وانفتاحه على نفسية تِيْتِة بينما كانت السّيّارة تواصل سيرها على طول الطريق

الضّيّق المستقيم. ضجيج المحرّك جعلها تحنّ إلى الحصانَيْن القويَّيْن اللذَيْن جرّا العربة التي حملتْها مع عريسها ووالدتها وشقيقتها في عام 1896. اختار جِدُّو نعمان والجاهة متابعة الرحلة من دون توقّف، بدلاً من تمضية الليلة في خان من الخانات المتناثرة على طول الطريق بين عرّابة ودمشق.

قال العريس بحماس: "لا يسعني الانتظار للوصول إلى المنزل"، فضحك الرجال عليه بصوت عال. قال سعيد أقرب أبناء عمومة العريس مازحاً: "أتساءل لماذا؟!" وغرق في قهقهة عالية! وضحك البقية أيضاً. خجلت النساء بالطبع، وتظاهرت تِيْتِة بأنها لم تسمع شيئاً. ولم تفهم ما كان ابن عمّه وأصدقاؤه يشيرون إليه أو يمزحون بشأنه، وربّما فهمت، فقد احمرّ وجهها خجلاً، والآن تورّد خداها وهي تتذكّر تلك الحميمية التي سادت ليلة زفافها:

لم تفارق في ليلة الزفاف طبيعتها، فهي خجولة طيلة حياتها.

دخلت مع عريسها جِدُّو نعمان إلى عشّ الزوجية. تنهّدت بهدوء. أحسّت بثقل في قلبها رغم أنها أخذت قسطاً من الراحة بعد انتهاء احتفالات الزفاف التي استمرّت ثلاثة أيّام بطولها، وها قد انتهت أخيراً. تعاظم قلقها، لأن اللحظة الحرجة التي كانت تحسب حسابها قد حانت. تيبّس جسدها. ولكنها لا تزال خائفة، بغضّ النظر عن ما شرحتْه أمّها عن ما يحصل بين الزوج والزوجة. نظرت إلى غرفة زواجها

بشيء من النفور، وأحسّت كما لو أنها لا تخصّها، أو أنها لم ترها مرّات عدّة منذ وصولها قبل أسبوع. بالأمس فقط ظنّت أن غرفتها أجمل غرفة في قصر البارودي، وقد تأكّدت أنه أرقى وأجمل من قصور عائلة عبد الهادي جميعها. وقفت على مقربة من نافورة المياه، لتُنعش نفسها قليلاً، تفحّصت سرير الزوجية المزدوج مجدّداً في وسط الغرفة. تفرّست في الجدران الخشبية المزخرفة، وضاعت في تصاميمها الهندسية، ثمّ رفعت رأسها، وحدّقت في السقف الخشبي. أجبرت ساقَيْها المترنّحَتَيْن على المشي إلى سرير الزوجية، مدرِكة بأنه ما من مفرّ، ثمّ جلست على حافّته بحذر، وكادت أن تسقط. أدرك عريسها، الذي كان يقف خلفها مباشرة، مدى ضياعها وتوتّرها وخوفها منذ أن غادرت منزلها في عرّابة، وخاصّة في هذه الليلة.

انتظرت العريس بفارغ الصبر أن يبادر باتّخاذ الخطوة الأولى، وأن يقود الموقف أو يُنهيه. استسلمت، ونظرت إليه بتوتّر، ابتسم بينما كان يفكّر في أفضل خطوة لتفريغ التّوتّر من جسدها المتيبّس وتحطيم الجدران التي شيّدتها حول نفسها. تقدّم نحوها بهدوء، وابتسم ابتسامة عريضة أخرى، ثمّ قال مازحاً:

"لا شيء يدعو للقلق أو الخوف. دعينا نلعب لعبة الدكتور، مثلما يلعب أبناء أختي الصغار، ولنرتمي على بعضنا البعض. أنا متأكّد أنكِ لعبت لعبة الدكتور أيضاً عندما كنتِ طفلة، أليس كذلك؟" ظهرت ابتسامة خجولة على وجهها، فتابع: "هيّا، ستحبّينها، وتستمتعين بها، وتطلبين المزيد.

ستكون لذيذة مثل الكبّة اللّبنيّة. الأكلة التي لم تأكليها من قبل، ولكنْ، بمجرّد أن تتذوّقيها، ستطلبين المزيد، والمزيد منها". لم تستطع سوى أن تضحك، لأنها حاولت بالفعل فهم العلاقة بين ليلة الدخلة وطبق الكبّة اللّبنيّة. تمكّن من التعامل معها وتهدئتها، لكونه أكبر منها بعشرين سنة. سيكون هذا عملاً شاقّاً، ويستهلك الكثير من الوقت، ولكنه سينجح في نهاية المطاف. ونظراً لشهيّته الكبيرة للجنس، ورغبته في الحصول على أكبر عدد من الأطفال، بقدر ما يهبه الله، فلم يرغب في التفكير في أي تأجيل.

كانت تجلس على حافّة السرير النحاسي المرتفع وهي ما تزال مرتدية فستان الزفاف، وجمدت في مكانها منتظرة العريس، ليتصرّف. وقف أمامها، وكانت ساقاه الطويلتان النحيلتان تلامسان برقّة ركبَتَيْها المكتنزَتَيْن. أخذ ذقنها بين أصابعه بهدوء وبحنان، وقرَّب رأسها المتيبّس نحوه. رَنَتْ عيناها الخجولتان إلى وجهه. وارتجفت عندما بدا أنه يقترب أكثر، فمسّد وجهها بنعومة وحنان. شعرت بقبلاته الناعمة الرقيقة على وجهها البارد، القبلات تتحرّك ببطء، ولكنْ، بثبات نحو فمها الصغير. جمدت تماماً، أكثر من أي مرّة أخرى في حياتها، عندما جلس بجانبها، وأدار جسمها نحوه بلطف حتّى أصبحا جالسَيْن أمام بعضهما على السرير، ومنحها جولة أخرى من القبلات. شعرت بأنها مغمورة تماماً بين ذراعَيْه القويَّتَيْن عندما كان يُقبّلها، إحداهما تسند رقبتها، والأخرى تُطوّق خصرها. مرّت شفتاه على شَفَتَيْها المغلَقَتَيْن بإحكام، وعلى الجزء الخلفي

من أذنها، وأسفل رقبتها. كانت تجلس ساكنة، تحاول تبيّن ما سيأتي بعد ذلك، فوالدتها لم تصف لها الأمر على هذا النحو عندما قالت لها: "سيستلقي فوقكِ، ويفركُ جسدَه بجسدكِ. وبمجرّد أن يصبح تنفّسه ثقيلاً، افتحي ساقَيْكِ، ليدخل فيكِ. سيُعيد ذلك عدّة مرّات، وبعنف، ربّما حوالي عشرين مرّة أو ثلاثين قبل أن يصل إلى النشوة. وهذا كل شيء، يا ابنتي. وبعدها ستحملين، بإذن الله ". واصلت والدتها: "نعم، ربّما يكون الوضع مؤلماً أوّل مرّة، أو أنكِ ستنزفين قليلاً، هذا عادي. ستعتادين ذلك مع مرور الوقت رغم أن الأمر سيغدو مملاً ومتعباً أكثر فأكثر يوماً بعد يوم". لم تكن تتطلّع لأن يحصل هذا. مرّة أخرى، كان لسانه يبلّل شَفَتَيْها الممتلئَتَيْن، وعنقها القصير، وخلف أذنها. واصل ذلك، إلى أن سرت الرعشة في أوصالها، وتراخت شفتاها المزمومتان بإحكام. غيّرَ الوضع. جلس وراءها تماماً، وضغط جسده على جسدها. احتضنها بذراعَيْه الطويلَتَيْن بقوّة حتّى استرخت. مدّ يده اليسرى ببطء تحت فستانها، وأدخلها تحت حمّالة صدرها المشدودة، ليصل أخيراً إلى نهديها. ملأ صدرها كفَّيْه. داعب نهدَيْها بيده الناعمة أوّلاً، ثمّ اعتصرهما. ندت عنها أنّة خفيضة، فتشجّع، وخلّص نهدها الأيمن من الحمّالة، ومضى يدوّر مداعبته مستشعراً تصلّب حلمَتَيْها، وأمسى بمقدورها الإحساس بأعضائه المتحفّزة. أخذا أنفاساً حارّة ثقيلة، إلى أن أتت لحظة التفتَ فيها، ولاقت بجسدها جسده. أحسّ بتوقّدها من شَفَتَيْها المتباعدَتَيْن وعينَيْها المنسدلَتَيْن. أمسك

كتفَيْها برقّة، ودفعها إلى السرير، وأصبح فوقها قبل أن تصل الفراش. شعرت بعضوه منتصباً وقاسياً على جسدها، إلا أنها لم تعرف ما عليها فعله. اعتصرها بين ذراعَيْه، وفرك جسده الدافئ على جسدها. أمسك بوجهها مهتاجاً، ومنحها قبلة طويلة على فمها، ودفع لسانه بين شَفَتَيْها. وبينما كان لسانه يتجوّل داخل فمها وشَفَتَيْها وخارجه، أبعدت رأسها، لتعبّ نَفَساً طويلاً، بعد أن شارفت على الاختناق.. انهالت المزيد من القبلات عليها حين أحسّت بيده على صدرها ساعياً إلى تجريدها من ملابسها. وعلى نحو لا يُصدَّق، أمست عارية تماماً بلمح البصر. وعندما وقف ليخلع مسرعاً قميصه وسرواله الأبيض، لمحت قضيبه المنتصب بحجمه الكبير، وانتابها الفزع. أغلقت عينَيْها، وغطّت وجهها بالشرشف الأبيض، وتساءلت كم سيكون مؤلماً. عاد جسده الأبيض الطويل الناعم فوقها مجدّداً، وأصبح الأمر مختلفاً الآن، فقد كانا كلاهما عاريَيْن تماماً. عندما أصبحا عاريَيْن، تذكّرت أن الأمور حدثت بسرعة كبيرة.. استلقت خائفة على ظهرها، وهو يدخل فيها، ويخرج. "سيكون الأمر مؤلماً قليلاً، لذا أخبريني فقط عندما يتخطّى الألم احتمالكِ، وسأتوقّف، لكنه ممتع ومثير. قولي لي فقط متى أتوقّف". ولكنها استسلمت، وقد بدا ذلك الألم نوعاً خاصّاً من الألم، ألم لذيذ، فليكن إذنْ.

أخذ يدخل ويوغل فيها للساعات المقبلة، للأيّام المتوالية، للسنوات القادمة. وتحوّلت ليلة زفافها الأولى ليلة متكرّرة في لياليها كلها. ومع مضي الحياة، باتت دائماً تتنظر

فروغه منها، لتنعم بقسط من النوم، يتيح لها الاستعداد للأعباء الثقيلة والمسؤوليات المتزايدة للأسرة التي يزداد عدد أفرادها يوماً بعد يوم.

صانور-نابلس- عرّابة

أسود على أسود

انعطفت السّيّارة انعطافة حادّة في اتّجاه صانور: قرية الكرسي الشهيرة مسقط رأس والدتها، وأخذت تِيْتِة تفكّر في أن تطلب من شقيقها والسائق صعود التّلّة نحو القرية للاستفسار عن صحّة والدتها قبل الوصول. قالت لنفسها إن الأخبار السّيّئة تنتقل بسرعة، "أنا متأكّدة لو أنني كنتُ قد متُّ في دمشق، لسمعتْ عائلتي في عرّابة عن الأمر. ولا بدّ لأهل صانور أن يكونوا قد علموا بأي خبر سيّئ".. لكنها لم تكن متأكّدة تماماً من أنهم سيعلمون، لذا تخلّت عن الفكرة بسرعة. فأمّها عائشة لم تكن تعود لرؤية والدَيْها في صانور إلا نادراً رغم أن الرحلة بين عرّابة وصانور لم تكن طويلة ولا شاقّة، مثل رحلة تِيْتِة هذه.

عادت تِيْتِة بسيمة إلى فكرة، شغلت بالها سنوات عديدة ضمن ذلك التداعي المستمرّ للأفكار. كيف لم يتزوّج زوجها في سنّ مبكّرة، إذا كان مهووساً بالجنس إلى هذه الدرجة طيلة حياته؟ خجلت سابقاً من سؤاله، وما زالت تخجل اليوم. لم تسمح لنفسها بأن تسكنها فكرة أنه ربّما كان لذهابه إلى بيروت لقضاء "وقت طيّب" مع ابن عمّه سعيد وأصدقاء آخرين أيّ علاقة بالأمر. كانت تِيْتِة بسيمة طيلة

حياتها تهتمّ بنفسها، وتفكّر بشؤونها الخاصّة وشؤون أولادها. فكّرت، وسامية أصغر أبنائها في حضنها، أنها لم تحمل منذ أربع سنوات، وهي أطول مدّة تقضيها بدون حمل. كان ينبغي أن يكون عندها على الأقلّ ثلاثون طفلاً، لكل سنة طفل، نظراً لقدرات زوجها وطاقته وشهيته الكبيرة للجنس. ولكنها تمكّنت بفضل تكتيكاتها المختلفة من الحصول على خمس بنات وثلاثة أبناء فقط: تتبُّع دورات الطمث، وحساب أيّام الخصوبة، وإرضاع أطفالها لأطول فترة ممكنة، والادّعاء أنها متعبة أو تعاني من آلام في الظهر أو من الصداع، كما كانت حالها فعلاً في أغلب الأحيان. وبمجموع الأطفال الذين نجوا والأطفال الذين ماتوا، فهو قد حبّلها خمس عشرة مرّة فقط. عانقت تِيْتِة ابنتها سامية، وقبّلتها، ودعت الله أن تكون الطفلة الأخيرة، شعرت بقوّة علاقتها مع ابنتها التي كانت تنظر من نافذة السّيّارة، وأحسّت للمرّة الأولى أنها كانت فعلاً محتاجة لمشاركة سامية إيّاها هذه الرحلة التي مرّت عليها خمس عشرة ساعة. وأشارت إلى سامية:

"انظري هناك، حبيبتي، ما ترينه بين جبل جرزيم وجبل عيبال هي مدينة نابلس، وعلى مقربة منها، هناك قريتنا عرّابة. لكننا لا نستطيع رؤيتها بعد". فوجئت تِيْتِة، ولكنها أحسّت بالفخر أيضاً، لأنها لا تزال تذكر اسمَي الجبلَيْن المحيطَيْن بنابلس. لم تسمع سامية الكثير عن نابلس أو عرّابة إلا خلال الساعات القليلة الماضية. لقد كرهت بالفعل هذَيْن المكانَيْن، لأنهما جعلا والدتها تبكي وتحدّق

من النافذة في الأفق البعيد، وبسببهما، لم تعطها والدتها الحبّ والاهتمام اللذَيْن اعتادت أن تمنحهما لها، ولكنْ، ليس خلال اليومَيْن الماضيَيْن.

أحسّت تِيْتِة باستياء ابنتها من عرّابة ونابلس، وتمنّت حقّاً أن تسمح لها صحّة أمّها بأن تأخذ سامية في جولة إلى القدس وحيفا وأجزاء أخرى من فلسطين التي تحدّثت عنها كثيراً. فلسطين التي لم تعرفها تِيْتِة نفسها. وهذا ما جعلها تتذكّر أنه، باستثناء نابلس، فقد كانت دمشق أوّل مدينة حقيقية تراها، مرّ بخاطرها ذلك اليوم الذي أخذها فيه عريسها جِدُّو نعمان من يدها، ليُريها دمشق، كما لو أن ذلك حدث منذ أيّام. ركب العروسان الجديدان العربة السوداء اللامعة، وذهبا في جولة مثيرة في المدينة، زارا الأحياء العصرية المَبنية حديثاً التي تمتدّ إلى ما وراء أسوار المدينة القديمة. ذهبا إلى ميادين عامّة واسعة، وساحات كبيرة، وحدائق خضراء جديدة، وإلى مناطق التّسوّق الجديدة، والأحياء الأنيقة ذات الشوارع الواسعة مثل الحَيّ اليوناني الحديث "المهاجرين". وبمجرّد وصولهم إلى ساحة المرجة، الساحة الرئيسة للمدينة، أمر جِدُّو نعمان السائق بإبطاء حركة العربة والدوران حول الساحة، لكي تشاهد بسيمة واجهات المباني الحكومية الأثرية والسراي، التي تحيط بالساحة.

قال جِدُّو نعمان بفخر: "أمست دمشق مدينة جميلة وفسيحة.. مثل اسطنبول".

وبما أن تِيْتِة لم ترَ اسطنبول، فلم يكن بمقدورها المقارنة بين المدينَتَيْن، فالتزمت الصمت. ولكنها فكّرت متبسمة كم كانت قريتها الصغيرة "عرّابة" تتطلّع إلى أن تبدو مثل نابلس، وكم رغبت نابلس في أن تكون كدمشق، وكم كانت دمشق مبتهجة بأنها تشبه اسطنبول. تساءلت ما إن كانت اسطنبول، عاصمة الدولة العثمانية، تتطلّع لتغدو مثل باريس أو لندن!

وبينما كانت تقلّب في رأسها هذا الطموح المتسلسل للمدينة وسعيها من أجل الحداثة، بدا لها وللمرّة الأولى على الإطلاق بأن زواجها من جِدُّو نعمان كان بطريقة أو بأخرى وبشكل مباشر أو غير مباشر قد وصل عرّابة، قريتها الصغيرة البسيطة، بعاصمة الدولة العثمانية اسطنبول، مروراً بنابلس ودمشق. فكّرت في تطلّعات والدها لربط نفسه، وقريته الصغيرة، وأسرته، بنابلس ودمشق، وبرغبات زوجها الحالية في أن تصبح دمشق مثل اسطنبول، وشارع الصالحية الرئيس مثل شارع الجادّة الكبرى، ورغبة شارع الجادّة الكبرى نفسه، الذي أصبح اسمه شارع الاستقلال بعد الحرب، في أن يصبح مثل الشانزليزيه.

وتذكّرت تِيْتِة، بينما كان جِدُّو نعمان يشرح بحماسة وظائف المباني العامّة الحديثة المحيطة بساحة المرجة وأسمائها، مدى سعادة والدها، وغيره من التّجّار النابلسيّيْن الأثرياء، بمجيئهم إلى دمشق حاملين جراراً من زيت الزيتون، وأكياساً من الزيتون، ومن الصابون النابلسي،

وبالعودة محمّلين بالكثير من المنسوجات الدمشقية والفواكه المجفّفة والتوابل. فكّرت في العائلات النابلسية الغنية التي طالما تفاخرت بزيارة أسواق دمشق الكثيرة للتّسوّق، وشراء ثياب العرائس والمفروشات والأثاث الرائع المطعّم بالصدف.

أحسّت تِيْتِة فجأة بالفخر، لأنهم كانوا يدعون نابلس "دمشق الصغرى". وشعرت بالفخر، لأن بعض أفراد عائلتها تجاوزوا كونهم جامعي ضرائب في المناطق الريفية، عيَّنهم والي دمشق العثماني، ليصبحوا جزءاً من النخبة الحضرية في نابلس وفلسطين. فكّرت في عمّها توفيق عبد الهادي الذي عيّنه السلطان نفسه عضواً في البرلمان العثماني في الآستانة.

تذكّرت تِيْتِة بسيمة الآن كيف أن ملّاك قصر عبد الهادي جميعهم في عرّابة لطالما تفاخروا بأن قصورهم في عرّابة بناها أشهر نقّاشي الحجر والبنّائين في نابلس، وكيف أن مخطّطات الساحات والأفنية تشبه قصور العائلات الأكثر ثراء في نابلس. ولكنها اليوم وبعد أن عاشت في دمشق، أدركت أن عريسها كان لديه المشاعر نفسها تماماً تجاه اسطنبول. ولكون والده دمشقياً، وأمّه اسطنبولية، لم تتمكّن تِيْتِة من معرفة ما الذي يشكّل مصدر التفاخر الأكبر لدى زوجها: كونه نصف دمشقي، أم نصف اسطنبولي! فهو حين كان في عرّابة أو نابلس، أعرب عن إعجابه وحبّه العميق لدمشق. لكنها تعيش الآن في دمشق، واكتشفت أن حلمه أن تصبح دمشق مثل اسطنبول.

بعد أن أصبحت تِيْتِة بسيمة تعيش في قصر دمشقي يتمتّع بواحد من أجمل السقوف الخشبية العثمانية المَطليّة باليد، أصبحت شغوفة أكثر بمعرفة كيف تبدو قصور اسطنبول، وخاصة قصر طوبقابي المشهور. فهمت لماذا تُشدّد شقيقات زوجها على أن أمّهنّ، حماتها الراحلة، جاءت من اسطنبول الأوروبية، وليس من الآسيوية. وخلصت إلى استحالة تصوّر مدينة عابرة للقارّات، وتمنّت أن يأخذها عريسها قريباً إلى اسطنبول لقضاء شهر عسل حقيقي هذه المرّة، ترى فيه إحدى أكبر مُدُن العالم، وتتذوّق فيه أشهى الأطباق التي اعتادت أخوات زوجها التفاخر بها.

اكتشفت تِيْتِة بعد بضعة أيّام من الزواج، أن جِدُّو نعمان، مثل أخواته الخمس، يتحدّث التركية بطلاقة. كانت لغته التركية في الواقع جيّدة مثل عربيّته. واكتشفت أيضاً أن العديد من الأطباق التي تعرفها على أنها "أطباق شامية" كانت في الواقع تركية، فقد كانت شقيقة زوجها الكبرى المتغطرسة شهيرة تقول: "معظم الناس يعتقدون أن الكباب، والبُرك، والبقلاوة، والبرغل، واليبرق، والشوربة، واللبن، والبوز، والبابا غنّوج، والشيشبرك، والقائمة تطول.. هي أطباق شامية، في حين أنها كلها، في الواقع، تركية". غالباً ما كان زوجها نعمان يصحّح لأخته الكبرى مبتسماً ابتسامة خفيفة قائلاً: "بل عثمانية". لم يكن لدى تِيْتِة أي فكرة عن الفرق بين الكلمَتَيْن المترادفَتَيْن: التركية والعثمانية، لذا لم تحاول الاستفسار. صحت من حلم

يقظتها، وعادت إلى التّمتّع بالجولة السياحية الكبرى التي أخذها فيها عريسها في دمشق.

أسرع الحصانان اللذان يجرّان العربة قليلاً عند خروجهما من ساحة المرجة، التي تشبه ساحة تقسيم في اسطنبول. ثمّ سرعان ما كانت العربة تسير في الطريق الرحبة المستقيمة في حَيّ الصالحية. كم تمنّت تِيْتِة أن يأمر زوجها الحوذي بأن يُبطئ مرّة أخرى، لتتمكّن من مشاهدة المحلات المتألّقة المنتشرة على جانبَي الشوارع في الصالحية، ولكنها كانت خجلة كما حالها دائماً، فلم تعبّر عن رغباتها. تحمّست عندما أسرع الحصانان ليُسابِقا الترام كلّما مرّ بجانبهما على طول الطريق. في مسعى منهما، ليُثبتا نفسَيْهما أمام سطوة وسائل النقل الجديدة التي دخلت المدينة، الأمر الذي أعلى ضحك تِيْتِة وزوجها، فراحا يصفّقان مشجّعين الحصانَيْن والحوذي على المتابعة، قال جِدُّو نعمان بأعلى صوته مازحاً: "أسرعا، أسرعا، اهزما هذا الوحش. هيّا، أيّها الحصانان الجميلان، هيّا، تغلّبا على قطار الحجاز، وقطار الشرق السريع". واصلت بسيمة ضحكها بصوت عال، وسألت عريسها، لأنها لا تعرف بالضبط من أين ينطلق هذا القطار الشهير أو إلى أين يذهب: "هل ركبتَ قطار الشرق السريع؟". ردّ عليها: "ليس بعد، ولكننا سنأخذ هذا القطار أنا وأنتِ يوماً، ليمضي بنا من اسطنبول إلى فيينا وباريس. ولكنْ، علينا أوّلاً أن نستقلّ قطار الحجاز".

سألتْه تِيْتِة التّقيّة: "هل يذهب إلى مكة؟"

قال جِدُّو نعمان ضاحكاً: " بل يذهب شمالاً، أريد أن آخذكِ إلى اسطنبول".

حافظت تِيْتِة على هدوئها وهي تفكّر بحماسة في موضوع ذهابها إلى اسطنبول، وقد أربكتْها تلك السكك الحديدية الجديدة للقطارات التي دخلت الخدمة منذ سنوات. لم يكن لديها أدنى فكرة عن قطار الشرق السريع، الذي دُشّن في عام 1883 واصلاً اسطنبول بفيينا وباريس وبخطّ الحجاز، وليربط هذا الأخير اسطنبول بدمشق، ومن ثمّ دمشق بالمدينة المنورة، ولكنْ، ليس بمكّة المكرّمة التي تتمنّى تِيْتِة الذهاب إليها لأداء فريضة الحجّ.

تذكّرت أيضاً مدى فخر عريسها وحماسته، كلّما أشار إلى المباني الضخمة الحديثة قائلاً: "هذه مستشفيات الغرباء الكبرى، وهي المستشفيات الأكبر في سوريا. وذلك البناء هناك وراء أشجار الصنوبر الضخمة مركز للشرطة، وهو الأوّل من نوعه! وهذا المبنى الأنيق الضخم هو البلدية الجديدة، وهذا أوّل بنك عثماني. وهناك بعيداً على قمّة جبل قاسيون سجن المزّة سيّئ السُّمعة. ولكنه ليس جديداً، فقد كان هناك منذ الحروب الصليبية".

ولكن الشيء الذي احتفظت فيه تِيْتِة لنفسها طيلة تلك السنوات كلها، ولم تبح به لزوجها المتيّم بدمشق، هو أن ما سلب فؤادها وخلّف أثراً كبيراً عليها حين وصلت مدينته، كان تلك الجولات التي قامت بها سيراً على الأقدام برفقة أخوات زوجها، فقد كانت دمشق بالنسبة إليها مدينة

الروائح العطرة، والبازارات المسقوفة التي لا تنتهي، والقصور فائقة الجمال. كانت هذه دمشق التي أحبّتْها. لن تنسى كيف غرقت في ألوان الأسواق المختلفة وروائحها! ورغم أن دمشق كانت تسمّى مدينة الياسمين، إلا أن الروائح العطرة كانت تتبدّل وهي تتنقّل بين بسطات الباعة المتنوّعة التي احتلّت أميالاً من البازارات المسقوفة، بدءاً من سوق مدحت باشا المسقوف على بُعد خطوات قليلة فقط من الدرب الآتي من قصر البارودي، إلى سوق البزورية للتوابل، وسوق الحريقة الذي كان يضمّ محلّات الحرير والغزل والنسيج. أمّا سوق الحميدية المشهور عالمياً، فما كان لشيء أن يضاهيه جمالاً وفخامة، بسقفه الصلب الأنيق، وفتحاته الدائرية التي يتسرّب منها الضوء الساحر، وبطوله الممتدّ لأكثر من أربعمئة متر منتهياً بالجامع الأموي الذي جسّد بالنسبة إليها تجربة آسرة، أمّا التجربة الأروع في دمشق، فقد كانت محلّ بوظة بكداش الذي يعود لعام 1885.

"نحن على مشارف البلدة"، قال إبراهيم متأهّباً.

انتفضت تِيْتِة، وتسارعت دقّات قلبها، وسألت: "هل نحن بالفعل في عرّابة؟". غاب عن بالها أنهم تركوا عرابة وراءهم عندما عبروا بصانور قبل ساعة.

"لا، يا أختي، نحن نقترب من نابلس. سيأخذنا السائق إلى بيت ابن عمّنا عوني عبد الهادي في البلدة القديمة، سنذهب إلى عرّابة إمّا الليلة أو في صباح الغد حسب الظروف.

سنرى عندما نصل إلى هناك". لم تتذكّر تِيْتِة مَنْ كان عوني من بين أبناء عمومتها الكثر. "يا الله... أرجوكَ، يا الله... ارحمني". فكّرت في عبارة شقيقها "حسب الظروف"، وأخذت تتردّد في رأسها.

فجأة وجدت نفسها وسط حشد من النساء، يرتدينَ الملابس السود، يُولولنَ وينتحبنَ أمام منزل ابن عمّها. فجأة فقدت كل أمل في أن ترى والدتها على قيد الحياة.ضاعت تِيْتِة في خضمّ ذلك البحر الأسود المتلاطم، حيث كانت تنتقل من شقيق إلى آخر، ومن ابن عمّ إلى آخر. كانت تحاول عبثاً أن تتعرّف إلى أفراد عائلتها بينما أخذت قبلات التعازي تنهال على وجهها "الله يرحمها"، وعلى رأسها "الله يرحمها"، وعلى يَدَيْها "الله يرحمها". وعندما انحسر تيّار "الله يرحمها"، وهدأ أقاربها، نجح إبراهيم، الذي أدرك أخيراً ضياع أخته، في سحبها خارج هذه الجموع، ممسكاً بيدها، ليمنحها بعض الخصوصية للحِداد مع شقيقَتَيْها الأصغر سنّاً. جاءت كلٌّ من نجاح وعطاف من عرّابة إلى نابلس للقاء أختهما الأكبر. كان على والد بسيمة وبقية إخوتها البقاء في المنزل لتولّي أمر مراسم الجنازة التي كان من المقرّر أن تجري في اليوم التالي في عرّابة.

لم ينمْ أحد تلك الليلة سوى سامية ذات الأربع سنوات، كانت مرهقة ومصدومة.

مع تباشير الفجر، وجدت سامية نفسها على ظهر الحصان مع أمّها. كانت سامية فرحة يغمرها الحماس وهي في هذه

الرحلة على الخيل لمدّة ثلاث ساعات بين نابلس وعرّابة. نظرت فرحة من على صهوة الحصان إلى الخيول التي تخبّ أمامها، ونسيت صدمتها البارحة عندما ضاعت بين الحشود التي جاءت لتقديم واجب العزاء. كانت تلك الرحلة على الخيل في الوديان كل ما تذكّرته أمّي سامية من تلك الرحلة برمّتها.

ساعد والد تِيْتِة ابنته بسيمة وحفيدته سامية في النزول عن صهوة الحصان، حيث خرج مع أشقّائها لـ "استقبالهما"، فعبارة "الترحيب بهما" ليست العبارة الصحيحة في مناسبة حزينة كهذه. اجتاحت تِيْتِة الكثير من عبارات العزاء، والعناقات الدافئة والقُبل الغامرة المالحة التي أدمت قلبها، في حين تمّ تمرير سامية من ذراع إلى آخر. ورغم ذلك، فإن تِيْتِة لم تستطع منع نفسها من التفكير بأن مشهد جنازة والدتها لم يكن مختلفاً عن مشهد زفافها قبل ثلاثين عاماً. كانت القرية بأكملها قد اجتمعت أمام منزل والدها في الفناءَيْن الخارجي والداخلي، وامتلأت غرف الضيوف والمعيشة جميعها. كانت النساء يركضنَ داخل المنزل وخارجه، يجهّزنَ غداء الجنازة. ذُبحت الأغنام والجمال لإطعام المعزّين، والأشخاص الذين تخصّصوا بالذهاب إلى الجنازات والأعراس، ليأكلوا.

آلم تِيْتِة، لحظة دخولها فناء منزل أهلها، غياب أمّها أيّما إيلام. وغمرها شعور عميق بالغربة والرهبة. أحسّت بأن البيوت يسكنها الخواء، بمجرّد وفاة الأمّ. وأمست تُجرجر قلبها معها وهي تتبع شقيقَتَيْها إلى الطابق العلوي نحو

غرفة المتوفّاة. عشّش السكون في الهواء. هيمن الصمت على الغرفة، وأكثر من هذا وذاك، كان مرأى أمّها المسجّاة الهاجعة في سريرها المرتّب بعناية مهيباً، ممّا أدّى بها إلى نوبة بكاء عارمة، دفعت بها إلى الانهيار.

"يا الله، لماذا أعادني الموت إليكِ، ولم تفعل ذلك الحياة؟ اغفري لي، يا أمّي".

الفصل الثاني

قلوب محطّمة

مضت أيّام، بل أسابيع، قبل أن تعرف تِيْتِة ما حدث بالضبط خلال غيابها. وكباقي النساء، شعرت تِيْتِة بالأمر قبل أن تعرف تفاصيله، أو على الأصحّ قبل أن تستجمع ابنتها ليلى شجاعتها لتخبرها. ما إن وصلت في وقت متأخّر من النهار إلى بيتها في دمشق حتّى وجدت، كما هو متوقّع، أفراد عائلة البارودي الكبيرة جميعهم في الليوان الخارجي وفناء البيت في استقبالها لتقديم التعازي. أحسّت تِيْتِة رغم الاستقبال الحارّ، بالتّوتّر والقلق المهيمنَيْن على الجوّ، بدا ذلك واضحاً في الوجوه المضطربة لبناتها وأبنائها، بل حتّى في وجوه أخوات زوجها الخمس. تصاعدت وتيرة التّوتّر في فترات السكون الطويلة. تمنّت تِيْتِة أن تكون وفاة والدتها هي التي تسبّبت في هذا التّوتّر كله في أثناء استقبالها، ولكنها أدركت في أعماق نفسها أن وراء الأكمة ما وراءها.

كان أكثر ما أثار قلقها ملامح وجه خالتي ليلى، وشَفَتَيْها المزمومَتَيْن وعينَيْها القلقَتَيْن. فهي التي كانت تعرف خفايا الأمور، وتتحكّم في كل شيء في هذه العائلة. لم يغبْ عن تِيْتِة، التي أغرقتها القُبلات والأحضان، أن تلاحظ غياب جِدُّو نعمان، كيف يمكن ألا يكون في استقبالها بعد هذا الغياب كله؟! لم يكن من عادة زوجها التّغيّب في مثل هذه اللحظات المصيرية في حياتهما المشتركة. إن لم يكن من أجلها، فاحتراماً لذكرى حماته الراحلة. استفسرت بقلق خصوصاً وأنه لم يكن من عادته ألا يقوم بواجبه في مثل هذه المناسبات الحزينة، أو السعيدة: "أين أبو أحمد؟ هل أصابه أيّ مكروه؟" لامت نفسها على الفور، لأنها لم تلاحظ غيابه فور وصولها، وأحسّت بالقلق.

ما إن سألت تِيْتِة عن جِدُّو حتّى ساد الصمت، وامتقعت الوجوه.

أجابتْها خالتي ليلى محاولة السيطرة على صوتها، في حين غرق أفراد الأسرة الآخرون في صمتهم:

"أبي على ما يرام، وهو في طريقه إلى البيت، إنه مشغول وغارق في العمل هذه الأيّام". التزم الجميع الصمت حسب تعليمات خالتي ليلى الصارمة:

"لا تُصدِروا أيّ صوت، أَبقُوا شفاهكم وأفواهكم مغلقة". بمجرّد وصول جِدُّو نعمان، اختفى من المشهد معظم أفراد الأسرة المترامية الذين جاؤوا لتقديم التعازي.

بدا جِدُّو نعمان متردّداً وحائراً، لدرجة لم تشهد تِيْتِة مثيلاً لها في حياتها الزوجية الطويلة معه، والممتدّة لأكثر من ثلاثين سنة. كان جِدُّو نعمان الذي طالما تمتّع بحضور طاغ سواء في حديثه أو مزاحه، مستغرقاً تماماً في التفكير. لم يكن في حالته الطبيعية، فقد تفوّه ببضع كلمات فقط في تلك الأُمسيّة. لم يتمكّن من إكمال قصّة بدأها، ولم يستمع إلى أي إجابة على سؤال طرحه. اختارت تِيْتِة التي أُنهِكتْ من رحلتها الطويلة، والتي شعرت بعدم الارتياح من حديث زوجها، أن تذهب إلى الفراش أبكر من المعتاد في تلك الليلة. قالت في نفسها: "الصباح رباح"، وبعد أن تمنّت ليلة هانئة لعائلتها، سارعت إلى غرفتها.

لم تتمكّن تِيْتِة بسيمة المرتبكة والمتعبة من النوم في تلك الليلة.

سهر جِدُّو نعمان وخالتي ليلى إلى وقت متأخّر يتحدّثان ويتهامسان طيلة الليل.

وعندما ذهب جِدُّو نعمان أخيراً إلى السرير، تظاهرت تِيْتِة بأنها تغطّ في النوم.

تمنّت ألا يقترب منها وهي مجلّلة بالإرهاق والحزن. وفعلاً لم يقترب منها، ممّا أثار استغرابها.

تظاهرت هي بالنوم، وتظاهر هو بأنه قد غفا على الفور.

تجمّد كلّ منهما على جانبَي السرير، وأدارا ظهرَيْهما لبعضهما متباعدَيْن بمسافة غير مسبوقة.

كان كلّ منهما على إحدى حافَّتَي سرير الزوجية، وعلى وشك أن يسقط عنه، وكانت حياتهما الزوجية المشتركة توشك أن تتهاوى.

بدت ليلة طويلة بلا منتهى. وعندما استيقظت تِيْتِة، كان جِدُّو قد اختفى.

لم تلحظ تِيْتِة غياب ساجدة إلا في الصباح، إذ فوجئت بغالية تجلب قهوة الصباح بدلاً من ساجدة. وعندما سألت عنها، ردّت غالية مرتبكة "ساجدة مريضة، نقلوها إلى المستشفى".

استفسرت تِيْتِة: "مسكينة... ما الذي حصل لها؟"

ردّت غالية: "لا أعرف، يا خانم، لمَ لا تسألين ليلى خانم، فهي تعرف أكثر منّي؟". وخرجت مسرعة من الغرفة.

جلست تِيْتِة بسيمة في سريرها، تحتسي قهوتها، يغمرها ضوء مُوحِش.

شرد ذهنها، ومضت تتنقّل في هواجسها بين مرض ساجدة وبرود زوجها نعمان، وسرعان ما غرقت في تفاصيل زيارتها الأخيرة إلى عرّابة. فكّرت في وفاة والدتها، والزيارة التي تحرق القلب إلى منزل أهلها الخاوي. استعادت تفاصيل الجزء الوحيد الممتع من زيارتها، الأسبوعَيْن اللّذَيْن أمضتهما مع سامية في فيلا عائلة الجمل الحديثة في القدس. وكانت تلك زيارتها الأولى للقدس. أحبّت المدينة، وعشقت حَيّ الطالبية، حيث عاش أنسباؤها الأغنياء. كم هو مريح للنَّفْس ذلك المدى المفتوح من

الحقول والحدائق المحيطة بالفيلات الفخمة في أحياء القدس الجديدة! أدركت للمرّة الأولى في حياتها الطبيعة الخانقة للأزقّة الضيّقة للمدينة القديمة في دمشق. لم يسع تِيْتِة بسيمة سوى أن تبتسم، على الرغم من أفكارها ومشاعرها المختلطة، عندما تذكّرت كيف وقعت صغيرتها سامية ذات الأربع سنوات في غرام ابن عمّتها وسيم ذي الأربعة عشرة عاماً، الابن الأصغر لكنّتها زهوة وزوجها عبد الفتّاح. ضحكت عندما تذكّرت كيف بكت سامية حين أزف موعد مغادرتهما القدس والعودة إلى دمشق: "لا لا، لن أغادر، أريد أن أتزوّج وسيم، وأبقى هنا طول عمري". تمسّكت سامية بإحدى ساقَي وسيم الطويلَتَيْن وهي تضمّ إلى صدرها الدمية التي جلبها لها في اليوم السابق. كان من شبه المستحيل فصلها عنه.

انشغل ذهنها، بعد أن عادت مجدّداً إلى قصص عائلتها الدمشقية، بتصرّف جِدُّو ومرض ساجدة.

تنهّدت حين نهضت من السرير لمواجهة يوم طويل آخر. كانت تجلس على أحد الديوانَيْن في الفناء بعد الجولة الثانية من القهوة عندما ظهرت خالتي ليلى من غرفة نومها. وبلمح البصر، ظهرت فاطمة بركوة قهوة أخرى، وعلى الفور، سألتها تِيْتِة عن مرض ساجدة:

"ما بها ساجدة؟ قالت غالية إنها في المستشفى، هل أُصيبت المسكينة فعلاً بمرض صعب؟"

رشفت ليلى رشفَتَيْن سريعَتَيْن من القهوة قبل أن تضع الفنجان على طاولة النحاس المستديرة أمامها، وتنتقل من ديوانها إلى ديوان والدتها. جلست بجانب أمّها، وأمسكت ذراعها بلطف، ثمّ حوّلت نظرها عنها قائلة: "يا أمّي، لقد حدث شيء فظيع في غيابكِ، وقد طلب منّي أبي أن أنقل لكِ الأخبار الحزينة". تهدّج صوت ليلى، ثمّ واصلت:

"ساجدة ليست في المستشفى، بل هي عند عمّتي رسمية. وهي ليست مريضة، إنها حا...". تلعثمت ليلى قليلاً قبل أن تنطق كلمة حامل.

شهقت تِيْتِة صافعة خدَّيْها بكفَّيْها: "حامل؟!"

كرّرت ليلى "نعم، حامل"، كما لو أنها تريد أن تتأكّد من وصول الحقيقة المرّة إلى أمّها. أخذت تِيْتِة تتلو آيات قرآنية على الفور. كانت هذه اللحظة التي خشيت منها ليلى لأسابيع طويلة بعد أن كلّفها والدها بأداء هذه المهمّة الصعبة. بدا واضحاً أنها تريد إنجاز هذه المهمّة على أكمل وجه، لتزيحها عن كاهلها: "وأبي هو الوالد". انفجرت ليلى بالدموع بمجرّد أن قالت تلك العبارة التي تحرق القلب.

"هل قلتِ أبوكِ.. أبوكِ نعمان هو الوالد؟ أبو أحمد؟" أرادت تِيْتِة بسيمة التّأكّد من أن ما سمعته للتّوّ كان صحيحاً، فاستخدمت اسم جِدُّو نعمان وكنيته.

"نعم، يا أمّي، أبي".

جفّت الكلمات، وبلّلت الدموع المشهد، بمجرّد أن أصبحت الحقيقة واضحة وضوح الشمس.

ذرفتا الدموع، واحتضنت الأمّ والبنت كلّ منهما الأخرى.

ذرفتا الدموع، وابتعدت الأمّ عن ابنتها.

ذرفتا الدموع حتّى تمكّنت تِيْتِة بسيمة من الوقوف على قَدَمَيْها المرتجفَتَيْن، ومشت متثاقلة، تساعدها ابنتها عبر الفناء.

ذرفت تِيْتِة الدموع وهي تختبئ من العيون التي تسترق النظر إلى ألمها من وراء باب غرفة النوم وشبابيك المطبخ والنوافذ والأبواب.

ذرفت الدموع حتّى وصلت غرفة نومها.

ذرفت الدموع حتّى ارتمت على سريرها.

ذرفت دموعاً لا تُكفْكَف تحت شرشف القطن الأبيض، إلى أن شقّت صرخة تصمّ الآذان الأرض والسموات.

"لا! يا ربّ، يا الله، ما الذي فعلتُه لأستحقّ هذا كله؟"

صرخة رجّت أركان قصر البارودي قبل أن يسود صمت تامّ.

لم تخرج تِيْتِة بسيمة من غرفة نومها عدّة أيّام. واختفى جِدُّو نعمان عدّة أيّام أيضاً.

ثمّ ظهر عند قَدَمَي زوجته. أمسك رأسها بين كفَّيْه الكبيرَتَيْن، وقبّلها على جبينها:

"بسيمة، أتوسّل إليكِ، سامحيني".

أدارت وجهها بعيداً عنه من دون أن تنبس ببنت شفة.

أمسك ذراعها، وقبّل يدها مرّة ومرَّتَيْن وثلاثاً قبل أن تسحبها بعيداً عنه، وتطلب منه الرحيل.

ورحل.

اختلت تِيْتِة شهراً قبل أن تخرج من صومعتها. ورغم أن الشهر لم يكن رمضان، إلا أنها غرقت في الصوم والصمت والعبادة طيلة ذلك الشهر. كانت خالتي ليلى هي التي تحمل لها القليل من الماء والطعام عند أذان المغرب للإفطار، وتحمل لها أيضاً القليل من الماء والحساء للسحور قبل بزوغ الفجر. لم تنطق تِيْتِة بسيمة بأيّ كلمة لشهر كامل. ثمّ سألت فجأة في إحدى الأُمسيّات: "أين ساجدة؟" وكان السؤال موجَّهاً إلى خالتي ليلى، الوحيدة التي سُمح لها بالدخول إلى الصومعة، بل ربّما كانت الوحيدة التي تمكّنت من فرض نفسها عليها.

ردّت ليلى مرتبكة، والسعادة واضحة في صوتها، بعد أن كسرت والدتها صمتها أخيراً: "لا تزال عند عمّتي رسمية".

"أحضريها"، قالت تِيْتِة بوضوح وحزم. تساءلت خالتي ليلى، لتتأكّد من أن ما سمعته كان صحيحاً: "أمّي! هل قلتِ لي أن أُحضر ساجدة إلى البيت؟".

"نعم، أحضري تلك المسكينة، أريد أن أتحدّث معها". أرادت ليلى أن تسأل أمّها ما الذي تريد أن تقوله لساجدة، ولكنها أحجمت عن ذلك لإدراكها مدى ألمها ومعاناتها.

عرفت خالتي ليلى أيضاً مدى عطف أمّها على هذه "المسكينة" ساجدة.

لطالما أشارت تِيْتِة بسيمة إلى ساجدة بكلمة "المسكينة" منذ وصولها إلى قصر البارودي قبل خمسة وعشرين عاماً. أطلقت عليها هذا الوصف، لأن والد ساجدة الأرمل قد تخلّى عنها في سنّ الثانية عشرة. توفّيت والدة ساجدة وهي تُنجب طفلة أخرى. كانت أكبر بناته الخمس، ولم يستطع والدها، الذي كان يعيش في الحجاز، ونكبه الفقر والجوع، أن يُطعمها وشقيقاتها الأربع الأصغر. كان الحلّ الوحيد أمامه أن يعمل جاهداً على تزويجهنّ في سنّ مبكّرة، أو كما حصل في حالة ساجدة أن يسدّد بهنّ ديونه. لن تنسى بسيمة يوماً كيف وصلت تلك "المسكينة" فجأة مع جِدُّو نعمان بعد عودته من إحدى رحلاته التجارية المتكرّرة إلى الحجاز. وعندما سألته تِيْتِة بسيمة عن "المسكينة" أجابها محاولاً الرّدّ على ملامح الرعب التي ارتسمت على وجه تِيْتِة بسيمة:

"بما أن والدها لم يكن قادراً على رَدِّ دينه لي، ثمن الجملَيْن اللذَيْن اشتراهما قبل فترة، فقد أعطاني ابنته في المقابل. أعلم، يا بسيمة، أعلم، ولا حاجة لأن تقولي لي شيئاً، لقد أخبرتُه بأنني يمكن أن أُمهله، ولكنه أصرّ، حتّى إنه توسّل إليّ قائلاً إنني على الأقلّ سأتمكّن من إطعامها"، وهذا ما وجدت بسيمة برهاناً واضحاً عليه من الهيكل العظمي البشري الذي يقف أمامها. صمتَ جِدُّو نعمان برهة ناظراً إلى المسكينة التي ترتجف أمامه، ثمّ أضاف: "أقسم والدكِ

بالله، بأنه سيأتي لرؤيتكِ قريباً. قريباً جدّاً". انفطر قلب تِيْتِة بسيمة، لأنها أحسّت بأن ساجدة لن ترى والدها أو أيّ أخت من أخواتها الأربع طيلة حياتها. ولكن هذا لم يجعل ساجدة تتوقّف يوماً عن استجداء جِدُّو نعمان للبحث عن أخبار والدها وأخواتها الذين تفتقدهم، ولكنْ، دون جدوى.

"أقسم بالله، يا ساجدة، أنني حاولتُ، بذلتُ جهدي كله للعثور على والدكِ، ولكنه اختفى، ولا أحد، صدِّقوني، لا أحد في كل الحجاز يعرف أين ذهب". ما تعرفه تِيْتِة بكل تأكيد أن الأب الذي يريد أن يرى ابنته سيجد إلى ذلك سبيلاً، وقصر البارودي في دمشق لا يخفى مكانه على أحد. ولكنْ، للأسف لم يأتِ أحد طيلة خمسة وعشرين عاماً، ليسأل عن ساجدة.

كثيراً ما كانت تِيْتِة بسيمة، التي لم ترَ أهلها في عرّابة على مدى الثلاثين عاماً الماضية، تحنّ على ساجدة الأصغر منها بأربع سنوات، والتي وصلت إلى عتبة قصر البارودي بعد أربع سنوات من وصولها إلى بيتها الجديد. أدركت تِيْتِة أن "المسكينة" لم يكن لديها أيّ فرصة للهرب من مصيرها المحتوم، ليقينها كم كان زوجها لحوحاً عندما يتعلّق الأمر بإشباع رغباته الجنسية. كرهت تِيْتِة جِدُّو نعمان، وخجلت من فعلته المشينة التي وضعتْها في موقف حرج كهذا. هل شعرت بأن ساجدة منافسة لها؟ هل شعرت بالغَيْرة من "المسكينة"؟ حاولت تِيْتِة بسيمة لمدّة شهر تصفية ذهنها، بل تنقية روحها الطّيّبة.

أخيراً، تمكّنت أن تغفر، ولكنها لم تنسَ أبداً.

أحضَروا ساجدة إلى المنزل عصر ذلك اليوم. ملأ التّرقّب والتّأهّب الأجواء في كل ركن من أركان قصر البارودي، خصوصاً أن خالتي ليلى قد أبلغت الجميع عن عودة ساجدة. جاؤوا بها على الفور إلى جناح سيّدتها. ركعت على ركبَتَيْها فور دخولها الغرفة، قبّلت قَدَمَيْها، وطلبت المغفرة "دَخِيْلِكْ سامحيني، دَخِيْلِكْ، سامحيني"، وأخذت ساجدة تُكرّر العبارة منتحبة.

"الله يسامحنا جميعاً، قفي، يا بنتي، أعلم أنه لم يكن خطأكِ". بكت تِيْتِة بسيمة، ثمّ أضافت "هكذا الرجال دائماً، لا يمكن الوثوق بهم". أخذت نَفَسَاً عميقاً، ثمّ أضافت: "والآن، يا ساجدة، استمعي إليّ جيّداً. انتبهي لنفسكِ ولطفلكِ. إنها إرادة الله أن يرزقكِ طفلاً وعائلة"، وبكت المرأتان. استسلمت تِيْتِة لمصيرها مدرِكة أنها لا تملك وساجدة أيّ مفرّ ممّا جنتْه أسرتاهما عليهما.

همهمت تِيْتِة بينما كانت ساجدة تغادر الغرفة: "شيئان يمرّان مرور الكرام، تعريصة الغني، وموت الفقير".

استغرقت تِيْتِة بسيمة في التفكير بأن كل ما في هذه المدينة، وخاصّة أهاليها الأغنياء، مبطّن وذو وجهَيْن، كقماش دمشق الحريري الناعم الشهير ذي الوجهَيْن أيضاً.

الفصل الثالث

سامي: الفضيلة المؤلمة

سامي هو الاسم الذي أَطلق على الطفل العَفيّ الأسود الذي وُلد في صباح ربيعي منعش في عام 1927. وسامي تعني الفضيل، من الفضيلة. ولا يمكن للمرء إلا أن يبتسم من المفارقة نظراً للأحداث الدرامية التي أدّت إلى حمل ساجدة، وولادة هذا الطفل البهيج. ولو كان اسمه على مسمّاه، لأطلق عليه اسم ابتسامة أو بسمة أو ابتسام أو حتّى بسيمة، وكلها أسماء إناث، ولا شيء في سامي الصغير رقيق أو أنثوي، ملامحه كبيرة وواضحة كلها: رأس كبير مستدير، عينان سوداوان كبيرتان، أنف كبير مسطّح، وفم كبير مع شَفَتَيْن شهوانيَّتَيْن. كانت ساجدة تصلّي في كل يوم من أيّام حملها. تسعة أشهر كانت أشبه بتسعة أعوام. تتوسّل إلى الله أن يرزقها صبياً، ونالت كل ما تمنّتْه وأكثر: طفلاً ذكوري المظهر رجولياً تقريباً.

كانت ساجدة تنشر الشراشف القطنية البيضاء الثقيلة على حبل الغسيل عندما اتّخذ الطفل قراره: كان الوقت مناسباً بالنسبة إليه للخروج أو بالأصحّ القدوم إلى عالم طالما انتظره. وبالكاد تمكّنت أمّه من الوصول إلى سريرها في الوقت المناسب. وعلى الرغم من حجمه الكبير، وُلد بعد دقائق فقط من نزول ماء رأسه، وقبل أن تُدرك أمّه أنها ولدتْه. كان في عجلة من أمره، لكي يمنح كل مَنْ حوله ابتسامة عريضة، كان الجميع بحاجة ماسة إليها. لم ينتظر حتّى وصول الداية، جارتهم القابلة اليهودية سارة، التي جاءت لتساعد أمّه. خرج إلى العالم بنفسه دون مساعدة أحد، ولكنه ترك للداية المهمّة البسيطة المتمثّلة بقطع حبله

السرّيّ، ولوالدته المتعبة التي تفوح منها رائحة العَرَق، الوظيفة الأصعب، وظيفة التّخلّص من المشيمة. ولعلّ الصرخة الوحيدة التي نطق بها هذا الطفل الهني كانت عندما أمسكتْه القابلة من قَدَمَيْه، وقلبتْه رأساً على عقب، وربّتت على مؤخّرته. حملتْه عارياً إلى أمّه القلقة التي أخذتْه بين يَدَيْها المتلهّفَتَيْن، والدموع تجري على وجنَتَيْها.

توهّج مثل أشعّة الشمس.

ومثل أشعّة الشمس منحها الدفء والأمان الفوري.

كان شمس أمّه.

كان شمس والده البالغ من العمر خمسة وستّين عاماً.

كان شمس العاملين جميعهم في الطابق السفلي.

كان شمس أخواته الخمس وإخوته الثلاثة.

وربّما يصعب أن نصدّق أنه سرعان ما أصبح الدمية المفضّلة لأخته سامية المدلّلة البالغة من العمر خمس سنوات.

عندما رأى سامي النور في ذلك الصباح، كانت أمّي سامية في الخامسة من عمرها، وهي التي كانت حتّى لحظة ولادة شقيقها لعبة عائلتها المفضّلة، ومدلّلة والدها. وتوقّع الجميع أن تشبّ الغَيْرة في قلب سامية الطفلة الجميلة خضراء العينَيْن تجاه أخيها الوليد. ولكن هذا لم يحدث أبداً. الغريب أن سامية تخلّت ببساطة عن دميتها الخزفية الشقراء لصالح دميتها السوداء المتحرّكة الجديدة.

الدمية التي لم تفارقها منذ أن أعطاها إيّاها ابن عمّتها وسيم الجمل قبل ستّة أشهر. على الرغم من أنه كان الحبّ الأوّل في حياتها، إذ وقعت في حبّه وهي في الرابعة من عمرها، لم تتردّد ولو للحظة في أن تنساه وتنسى كل شيء عنه (لا عجب، فالوفاء لم يكن يوماً من صفات أمّي). وهكذا انتقل حبّ أمّي وهوسها من دمية ابن عمّتها وسيم إلى أخيها الصغير سامي. لم يستطع أحد أن يفسّر أو يبرّر كيف ولماذا جلب هذا الطفل هذه السعادة كلها لأسرته، على الرغم من خلفيات ولادته.

ذابت عليه القلوب بينما كان يتمّ حمله بجسمه الثقيل من ذراع إلى آخر: من الذراعَيْن المشغولَيْن لأمّه التى لا تسعها الدنيا سعادة، إلى ذراعَي غالية الحنونَيْن. من فاطمة صاحبة الشخصية المراوِغة إلى كريمة طيّبة القلب، من ذراعَي أختة غير الشقيقة كريمة إلى ذراعَي المتسلّطة ليلى التي كانت أكبر منه بثلاثة عقود، والتي لم يسبقْ لها أن حملت طفلاً من قبل. صدِّق أو لا تصدِّق، فقد وجد طريقه رويداً رويداً إلى ذارعَي تِيْتِة، وتسلّل برفق إلى قلبها المكسور، ليشفيه. كانت الابتسامات والضحكات والقهقهات التي خبّأها سامي الصغير خصّيصاً لتِيْتِة تجعل قلبها يُزقزق. وهكذا لم تستطع تِيْتِة بقلبها الطّيّب إلا أن تذوب. تطوّرت رابطة سِحْرِيّة بين الاثنَيْن: الطفل الشّقيّ البريء والملاك الطّيّب المتسامح.

بينما هو يركض ويتعثّر بين طابق الخدم السفلي وطابق الأسياد العلوي، بين غرفة نوم أمّه في قسم الخدم وغرفة

والده وغرفة تِيْتِة في القاعة التحتا، وبين المطبخ حيث والدته وغالية وفاطمة يقضينَ معظم وقتهنّ، والليوان والفناء حيث تجلس تِيْتِة وأخواته، كان سامي كالعنكبوت الصغير ينسج شبكة من العلاقات العائلية لا مثيل لها مع لمسة من المساواة بين الطابق العلوي والطابق السفلي من قصر البارودي. تقاسم كل مَنْ الطابق العلوي والطابق السفلي سعادة مجيئه وذهابه فيما بينهما بالتساوي. وهكذا وحّد سامي الضحوك العالَمَيْن الطابق العلوي والسفلي اللذَيْن انتمى إليهما بالتساوي.

ولطالما سُمع سامي الوسيم الذي كبر شيئاً فشيئاً يمزح قائلاً: عندما أكبر، سأحظى بمنزل كبير، وسآخذ أمّي الغالية، لتعيش معي، وأصمدها في صدر الصالون، وسأتزوّج صاحبة العينَيْن الأكثر زرقة في العالم، والبشرة الأكثر بياضاً، والشَّعْر الأكثر شقرة"، وتمازحه غالية "ستأخذ أمّكَ الغالية، لتسكن معكَ؟ أم ستأخذ غالية؟"

ولكنْ، وكما نعلم جميعاً، ليس هناك شيء أكثر جدّيّة من النكتة.

ففي واقع الأمر، لم يحصل خالي سامي في سنّ الثانية والعشرين على منزل كبير وحسب، بل أخذ والدته ساجدة، لتعيش فيه أيضاً. ولم يتزوّج زوجة شقراء وحسب، بل تزوّج ثلاث شقراوات. ولأن زوجة خالي سامي الأولى، الزوجة الحلم بيضاء البشرة الغنية الجميلة والأكبر منه بعشر سنوات، كانت عاقراً، فقد هيّأت له زواجه الثاني، ثمّ

الثالث، والنتيجة أربعة من الأطفال الجميلين الذين طالما حلم بهم. سمّى ابنته الأولى، في خطوة أخرى من خطوات التوحيد بين العالَمَيْن ساجدة، وابنه الأوّل نعمان، وابنته الثانية بسيمة، وابنته الثالثة ليلى.

وهكذا عاشوا جميعاً بسعادة للأبد أو هكذا ادّعوا!

الجزء الثاني

سامية 1922-2005

الفصل الرابع

سامية - القدس 1946

لم تحبّ الطبخ يوماً، ولا أيّاً من الأعمال المنزلية. تتململ أو تتفاخر بالقول: "لم أرغبْ في الزواج يوماً، ناهيكَ عن إنجاب الأطفال"، تردّد مقولتها هذه باستمرار، وهي تنظر مباشرة في وجوه أطفالها.

يا لروعة أن يكون هذا الشخص أمّكَ!

وبما أن الموضوع لم يكن شخصياً، أي أنه لم يكن موجّهاً ضدّ أطفالها الأربعة، فقد سلّحهم موقف أمّهم المبكّر بذخيرة كافية لمواجهة هذا العالم، مدعومين أيضاً ببعض جلسات العلاج النفسي من وقت لآخر.

ها هي سامية الآن تجد نفسها متزوّجة من رجل صعب، ولديها طفلتان متطلّبتان: مروة مفرطة النشاط، ونانا مفرطة الحساسية، ليلحق بهما طفلان آخران خلال بضع سنوات، أخي باسل وأنا. لطالما وجدت سامية، أمّي، نفسها منغمسة بعصبية في الفوضى التي نشرتها من حولها في المطبخ الصغير في بيتها في القدس. كان منزل غوشة، حيث عاش والداي في الأربعينيات، يقع في حَيّ الشيخ جرّاح.

نادراً ما كانت أمّي الجانب الخاسر في نظام المقايضة الذي مارستْه مع جارتها أمّ علاء الساكنة في الطابق الأوّل من المبنى المجاور. وينصّ برنامج أمّي الذكي، "الغداء مقابل أحمر الشفاه"، على أن تحسب أمّ علاء حساب أمّي وعائلتها ببعض الطبخات أحياناً، وترافق ابنتيها لساعة أو ساعَتَيْن عند خروج أمّي من البيت في أحيان أخرى. وبالمقابل تقدّم أمّي لها الهدايا التي تجلبها معها كلّما ذهبت إلى زيارة عائلتها في دمشق. وتشمل الهدايا الدمشقية على سبيل المثال لا الحصر: درجات أحمر الشفاه كلها، وعلب المكياج من الأحجام جميعها، وصناديق خشبية جميلة، تحتوي على تشكيلة من أنواع الفواكه المجفّفة، بما في ذلك المشمش والخوخ والكمّثرى، وحتّى الباذنجان المسكَّر الصغير، والحلويات السورية المشهورة عالمياً، والمربَّيات الشهية، وخاصة مربّى السفرجل ومربّى الخشخاش. كانت أمّي تصاب بلحظات كرم طائي محسوبة بدقّة.

كانت قيمة الهدية التي تعطيها أمّي لأمّ علاء وبناتها تعتمد على كمّيّة الطهو، وأيّام مجالسة الأطفال التي تحتاجها أمّي لهذا الأسبوع. وتكرّر برنامج المقايضة أكثر ممّا توقّعتْ أو تمنّتْ أمّ علاء. كان من الواضح مَن المستفيد أكثر من صفقة المقايضة التي وقعت بين امرأة شامية محنّكة، ابنة تاجر دمشقي، وامرأة لطيفة من القدس.

لم تدرك أمّ علاء أن والدتي، ومنذ كان عمرها خمس أو ستّ سنوات، قد رافقت والدها لمصانع الثلج والخشب. وخلال دقائق من وصولها، كانت أمّي تتسلق، وبشكل

طفولي وعفوي، الكرسي المرتفع وراء صندوق المقبوضات، لتتولّى أمور المبيعات والدفعات للساعات القليلة التي تقضيها مع والدها هناك. لو كان موقع يوتيوب موجوداً في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، لكانت أمّي قد حقّقت دون أدنى شكّ أعلى المشاهدات، بوصفها أصغر فتاة معجزة في الرياضيات: أسرع طفلة وأصغر طفلة تُتقن الضرب والقسمة والجمع. وكان الشيء الوحيد الذي لم تحبّه والدتي أو لم تبالِ به هو الطرح، أي الإنقاص لأسباب مفهومة بالطبع. لذلك كان جِدُّو يمازحها دائماً بشأن تلك الصفة "تعرف سامية على الفور، وعلى نحو غريزي، كم ينبغي على الزبون أن يدفع لها، ولكنها كانت تماطل وتراوغ عندما يتعلّق الأمر بحساب كم عليها أن تُرجِع لذلك الزبون".

كانت أسواق مدينة القدس كالمدينة نفسها محكومة بحروب ونزاعات لا تنتهي، لذا كانت غالبية محلّات القدس تلبّي حاجيات حجّاج ديانات الله الثلاث "المفضّلة": شعب الله المختار، شعب الصفوة المسيحي، وشعب خير أمّة أُخرجت للناس. أمّا المتاجر القليلة التي لم تكن تبيع احتياجات زوّار الله الكثيرة، فقد كانت تبيع الموادّ الغذائية الأساسية التي تُلبّي حاجات المجتمع المحلّيّ. أمّا الأسواق المتنوّعة في دمشق، وعلى النقيض من القدس، فقد كانت تبيع كل ما يحلم به المرء أو يرغب فيه، ليعيش حياة دنيوية منحلّة. اطلب تجد في أسواق دمشق. يمكن للمرء أن يجد الأقمشة العالمية الشهيرة مثل النسيج ذي الوجهَيْن

المعروف باسم الحرير الدمشقي، كان هذا القماش يُدعى الدمشقي أو الدماسين، قماش رائع مشهور عالمياً مصنوع من أرقى أنواع الحرير. كان هناك أيضاً قماش الأغباني الشهير، نسيج من القطن المطرز الذي يُستخدم غالباً لصنع مفارش المائدة المزيّنة بخيوط الفضّة والذهب على خلفية ملوّنة زاهية. كان الأثاث الشامي المصنوع يدوياً والمطعّم بالصدف مطلوباً لجودته العالية. كانت الصواني النحاسية الصفراء المنقوشة بالخطوط الفضّيّة ومشاهد الحيوانات البرّيّة، بالإضافة إلى تصاميم الأزهار والتصاميم الهندسية خلّابة أيضاً. وكان هناك أيضاً السّجّاد الصوفي الراقي، والمجوهرات أو "الصيغة" المسبوكة من الذهب والفضّة، والزجاج المنفوخ يدوياً. هذا إذا أردنا أن نعدّد بعض المنتجات الحرفية على سبيل المثال لا الحصر.

ركّزت أمّي في الغالب، بسبب النطاق الصغير والطبيعة العائلية لاتّفاقية المقايضة مع أمّ علاء، على الحلويات الشامية، وأدوات الماكياج، وأقلام أحمر الشفاه الغامقة. جاءت هذه الأصناف جميعها من سوق الحميدية، السوق المسقوفة الرائعة، التي سُمّيت على اسم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي أشار ببنائها عام 1880.

ظهر التناقض الصارخ بين أحمر الشفاه اللامع الذي أعطتْه أمّي لأمّ علاء وملابسها وملابس بناتها الأشبه بملابس الراهبات. بدا وكأنه لمبة حمراء على تمثال برونزي فلسطيني قديم.

العودة إلى مطبخ أمّي

غرقت سامية في الفوضى التي نشرتها من حولها في المطبخ الصغير في بيتها في القدس: أوعية طبخ وقلي مختلفة الأحجام منثورة هنا وهناك، خزائن وأدراج مفتوحة على مصراعَيْها، وعلب البازلاء وربّ البندورة المفتوحة ونصف المفتوحة والمدلوقة على طاولة المطبخ، وعشرات من الأطباق والمصافي والأكواب والزبادي والملاعق والشوك والسكاكين المتّسخة في المجلى وخارجه. فوضى المطبخ تجعل المرء يعتقد، أو يأمل، أو حتّى يتمنّى أنها، وعلى غير عادتها، انخرطت في مغامرة طبخ حقيقي، في طبق يختلف عن وجبة الغداء المعتادة: رزّ وبازلاء. الرّزّ مع الشعيرية والبازلاء شبه الخضراء "الطازجة" الخارجة للتّوّ من المعلبات، بما فيها من الموادّ الحافظة، مع معجون ربّ البندورة من علبتَيْن أصغر حجماً. على نحو ما أقنعت أمّي نفسها، وأقنعتْنا معها، ولسنوات عديدة، أن طهو الأرز أصعب عمليات الطبخ على الإطلاق. لأنه، حسب ادّعائها، يتطلّب مهارة عالية خاصّة في ما يتعلّق بنسب الماء وكمّيّات الملح. ولم تتوقّف الادّعاءات عند هذا الحدّ، بل إن أمّي سامية كانت تتجرّأ على التباهي بأن "الرّزّ والبازلاء وجبة غذائية كاملة"، وتبدأ من دون أي خجل بسرد المكوّنات والقِيَم الغذائية لهذه الوجبة "الشهية" واحداً تلو الآخر: "الكربوهيدرات والخضروات والبروتين الكامل!" و"البروتين الكامل" إشارة إلى قطع صغيرة من اللحم أُلقيت على عجل في مرقة البندورة.

يا لها من وجبة مقرفة، تتقزّز لها النفوس!

وهنا لا بدّ لي أن أضيف أنه لم يسبقْ لأحد أن استخدم طنجرة البخار أو الضغط كما فعلت أمّي. ففي المناسبات النادرة التي لم تنفّذ فيها الحكم المؤبّد بإطعام زوجها وطفلَتَيْها الرّزّ والبازلاء، ترتكب أمّي مجزرة في واحدة من أشهى الوجبات في الشرق الأوسط وأشهرها ألا وهي طبخة الكوسا وورق العنب (ورق الدوالي/اليبرق)، أي أوراق العنب الملفوفة، والكوسا المحشوّ، بالأرز واللحمة المفرومة.وعادة ما يعكس حجم ورق العنب الملفوف وحجم الكوسا المحشوّ، في عالم خبراء الطبخ الذّوّاقة (وليس في عالم والدتي)، مهارة الطّبّاخ. هذا بالإضافة إلى طريقة سكبها في طبق مستدير، وطريقة تصفيفها على شكل زهرة، حيث توضع طبقات متتالية من الكوسا المحشو وورق العنب بالتناوب فوق بعضها البعض بمهارة مع شرائح مستديرة من البندورة وشرائح الكستاليتة من لحم الخروف. وعادة ما يستغرق تحضير هذا الطبق الشهي من أربع إلى خمس ساعات: الحفر، والحشو، وسلق الورق، ثمّ اللّفّ وبعده الطهو على نار هادئة. ولكنه كان يأخذ من والدتي دقائق، لينفجر في طنجرة البخار. تلفّ والدتي، في المناسبات القليلة التي تضطرّها فيها الظروف لطهو هذا الطبق المعقّد، ثلاث أو أربع حبّات من ورق العنب للشخص الواحد (يكون متوسّط للشخص الواحد، عند غير أمّي، عشرين حبّة). تحشو أمّي أكبر حبّات الكوسا، وتضعها في وعاء طبخها المفضّل مبدية إعجابها

"طنجرة البخار هي أفضل ما اخترعتْه البشرية على الإطلاق!". وبما أنها لم تتحلَّ بالصبر، ولو للخمس دقائق اللازمة للإشراف على الطهو السريع في طنجرة البخار، غالباً ما كنّا نتناول أوراق العنب المنثورة وحبّات الكوسا المنفجرة.

لا يمكن للمرء بطبيعة الحال أن يتوقّع من بناتها الصغار أن يدركنَ، في مثل ذلك العمر المبكّر، أن شعوب العالم وثقافاته، بما فيها بلاد الشام التي تحدّرت منها والدتهنّ، لديها الكثير ممّا تقدّمه، وتتباهى به في عالم الطبخ، وأن فنّ الطبخ والأكل ومهاراتهما تتسامى عن اللجوء إلى معلّبات الخضار والمخاطر الصّحّيّة للموادّ "الحافظة" والمجازر التي تُرتكب بالاستعمالات الخطأ لطنجرة البخار. ناهيكَ عن الجبن النابلسي الأبيض المالح القاتل الذي كانت تقدّمه لعائلتها على الفطور والعشاء، مع شرحات الخيار والبندورة للتخفيف من ملوحة الجبن. ثمّ تتساءل أمّي لماذا مات أبي بأزمة قلبية؟! كانت النوبة القلبية التي أصابت أبي قاتلة ومكثّفة مثل كمّيّات الملح التي يتباهون بها في الجبن النابلسي. وهو "أفضل" المنتوجات الثلاث في فلسطين: أكثر أنواع الجبن ملوحة، وزيت الزيتون الأكثر حموضة في العالم، وأكبر قطع الصابون المصنوع من زيت الزيتون، بحيث إذا وقع لوح الصابون على قدم شخص، فقد يفقد إصبع قَدَمه. لا يستبعد المرء أن والدتي، من خلال إطعام زوجها كمّيّات كبيرة من الجبن المالح، كانت تُبيّت للانتقام منه، هو الذي تجرّأ في عام 1940، وأخذها بعيداً

عن مدينتها الحبيبة دمشق، وجلبها للعيش في مناطق ريفية أو مناطق "قفرا نفرا" حسب قولها، أماكن لا يمكن تصنيفها في عداد المُدُن كالسلط وعمّان في ذلك الزمن في الأربعينيات.

كان والدي شخصية جادّة وصعبة، هذا بالإضافة إلى انغماسه الدائم في عمله ومشاغله سواء خارج البيت أو داخله. أو لربّما كان والدي يشغل نفسه عمداً، كي لا يشكو من طبخ زوجته، أو من جوانب أخرى عديدة تتعلّق بحياتهما الزوجية غير السعيدة.

كان عمر، أو أبو مروة، كما كان يُكنَّى، يدرك أن هناك ثمناً باهظاً لا بدّ أن يدفعه طول عمره مقابل أن يتزوّج الابنة صارخة الجمال لأحد أغنى التّجّار في دمشق، والتي كانت تصغره بخمسة عشر عاماً. كانت العروس الشامية في حينها، وليومنا هذا، طموح، بل حلم كل رجل عربي، "اللي بيتجوز شامية بينام نومة هنية" كما يقول المثل الشائع. لكن أبي كثيراً ما كان يضيف ممازحاً كلمة "ما" للمثل، ليصبح "اللي بيتجوز شامية ما بينام نومة هنيّة". كانت هذه واحدة من أكثر العبارات التي اعتاد والدي تكرارها كتعويذة خلال ستّة وثلاثين عاماً من الزواج (1942-1978)، إلى أن فرّق بينهما الجبن النابلسي المالح.

ولكن والدي، محقّقاً حلم معظم الرجال، اختار أن يتزوّج شامية، وأن لا يحظى بعيشة هنيّة.

لم تكن والدتي "آخر العنقود" لعائلة كبيرة مكوّنة من تسعة أطفال، خمس بنات وأربعة أولاد وحسب، بل كانت أيضاً الطفلة المدلّلة لوالدها، والأخت المفضّلة لشقيقتها الكبرى ليلى. كانت أمّي أصغر بخمسة وعشرين عاماً من شقيقتها ليلى التي وُلدت في عام 1898، والتي ورثت أنا اسمها، وليس صفتها. وغنيّ عن القول إن دلال وتدليع أمّي من قِبَل أهمّ شخصيَّتَيْن في العائلة نتج عنه ما لا تُحمد نتائجه من الثقة المتناهية لدى أمّي، ناهيكَ عن الغطرسة الزائدة التي طالما اتّصف بها أفراد الطبقات العليا في دمشق، وربّما في كل مكان. ولعلّ الحكم المؤبّد بغداء الأرز والبازلاء المعلّبة، كان أخفّ العقوبات أو التنازلات التي اضطرّ أبي (وتباعاً نحن الأطفال الأربعة) إلى أن يقدّمها خلال فترة زواجهما.

سامية وعمر (أمّي وأبي)

ادّعت أمّي بأنها كانت في الثامنة عشرة من عمرها حين تزوّجت والدي في صيف عام 1942، بينما كانت في الواقع في العشرين من عمرها. كان عمره الحقيقي خمسة وثلاثين عاماً. بقيت المرأة التي تزوّجها أبي غامضة بطريقة أو بأخرى حتّى اليوم الأخير من حياتهما الزوجية المضطربة، التي استمرّت ستّة وثلاثين عاماً. وفي حين كان والدي مفرط الاستقامة والصراحة، كانت شخصية أمّي ملتوية كأزقّة مدينتها. وكان وصْف الكثيرين لأمّي بأنها امرأة صارخة الجمال يترافق مع الإشارة إلى أبي بأنه وسيم بعض الشيء.

تمتّعت أمّي بالجمال، وقيل إنها تشبه آفا غاردنر، في حين كانت وسامة أبي غير تقليدية، ورأوا فيه شبهاً من محمّد عبد الوهاب، بسبب صلعته ونظّارته المدوّرة. كانت بيضاء، وشَعْرها بنّيّ متموّج، وعيناها خضراوان، أمّا بشرة أبي، فأشبه بالشوكولاته، وعيناه بنّيّتان ثاقبتان حادّتان. حظيت أمّي بملامح كلاسيكية: شفتان ممتلئتان وأنف جميل، بينما كان أنفه كبيراً وشفتاه رقيقَتَيْن. ورغم أنهما كانا بالطول نفسه، فقد كانت تُعدّ طويلة القامة لامرأة، ويُعدّ هو متوسّط الطول. لقد كانت جميلة وباردة؛ وكان دافئاً، وإن لم يكن في غاية الوسامة. ولكن ابتسامته الساحرة كانت تشفّ عن صفّ من الأسنان البيضاء التي تجعله لا يقاوَم. كلّي أمل بألا يكون ثمّة خطأ أو شيء غير لائق في وصف ابنة لوالدها بأنه لا يقاوَم.

قوّة المال

نشأ والدي يتيماً، في حين ترعرعت أمّي في غنج ودلال في أحضان والدها، الذي عاش ليبلغ الثامنة والتسعين. أدّى سقوط رحى حجري ثقيل على شابّ في مقتبل العمر يعمل في ميناء يافا بحياته مخلّفاً وراءه ثلاثة أطفال: عمر (أبي) البالغ من العمر عشر سنوات، وشقيقته فدوى البالغة من العمر سبع سنوات، وشقيقه هيثم البالغ من العمر سَنَتَيْن. ورغم شحّ موارد جَدّه عصام دهب في ذلك الزمان، إلا أنه فعل المستحيل لإرسال حفيده الواعد عمر عام 1924 للدراسة في الجامعة الأميركية المرموقة في بيروت. كان والدي في تلك الفترة في السابعة عشرة من عمره. وكانت

القصّة التي سكنت ذاكرة أبي طيلة حياته، وطيلة حياتي لاحقاً، متمثّلة بعربة الخيل التي حملتْه من مسقط رأسه يافا، إلى بيروت وجامعتها الأمريكية الواقعة على البحر الأبيض المتوسّط. لقد أحبّت أمّي الناس والحياة: الحياة التي لم تعشْها أبداً، وأحبّ والدي عمله، وعشق كُتُبه. هي الداهية والمتلاعبة، وهو الصادق الأمين. كان لديها ما يمكن تسميته الألمعية النسوية الغريزية، وتحلّى هو برجاحة العقل.

خالتي كريمة

سرت شائعات تقول إن خالتي كريمة، شقيقة أمّي التي تكبرها، كانت تحبّ أبي، وأرادت الزواج منه. كانت أصغر من والدي بخمس سنوات، فقد وُلدت عام 1902، وأكبر بعشرين عاماً من والدتي التي كانت سنة ولادتها الحقيقية 1922. ولكنْ، "لا دخان بدون نار" كما يقول المثل. ثبتت صحّة هذه "الشائعات" بعد عقود، على لسان والدي نفسه، فقد اعترف لأختي نانا وهو في السبعين من عمره، وقبل عام من وفاته إثر نوبة قلبية مالحة: "كنتُ سأكون أكثر سعادة بكثير لو تزوّجتُ خالتكِ كريمة. لقد كانت لطيفة المعشر ومعطاءة"، وترك والدي لنانا أن تستكمل عبارته: "عكس أمّكِ". ولكنْ، ما أراح خاطر نانا أن والدي استخدم عبارة "أكثر سعادة". يا للراحة التي بثّتْها هذه الكلمة الصغيرة "أكثر"، فقد خلصت إلى أنهما نعما ببضعة أوقات سعيدة معاً في النهاية، رغم شجارهما المتواصل وجدالهما الذي لا ينتهي. أدركت شقيقتي نانا

أيضاً، وفي سنّ مبكّرة، بأنه لا علم لأحد بما يجري خلف باب غرفة النوم الموصد، وتحديداً في صبيحة متأخّرة من يوم من أيّام الجمعة عندما كانت تطرق باب غرفة نومهما بإلحاح، من دون أن تلقى إجابة. كانت نانا تتوسّل: "أسرعوا، افتحوا هذا الباب!"، لأنها كانت تريد مكاناً جيّداً للاختباء وهي تلعب الغمّيضة مع شقيقتها مروة الأكبر منها بعام واحد. وفي النهاية، تدخل وتدسّ نفسها في سريرهما الزوجي الكبير، وتختفي تحت ركبَتَي والدي المنحنيَتَيْن.

أُحيط أبي بشائعات، مفادها بأنه يتمتّع بمستويات هرمونية عالية، وبأنه يحبّ النساء الجميلات. ورغم أنه كان يسيطر سيطرة كاملة على رغباته، إلا أنه كان يسترق بمهارة نظرات سريعة، كلّما وقعت عيناه الصغيرتان على امرأة فاتنة. وافتقار خالتي كريمة إلى كلٍّ من الهرمونات والجمال يفسّر مقاومة والدي لها لسنوات، وغرقه في حبّ أمّي من النظرة الأولى حين رآها في بيروت، مدينة الخطايا. إذا كان صحيحاً أن خالتي كريمة أُغرمت بوالدي، وأرادت الزواج منه، فلماذا ترسله للقاء شقيقتها المدلّلة وهي تعرف جيّداً جاذبية أختها الصغرى التي لا تقاوَم؟! لماذا فعلت كريمة ذلك في الوقت الذي كانت تستطيع فيه أن تحتفظ به لنفسها في بلدة السلط الأردنية، حيث كانت تعيش مع خالتي ليلى في ثلاثينيات القرن الماضي؟! أمّا الأمر الأكثر إثارة للحَيْرة، فهو، ما الذي دفع خالتَيّ الدمشقيَّتَيْن الغنيَّتَيْن المدلَّلَتَيْن إلى هجران الأمان والراحة والرفاهية في قصر العائلة بدمشق، لتعيشا في منزل

متواضع في تلك البلدة الصغيرة في الأردن في الثّلاثينيّات؟ هذا المكان الصعب على فتاتَيْن غير متزوّجَتَيْن أن تعيشا وتعملا فيه حتّى في أيّامنا هذه، أي بعد سبعين سنة.

تلقّى والدي أوّل تهديد بالطلاق في مدينة السلط: "عمر، لا أستطيع العيش في هذه الأرض القفرا النفرا! إمّا أن تجد لنفسكَ وظيفة أخرى في مدينة حقيقية أو أن أعود إلى عائلتي في دمشق". كان هذا التهديد الأوّل في سلسلة طويلة من تهديدات الطلاق التي تلقّاها أبي في حياته الزوجية التي طالت أكثر من المتوقّع. كانت أمّي تشكو دائماً: "لماذا، يا ربّي، هذه السلط بالذات؟!" وكانت أمّي على حقّ، فكيف انتهى الحال بهذا الثلاثي، والدي وخالتي كريمة وخالتي ليلى في السلط؟!

بدأ ذلك كله بالنسبة إلى والدي مع انطلاقة الثورة الفلسطينية عام 1929 ضدّ إقامة وطن يهودي في فلسطين. لم تكن تلك الثورة الأولى، ولن تكون الأخيرة التي ستندلع على امتداد القرن. من وعد بلفور في عام 1917، إلى انتفاضات 1921، 1929، 1936، 1944، 1947، 1965، 1970، 1982، 1987، 2000، ولا يزال هناك الكثير من الانتفاضات في المستقبل. اضطرّ والدي، مثل العديد من النشطاء السياسيّيْن الآخرين، إلى الهرب من مسقط رأسه يافا في اللحظة التي علم فيها بأمر الاعتقال البريطاني الذي صدر بحقّه. ولحسن حظّ، أو لسوء حظّ، والدتي - لطالما اعتقدت والدتي أنه لسوء حظّها-أنه توجّه إلى السلط، ليغدو مدير

المدرسة الثانوية الوحيدة في إمارة شرق الأردن بأكملها، في ذلك الزمن. وسمع والدي، مثل سكّان السلط كلهم، عن "الأختَيْن الشاميَّتَيْن" اللتَيْن"جاءتا من دمشق للتدريس في إحدى مدارس البنات الابتدائية في الأردن. ولا نبالغ إن قلنا إن الشقيقَتَيْن الشاميَّتَيْن كانتا مشهورَتَيْن في تلك الفترة، ربّما أكثر من الأمير عبد الله بن الحسين حاكم الأردن.

كان والدي قد التقى للمرّة الأولى بالأختَيْن الشاميَّتَيْن في مدينة إربد شمال الأردن، في منزل أحد الأصدقاء، منزل اللواء مروان أسعد المتزوّج من السّيّدة الثّريّة والجميلة فيحاء سلامة التي تنتمي إلى عائلة بيروتية بارزة. لم يكن واضحاً على الإطلاق ما إذا كان مجيء خالتي ليلى (ترافقها خالتي كريمة) للعيش في الأردن، سببه تواجد السّتّ فيحاء فيها وعلاقتها الخاصّة بخالتي ليلى، ممّا شجّع خالتي كريمة صاحبة الثقافة الإنجليزية (بمرافقة أختها ليلى) على القدوم والتدريس في الأردن! ولكن الزمن كفيل، كما نعلم جميعاً، بكشف أسرار العائلة التي حاول الجميع إخفاءها بحرص شديد. تقول الرواية المزعومة للعائلة إنه نظراً لأن كريمة مثل أمّي، ثقافتها إنجليزية، وهي خرّيجة الكلّيّة البريطانية السورية للمعلّمات (BSTC)، فلم يكن من الممكن لها أن تدرّس في المدارس الفرنسية في سوريا المستعمَرَة، وخاصّة مع ما أُشيع عن تمويل والدها، جِدُّو نعمان، للثورة السورية ضدّ الفرنسيّيْن. ومع ذلك، فإن "رواية العائلة" التي ليس فيها الكثير من الوطنية أو الرومانسية، تقول إنه خلال الكساد العظيم عام

1929 أفلس جَدّي تماماً. لذلك كان على أبنائه وبناته المدلّلين جميعهم مَدّ يد العون لأبيهم نعمان للحفاظ على القصر. إفلاس جِدُّو نعمان أجبره على بيع مصنعَي الخشب والثلج فضلاً عن الخزف الصيني الثمين وبعض أثاث قصره.

مهما كان السيناريو، فإن النساء الثلاث كان لا بدّ أن يلتقيَن ويصبحنَ صديقات في الأردن ذي الكثافة السّكّانيّة القليلة في الثّلاثينيّات. كان من المتوقّع أن يلتقي أبي، الذي ينتمي إلى الدوائر الاجتماعية نفسها، بخالتيّ في بيت أسعد في إربد، ثمّ لاحقاً في جرش، ومرّة أخرى حين جاءت خالتي كريمة للتدريس في السلط، إذ كان من المفترض أن تصحب شقيقتها التي تكبرها ليلى لتبقى معها. لحسن الحظّ، أو لسوئه، أو لأي سبب من الأسباب، في عام 1941 كان مصير أبي أن يحمل باقة من الورود، وقلبه ينبض بقوّة، ويصعد قلقاً التّلّ الذي يوصله إلى بوّابة الكلّيّة البريطانية السورية للمعلّمات، حيث كانت أمّي تدرُس. وكما قال جون لينون بعد عقود من الزمن..

"الحياة هي ما يحدث لكَ بينما تكون مشغولاً في وضع خطط أخرى".

كانت الحياة في حالتنا هي ما حدث لأبي وأمّي وكريمة، بينما كانت خالتي ليلى مشغولةً بوضع خطط أخرى. مثل السمكة المتخبّطة في طرف صنّارة صيّاد ماهر، كان أبي وأمّي وخالتي كريمة يسعون بقوّتهم كلها، لتخليص

حناجرهم العالقة في صنّارة خالتي ليلى، ولكنْ، هيهات، هيهات! استغرق الأمر منّي عمري بأكمله، لأدرك أن الثلاثة كانوا ضحايا علاقة حبّ سرّيّة كانت خالتي ليلى منغمسة فيها.

لكن هذه العلاقة لم تكن مع والدي.

ينبغي على هذه القصّة أن تخضع للرقابة نظراً لحساسيّتها في الوقت الحاضر، واحتراماً لخصوصية الشخصيات التي لا تزال على قيد الحياة. أمّا القيل والقال الذي انتشر في العائلة أخيراً، فمفاده أن خالتي ليلى، وليس خالتي كريمة في الحقيقة هي التي هيّأت المسرح للقاء بين أبي وأمّي. نظّمت الرحلة في محاولة لوضع حدّ لقصّة حبّ عاصفة بين أمّي وشخصية إشكالية فضائحية، يُفترَض أنها الشاعر السّوريّ نزار قبّاني. ومن الشائعات العائلية المتداولة أيضاً أن عائلة أمّي واجهت صعوبة في معرفة أين يبدأ الخيالي في قصائد نزار قبّاني ومتى ينتهي وكيف، وقد كان حينها عاكفاً على استكشاف مواضيع الحبّ والإثارة الجنسية، في شِعْره، وليس مع أمّي. كادت سمعة الابنة الصغرى لجَدّي الحاجّ أبو أحمد تتلطّخ بين الخيالي والحقيقي، وكان هذا شيئاً لا يمكن أن يرضى به مطلقاً، رغم شخصيّته المتحرّرة وعقله المنفتح، لا سيّما عندما تكون ابنته الكبرى المعبودة ليلى ضدّ العلاقة. كانت خالتي ليلى هي التي حرّضت والدها على ممارسة أنواع الضغوط كلها على أمّي، لتترك شاعر الغزل الدّمشقيّ نزار قبّاني، وتتزوّج

مدير المدرسة المحترم عمر في الأردن، حيث عاشت العاشقة السّرّيّة لخالتي ليلى.

هذا هو التفكير الاستراتيجي بعينه..

لا بدّ أن يتمّ اغتيال قصّة حبّ، لكي تعيش قصّة حبّ أخرى!

الفصل الخامس

وسيم (القدس 1946)

تلفَّتت سامية من حولها قبل أن تستنتج أن الطرقات القوية التي سمعتْها لم تكن جزءاً من الصخب والفوضى التي أثارتْها من حولها في مطبخها في أثناء تحضير طبق الأرز والبازلاء شبه اليومي.

انتصبت واقفة بقامتها الممشوقة، وجمدت ساكنة في مكانها.

الهدوء المفاجئ الذي ساد من حولها جعلها تدرك بأن الخبطات المتتالية لم تكن جزءاً من المناوشات المستمرّة بين العرب واليهود في القدس. فالأصوات المتكرّرة لزخّات الرصاص والانفجارات كثيراً ما حرمتها وزوجها من النوم، وضاعفت من كمّيّات غسيل بناتها وأعبائه اللواتي كنَّ يبلّلنَ ملابسهنّ وفراشهنّ من الخوف. فجّرت عصابة الإرغون اليهودية قبل بضعة أشهر فقط، في 22 تمّوز 1946 على وجه التحديد، فندق الملك داود الشهير. وعدا عن كونه المقرّ الرئيس لإدارة الانتداب البريطاني

في فلسطين، كانت له مكانة خاصّة عند والدتي بالتحديد، لكونه مسرحاً لأروع المغامرات وأكثرها إثارة، ومنبعاً للثرثرة المتمركزة حول الطبقة المخملية، ليس في القدس فقط، بل في أرجاء فلسطين ومصر ولبنان وسوريا جميعها.

خطت سامية خارج مطبخها إلى غرفة الطعام، وعندها فقط تأكّدت من أن الخبطات كانت تأتي من باب البيت الرئيس.

صاحت بأعلى صوتها: "لحظة.. لحظة فقط!" اقتربت من الباب بحذر، وسألت مرّة أخرى:

"مين عالباب؟who is it؟ شو في؟" سألت بالتناوب بين اللغَتَين العربية والإنجليزية تحسّباً من أن يكونوا جنوداً بريطانيّيْن أو مقاتلين يهوداً، وكانوا قلّما يطرقون أبواب هذا الحَيّ العربي. تصاعد خفقان قلبها، ليتماثل مع الخبطات المحمومة على بابها.

جاء الرّدّ باللغة العربية، وبلكنة سورية واضحة "لَكْ افتحي هالباب، يا سامية".

عرفت صوت ابن عمّتها وسيم، فتساءلت وهي تنظر إلى ساعتها "ما الذي جاء به في هذه الساعة المبكّرة من النهار؟!" كانت الساعة العاشرة والثلث. توقّفت قبل أن تفتح الباب، لتفكّ مريول المطبخ، وتضعه على ظهر كرسي، ومررتْ أصابعها في شَعْرها المتموّج، لتهذّبه، وانطلقت نحو الباب.

لطّخت صلصة البندورة الحمراء بابها.

وقف ابن عمّتها وسيم بالباب مرتجفاً. كان اسماً على مسمّى، طويل القامة، ومفرط الأناقة، بهيجاً مزوحاً، إلا أنه كان في هذه المرّة مذعوراً، ووجنتاه، المتورّدتان عادة، شاحبَتَيْن. فزعت أمّي، وكاد قلبها أن يتوقّف عن الخفقان، لأنها لم ترَ ابن عمّها يوماً في هذه الحالة المريبة.

رحّبت به بصوت مرتجف، وسحبتْه من ذراعه إلى الداخل بيَدَيْن مرتعشَتَيْن:

"بِشَرَفَكْ، يا وسيم، قل لي ما فيكَ؟ لماذا وجهكَ مخطوف وأصفر كالليمونة؟ ادخل.. ادخل!"

ساقا وسيم النحيلتان والطويلتان حملتاه إلى منتصف الغرفة ذات العقد الصليبي، حيث جمد في مكانه. لم يكن هذا السلوك المضطرب والمرتبك من سماته، ممّا جعل أمّي تتوسّل إليه أن يوضح لها ما الذي حدث، "منشان الله، يا وسيم، شو في؟ هل هناك أخبار سيّئة من دمشق؟ هل حصل شيء لأمّي؟" وبينما كانت أمّي تفكّر بأسوأ الاحتمالات، أخذ وسيم يذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

كانت أمّي قد اعتادت على الأخبار السّيّئة القادمة من أرجاء فلسطين بعد أن عاشت على مدى السنوات الثلاث الماضية في القدس، أمّا الأخبار السّيّئة القادمة من دمشق، فكانت أكثر ما يقلقها.

وأخيراً، تسرّبت بعض الكلمات المطمئنة من بين شَفَتَي وسيم المزمومَتَيْن، "لا، لا، يا سامية، العائلة في دمشق

بخير، والحمد لله".

"إذنْ، ما الأمر، يا وسيم؟"

صمت فترة قبل أن يقول بتردّد: "سامية، أنا بأمسِّ الحاجة للحديث معكِ. أنا بحاجة لمساعدتكِ.. بصراحة أنا في ورطة كبيرة".

"مساعدتي!" سألت مندهشة بعد أن تحسّن مزاجها، بمجرّد أن تأكّدت من أن والدتها المريضة بخير.

استغربت أمّي من تبادل الأدوار مع وسيم، فكيف يمكن لها، هي الزوجة مشغولة بالأعمال المنزلية ورعاية بنتَيْن صغيرَتَيْن وزوج غائب، أن تساعد "رجل العالم"، أو"الكوزموبولتان مان"، كما اعتادت أن تناديه، الشّابّ الغنيّ وصاحب النفوذ. هذا عدا عن فارق العمر بينها: فهي في الرابعة والعشرين من عمرها، بينما هو في الرابعة والثلاثين!

كان وسيم، الوسيم حقّاً، ووالدته زهوة سيّدة الأناقة، ووالده عبد الفتّاح الجمل، ("الجميل" بثروته الطائلة الناتجة عن تجارة اللحوم والمواشي) مصدر الدعم والمساندة الوحيد لوالدتي في القدس.

أمّي، التي لم تعترف يوماً بروعة أي مدينة غير دمشق، لم تعترف إلا بوجود سندٍ واحد لها في القدس: ألا وهو عائلة الجمل الشامية.

تنكّرت أمّي كعادتها لكل دعم قدّمه لها زوجها عمر أو جيرانها، وخاصّة جارتها أمّ علاء.

"اخلع معطفكَ، واجلس، واسترخِ قليلاً" أشارت أمّي إلى وسيم وهما يدخلان غرفة المعيشة، وتابعت دورها القيادي: آسفة، الغرفة باردة، هل تريدني أن أعدّ لكَ كوباً من الشاي؟"

"لا، لا، شكراً سامية حبيبتي، أنا مستعجل. مستعجل حقّاً". قال وسيم بصوت مرتبك وهو يجلس ملتفّاً بمعطفه الكشميري الكحلي وجسده يرتجف. كان في الواقع في مساس الحاجة إلى فنجان ساخن من الشاي أو أي شيء ساخن آخر، ولكنه يعرف من خبراته السابقة أن الأمر سيستغرق من أمّي نصف ساعة كاملة، لتعود بشاي فاتر.

كان وسيم متشوّقاً، وفي عجلة من أمره، ليكشف لابنة خاله عن سبب هذه الزيارة الصباحية المفاجئة.

أطرق وسيم مطوّلاً قبل أن يستجمع شجاعته، وينظر إلى أمّي، وليقول بعدئذٍ بصوت خفيض ومرتجف: "معي طفل رضيع في سيّارتي، يا سامية".

دُهشت أمّي، وحدّقت بعينَيْها الشهلَتَيْن الرماديَّتَيْن المخضرَّتَيْن "رضيع! ما الذي تعنيه بطفل رضيع؟ لم أفهم!"

"نعم، طفلة. لا أعرف إن كنتِ ترغبين في مساعدتي. أعني ربّما يمكنكِ أخذها، أو إيجاد مَنْ يأخذها".

"أخذها؟ هكذا؟ أخذها! لا بدّ أنكَ قد جننتَ، يا وسيم! ما بكَ؟ وما الذي يحدث معكَ بالضبط؟" لم تتحدّث أمّي أبداً مع ابن عمّتها بهذه الطريقة من قبل، وبما أنها لم تتلقّ أي إجابة منه، تابعت سيل كلامها بانفعال "إنني بالكاد أستطيع تدبّر شؤون حياتي حالياً. أنتَ بالذات، يا وسيم، من بين البشر كلهم تعلم جيّداً أن زوجي عمر مشغول بنفسه وعمله، ومروة الشّقيّة التي لم تتجاوز السّنَتَيْن والنصف بحاجة لمَنْ يركض وراءها أربعاً وعشرين ساعة، ناهيكَ عن نانا المريضة التي توشك على الموت، وتطلب منّي أن أضيف إلى عبئي هذا ابنة ثالثة؟ هذا هو الانتحار بعينه، يا وسيم!" بدا الأمر لوهلة وكأن والدتي كانت تعترض على كون الطفل أنثى، بينما كانت في الواقع تعبّر عن إرهاقها، بسبب طفلتها المريضة نانا التي لا تأكل ولا تنام.

كان وسيم قد وصل في يوم سيّئ، لأن أمّي سامية، ابنة خاله، كانت غارقة في الصلصة الحمراء لطبق الأرز والفاصوليا، فقد انتهكت أمّ علاء جارتها شروط اتّفاق المقايضة مع أمّي، ولم تكن موجودة للطهو أو للاعتناء بنانا في ذلك اليوم.

همهم وسيم: "أفهمكِ، يا سامية، ولكنْ، ما الحلّ؟" صمت الاثنان وهلة قبل أن يضيف وسيم "في هذه الحالة، هل لكِ أن تأتي معي إلى دمشق؟ أقصد ما رأيكِ أن تساعديني في تهريبها إلى دمشق؟"

"أعوذ بالله، طبعاً لا؟ ما بكَ، يا وسيم؟ تريد منّي أن أهرّب طفلة عبر الحدود؟ هل فقدتَ عقلكَ؟ شو جَنِّيْتْ؟" كادت سامية نفسها أن تجنّ. التزم وسيم الصمت، وبقي مطرقاً، ثمّ مسّد شَعْره الأسود إلى الوراء براحة يده، وتنهّد بعمق. تبادل ابنا الخال والعمّة نظرات الحَيْرة والتوهان والعجز.

انسحبت أمّي بعد محادثة طويلة مرهقة وحامية الوطيس إلى غرفة نوم ابنَتَيْها، بعد أن استوعبت مزيداً من التفاصيل.

كانت مروة في حضانة قريبة، بينما غرقت نانا على غير عادتها في قيلولة عميقة. فتحت أمّي الخزانة بحذر خشية إيقاظها، أخذت وسادة وبعض ملابس نانا وبطّانيّة أطفال وردية اللون، وفي هذه الأثناء، لبّى وسيم طلبها، ونزل الدرج الضّيّق الطويل الذي يربط الشرفة الأمامية بالشارع الرئيس، حيث ترك سيّارته وسائقه سمير. خرج سمير من السّيّارة على عجل، وبسرعة لبّى أوامر رئيسه. فتح باب السّيّارة الخلفي، وأخرج الطفلة الباكية، وناولها إلى وسيم المرتبك الذي حملها مبعداً إيّاها عن جسمه، وعاد بها أدراجه.

"يا إلهي، يا وسيم، كم هي صغيرة!" قالت أمّي بصوت عال والطفلة تصرخ وترفس بين ذراعَيْها إلى أن ضمّتها إلى صدرها بإحكام، "هشش، هششش، حبيبتي" ومضت أمّي تؤرجحها إلى الأعلى والأسفل وعلى الجانبَيْن ساعية عبثاً إلى تهدئة الطفلة المرتعشة من البرد. وفجأة بدت

علامات الهدوء تظهر على جسد الطفلة الصغير وعلى ملامح وجه أمّي "هشش، هششش، حبيبتي. سوف تكونين بخير"، ثمّ عانقتْها بقوّة. سرعان ما شعرت الطفلة المرعوبة بدفء صدر أمّي، وتشبثت به على نحو غريزي. تشكّلت بينهما رابطة غريبة على الفور. ملأت الدموع عينَي أمّي، ثمّ انهمرت على خَدَّيْها الباردَيْن.

همست والدتي عندما توقّفت الطفلة عن البكاء، وغطّت في النوم: "آه، يا صغيرتي، كم أتمنّى لو أُرضعكِ، لو كان في هذَيْن الثديَيْن قطرة حليب، لفعلتُ ذلك دون تردّد"، حدّقت أمّي في الوجه الصغير بين ذراعَيْها، وهمست "يا الله، ما أجملكِ! يا لهاتَيْن الشَّفَتَيْن الممتلئَتَيْن، والأنف الصغير المنحوت، وهذه الرموش الطويلة" نظرت إلى وسيم، وابتسمت. جرّب وسيم حظّه مرّة أخرى: "هل أنتِ متأكّدة أنكِ لا تريدينها؟ أرجوكِ، شاوري نفسكِ مرّة أخرى، يا سامية".

"لا، يا وسيم، لا. رأيتُ كم هي جميلة وجذّابة، ولكنْ، لديّ ما يكفيني وأكثر، دعني أذهب إلى المطبخ، لأحضر لها زجاجة حليب".

"لا بأس، لا بأس، أفهمكِ، أفهمكِ جيّداً". أخيراً استسلم وسيم إلى حقيقة أنه لا يمتلك والطفلة أي فرصة مع أمّي. ألقى بثقلة على مقعد الجلوس، وأغمض عينَيْه. يا الله، كم كان توّاقاً إلى ذلك الكوب من الشاي الساخن! نامت الطفلة

أخيراً، ومنح الهدوء كلاً منهما لحظة من التّعقّل للتخطيط والتعامل مع هذا الموقف الدقيق.

وضعت أمّي الطفلة الصغيرة المنهكة بهدوء على الأريكة، وتخلّت عن فكرة الحمّام الساخن لها، لأنها لا تريد المخاطرة بإيقاظها. نزعت الخِرَق الرطبة عن الطفلة وحفّاظات القماش القذرة، ومسحت جسمها الناعم بمنشفة دافئة رطبة، ولفّت واحدة من حفّاظات نانا القطنية الناعمة حول خصرها، وشبكتها بدبّوس معدني. كان وسيم يراقب بيأس الورطة التي وضع نفسه وابنة خاله فيها: "انتبه إلى هذا الدّبّوس"، قالت سامية. على الرغم ممّا كان ينتظره، بدا وسيم مرتاحاً إلى حدّ ما لتوقّف صرخات الطفلة التي كادت توصله إلى حافّة الانهيار. دار حول الأريكة، وفكّر بالرحلة الصعبة التي لا تزال بانتظاره. لم تكن أمّي متأكّدة من كمّيّة الحليب التي تمكّنت من صبّها في فم الطفلة الجائعة قبل أن تضع الزجاجة في حقيبة سفر، كانت تعدّها لابن عمّتها وسيم.

"خذ هذه الحقيبة وهذه الوسائد الثلاث للسّيّارة، وسأتبعكَ مع الطفلة". نفّذ وسيم تعليماتها. حملت أمّي الطفلة بعناية حتّى أسفل الدرج بينما سارع وسيم أمامها حاملاً الحقيبة والوسائد الثلاث الطويلة.

"سامية، أرجوكِ للمرّة الأخيرة أن تأتي معي".

"توقّفْ عن هذا، يا وسيم، من فضلكَ! يستحيل أن أذهب معكَ في هذه الرحلة، لا يمكنني القيام بمخاطرة كهذه.

سيغضب عمر غضباً شديداً، وما زلتُ لا أعرف حتّى الآن إذا ما كان عليّ أن أُخبره أو أُخبر أي شخص آخر بهذه القصّة".

"لا، لا من فضلكِ، لا تخبري أحداً".

"اسمعني، يا وسيم، لا تذهبْ وحدكَ مع الطفلة، اطلبْ من صديقكَ فريد مرافقتكَ".

"نعم، نعم، سأفعل ذلك. كنتُ آمل أن تذهبي أنتِ، ولكنْ"، جرّب وسيم مرّة أخيرة وهو يعبر بوّابة الحديقة.

ميّزت أمّي وجه السائق سمير وهو في سيّارة وسيم الجديدة الكاديلاك موديل 1946. قفز السائق من مقعده، بمجرّد رؤيته رئيسه وأمّي يقتربان من السّيّارة، وفتح الباب الخلفي بسرعة. ركض حول السّيّارة، وفتح الباب الخلفي على الجانب الآخر. سادت لحظة من الارتباك، بمجرّد وصول وسيم وأمّي. أمرت أمّي ابن عمّتها المرتبك "اصعدْ من الجانب الآخر" ففعل. بمجرّد أن جلس في المقعد الخلفي، ركبت أمّي في السّيّارة لمساعدته على وضع الطفلة بجانبه.

"ضع إحدى هذه الوسائد في الوسط"، أخذت أمّي الطفلة بعناية بعيداً عن صدرها المشتاق إليها، ووضعتها على الوسادة، وقالت: "والآن، ضع واحدة من الوسادَتَيْن من جهتكَ، والأخرى من جهتي. لا، لا ضعها على حافّتها"، وواصلت أمّي إعطاء التعليمات حتّى تمكّن وسيم من استيعابها. فَرَدَتْ أمّي بطّانيّة الأطفال الوردية عندما

أصبحت راضية عن الترتيبات، وغطّت الطفلة والوسائد الثلاث، لتختفي الطفلة تماماً.

قالت وهي تكشف وجه الطفلة "تأكّد من كشف وجهها في أثناء الرحلة" وأضافت "غطِّها فقط عند المعبر الحدودي عند الرمثا، ثمّ درعا. انتبهْ لنفسكَ، وحظّاً سعيداً، يا وسيم". جاءت كلمات أمّي من بين دموعها المتدفّقة وهي تقبّله مودّعة، وخرجت من السّيّارة. أرادت أن تقف هنيهة لمراقبة السّيّارة تبتعد في الشارع، ولكنها لم تستطع. أدارت رأسها سريعاً. سحبت جسدها الثقيل المتهالك، وصعدت السلالم درجة درجة. لم تدرك أبداً أن أمامها الكثير من الخطوات قبل أن تصل إلى بيتها.

جرّت قَدَمَيْها عبر الشرفة الكبيرة، ثمّ إلى غرفة الطعام المعتمة، ثمّ إلى غرفة المعيشة، حيث انهارت أخيراً على الأريكة. لم يعد بإمكانها حبس دموعها، فأخذت تشهق وتشهق بمرارة. لا تزال تشعر بجسد الطفلة على صدرها ومَلمس يَدَيْها الصغيرَتَيْن متشبّثَتَيْن برقبتها.

انهوست أمّي بالطفلة التي سكنت تفكيرها للأيّام والليالي التالية للكثير من الأسباب.. وللشعور بالذنب. وكما اتّضح فيما بعد، انهوست أمّي بها، وسكنتْها لسنوات أو لربّما لسنوات حياتها. لم يكن في وسع أمّي سوى أن تتخيّل تلك السيناريوهات المروّعة المحتملة كلها.

أكثر ما خشيتْه هو أن تتعرّض الطفلة إلى الجفاف. أدركت أنه ما من أحد منهم: لا وسيم ولا صديقه فريد، وبالتأكيد

ليس ذلك السائق المتهوّر، سيُطعم الطفلة. والأسوأ من هذا إذا اختنقت الطفلة تحت البطّانيّة؟ أخذت والدتي تُدوِّر في رأسها التعليمات الواضحة التي أعطتْها لوسيم "تأكّد من رفع البطّانيّة عن وجه الطفلة، وغطّها فقط عندما تقترب من ضابط الجمارك". ظلّت أمّي تكرّر في عقلها ما ظنّت أنها الكلمات التي قالتْها.

الرجال يبقون رجالاً، هكذا هم دائماً، قالت ذلك بصوت عال، وتوقّعت الأسوأ.

مَنْ يقدر من بين هؤلاء الرجال الثلاثة على تهدئة هذا الطفلة إذا شرعت في البكاء؟ ماذا سيفعل هؤلاء الرجال الثلاثة إذا ماتت الطفلة بين أيديهم؟ نهرت نفسها قائلة، "كفى، يا سامية"، عندما وقفت قلقة تحاول التقاط أنفاسها. وجدت نفسها مجدّداً في ورطة كبيرة، تتخطّى قدرتها على التّحمّل.

"اللعنة! ربّما كان وسيم على حقّ. ربّما كان ينبغي عليّ مرافقته إلى دمشق". كانت أمّي تفكّر مثقلة بالشعور الثقيل بالذنب، الشعور الذي نادراً ما شعرت به: "ربّما كان ينبغي عليّ الاحتفاظ بتلك الطفلة. ولكنني لا أستطيع ذلك. الحدّ الأقصى الذي يمكنني تحمّله بلا مساعدة عائلية هو ابنتان وحسب. كان وسيم وأمّه يمثّلان السند الوحيد لي في هذه المدينة، ولكنْ، انظرْ ما الذي أقحمني فيه وسيم الآن!" عادت أفكار أمّي مجدّداً إلى الطريق ما بين القدس ودمشق، ماذا سيحدث لو توقّفوا فترة طويلة جدّاً على

الحدود الأردنية السورية؟ كانت تلك الحدود حدوداً سيّئة حتّى في الأيّام العادية. ماذا سيحدث لو اكتشفت شرطة الحدود أن الرجال الثلاثة كانوا يهرّبون طفلة؟ انتبهت أمّي إلى أنها لم تسأل إذا كان لدى وسيم شهادة ميلاد لهذه الطفلة. لم يكن أي من هؤلاء الرجال الثلاثة في وضع يسمح لهم بادّعاء الأبوّة. ثمّ ذكّرت نفسها بأن وسيم ومساعدَيْه الاثنَيْن قادرون إذا ما تمّ القبض عليهم على دفع رشوة، ليعبروا الحدود. كانت أمّي متأكّدة من هذا الأمر، لذلك تحسّن مزاجها. إن لم يضطرّوا للانتظار لوقت طويل على الحدود، ستكون الطفلة قادرة على البقاء على قيد الحياة في رحلة تستغرق خمس ساعات، وهو الوقت الذي تستغرقه الرحلة بين القدس ودمشق. كانت أمّي تعوّل على سيّارة وسيم الكاديلاك الجديدة وقيادة سمير الجنونية.

كانت رائحة الطعام المحروق القادمة من المطبخ، هي ما أخرج أمّي من كابوسها، وأعادها إلى واقعها المتعلّق بالرّزّ والبازلاء.

احتفظت أمّي بالقصّة لنفسها.

إذ ليس من المستغرب أنها لم ترد، أو لم تجرؤ، أن تشاركها مع أبي، على الأقلّ ليس الآن.

وكذا الأمر فيما يتعلّق بقصص عائلتها، ولا سيّما قصص ومغامرات ابن عمّتها المفضّل وسيم، فقد أبقت والدتي أوراقها في جعبتها. ليس لأنها كانت موضع سرّ وسيم وحسب، بل لأن "حكايات ألف ليلة وليلة" الخاصّة بوسيم

كانت الأوكسجين الذي أبقاها على قيد الحياة في وحدتها في هذا البيت في وسط هذه المدينة التي تعصف بها الحرب، ولم تكن لتحرم نفسها من متعة سرده لهذه القصص.

كانت مغامرات وقصص وسيم وأصدقائه ما منح أمّي التسلية والترفيه. في كل مرّة يزورها كان يروي لها قصصاً بعيدة كل البُعد عن عالمها، قصصاً تنقلها من رتابة العيش في القدس التي تعرفها جيّداً إلى تلّ أبيب مدينة الخطيئة والمتعة، حيث يصهر الحبّ والجنس كل الخلافات بين الجنسيات المتصارعة.

لم تكن هذه المرّة الأولى، ولن تكون الأخيرة، التي يلاحظ فيها أبي أن أمّي تتصرّف على نحو مريب، وربّما أكثر من المعتاد هذه المرّة. ولكنه أمسى متمرّساً في كبح فضوله، وأذكى من أن يطرح عليها سؤالاً، كان يعرف مسبَّقاً أنه لن يلقى جواباً عندها.

ظهر السائق سمير بعد ذلك بيومَيْن على عتبة باب أمّي بعد أن أمره وسيم بأن يزورها دون أن يتّصل بالهاتف.

بعد يومَيْن طويلَيْن من الانتظار، ظهر السائق سمير على عتبة باب أمّي. كانت تعليمات سيّده وسيم واضحة "اذهب إلى بيتها لطمأنتها دون أن تتّصل بالهاتف".

"كل شيء سار على ما يرام. وعلى الرغم من ضعفها وهزالها، وصلت الطفلة إلى دمشق، وهي بخير".

الفصل السادس

سامية ووسيم (دروب وعوالم مغايرة)

كما علمنا حتّى الآن: كان وسيم ابن عمّة سامية المفضّل وكانت سامية موضع السّرّ الحميم لوسيم أخبرها بكل ما كانت تريد سماعه واستمعت إلى كل ما احتاج إلى قوله كلاهما غريب، ولكلٍّ منهما دربه الخاصّ.

عالقة هي في زواج تعس، وغربة وأعباء عائلية ثقيلة، ومدينة جريحة. بينما شغل هو نفسه بإدارة شركات والده الناجحة، وانغمس في الإغراءات والملذّات التي تترافق مع الثروة.

ولكنّ ما جمع بينهما كان التوق إلى مدينة معشوقة تُدعى دمشق.

انتظرت أمّي بضعة أيّام طويلة ظهور وسيم بذاته على عتبة بابها، ولكنْ، دون فائدة. تجنّبت الاتّصال بوالدة وسيم التي كانت تعيش في المدينة نفسها، لكيلا تتسبّب في إثارة أي شبهة أو إحراج، أو توقِظ محاولات الاستفسار والفضول العادية. فكّرت والدتي أكثر من مرّة في زيارة بيت عمّتها في الطالبية، ذلك الحَيّ الرائع الذي زارته في الرابعة من عمرها مع أمّها، ولا يفصلها الآن عن فيلا عائلة الجمل سوى بضعة كيلومترات، ولكنها أحجمت. وحين فرغ صبرها، أقدمت على الاتّصال بعمّتها. انتبهت ليدها المرتجفة وهي تحمل السّمّاعة، وتطلب الرَّقْم. سمعت أمّي صوت عمّتها زهوة الأجشّ على الطرف الآخر من الخطّ، وحرصت على عدم السؤال مباشرة عن غياب وسيم

أو مكان وجوده. استنتجت أمّي من المحادثة الطويلة، بل المُملّة، أنه ما زال عليها تحمّل المزيد من الانتظار.

تنفّست ملء رِئَتَيْها!

لم يكن واضحاً ما إذا كان مردّ قلق أمّي وشوقها إلى عودة وسيم إلى القدس هو حرصها على معرفة المزيد من التفاصيل عن الطفلة المهرّبة ومصيرها، أو لأنها ببساطة تفتقد وسيم. وللحقيقة فإن أمّي افتقدت على الأرجح قصص وسيم ومغامراته المسلّية التي لا تنتهي. القصص المثيرة لـ "القدس في الليل" وحياة وسيم وشلّته العابثة، واستكشافهم القدس المنطلقة العابثة التي أفلتت من قيود الأعراف والتقاليد. ولم تدرك، إلا عندما حملت بين ذارعَيْها تلك الطفلة المرتجفة، أن البلد المضطرب الذي يُدعى فلسطين يحمل أكثر من الأسلحة بين ذراعَيْه. هزّت الطفلة الصغيرة بحنان بين ذراعَيْها، وفكّرت أخيراً في أن بعض قصص وسيم على الأقلّ فيها جانب كبير من الحقيقة، فهي إن كانت لا تتوقّف عن التعبير عن توقها المستمرّ لدمشق، وقصر العائلة بيت البارودي، وصحبة أفراد عائلتها الموزّعين بين دمشق وبيروت - المدينَتَيْن الأكثر إثارة اللّتَيْن تعرفهما جيّداً - فإنها لطالما أحسّت، رغم حبّها المتقطّع لزوجها وعائلتها والقدس، بأنها تزوّجت "الرجل الخطأ"، وانتقلت إلى "المدينة الخطأ"، في "البلد الخطأ"، وأنها لم تعشِ الحياة التي تطمح إليها أو تلك التي تستحقّها، وفي هذا السياق، شكّل وسيم، بلا أدنى شكّ، همزة وصل جوهرية لها،ليس فقط ببلدتها الحبيبة دمشق، وأسلوب

الحياة الذي تتوق إليه، ونشأت عليه، بل بفلسطين أيضاً التي كانت عالماً بعيداً ومختلفاً عن فلسطين التي تعيش فيها مع زوجها. كانت قصص وسيم أقرب إلى قلبها، وإلى الحياة التي حلمت أن تعيشها.

وبينما تمركزت حياة أبي، وبالتالي حياتها، على النضال السياسي ضدّ تأسيس دولة يهودية في فلسطين، كانت حياة وسيم عابرة للأديان والجنسيات. كانت فلسطين التي يعرفها أبي تتكوّن من ثلاث فئات متمايزة: العرب واليهود ومسؤولي ودبلوماسيّي الانتداب البريطاني الاستعماري. لم تكن قصص حبّ وسيم تعرف أي محظورات، تماماً مثل صفقاته التجارية. ولم يكن لحفلات الاستقبال الدبلوماسية والحفلات الباذخة وقصص الحبّ أي حدود عِرْقِيّة أو دينية أو سياسية. وكثيراً ما أخذت لقاءات وسيم المتكرّرة أمّي بعيداً عن حدود ربّة المنزل الملول والزوج الجدّيّ إلى عالم الفنتازيا.

الجزء الثالث

بيت جِدُّو نعمان

الفصل السابع

دمشق حزيران 1947 (الخميس بعد الظهر)

طاق، طاق، طاق، أعلنتِ الطرقات الثلاث المتتالية عن وصول أمّي إلى بيت أهلها في دمشق، أي قصر آل البارودي الواقع في قلب المدينة القديمة المزدحمة. توقّف قلب والدتي هنيهة، ربّما من السعادة أو من الحزن أو

الشوق، أو لربّما كلها مجتمعة. وبمجرّد دخول السّيّارة، التي حملتها من القدس إلى دمشق، سوق البزورية، أي سوق التوابل المسقوف، عادت إليها روائح الطفولة كلها. أثارت روائح أكوام التوابل والمكسّرات والفاكهة المجفّفة والحلويات والشوكولاته وصابون الغار والحنّة والتمر الهندي وألوانها حواسّ أمّي، وأعادت إليها طوفاناً من الذكريات. ترغرغت عيناها، وتنهّدت، ثمّ تساءلت: كيف يمكن لإنسان عاقل أن يختار العيش بعيداً عن هذه المدينة الساحرة الطافحة بخيرات لا تُحصى؟ أشعّة الشمس المتسلّلة من الفتحات العليا للسقف المعدني أنارت السوق المظلم، وأضفت عليه أجواء ساحرة. أمّا دوائر الضوء الساقطة على الرصيف البازلتي الأسود، فأحيت مشاهد المشترين والبائعين ومساوماتهم. بدوا كما لو أنهم في مسرحية. "لَكْ شو عشرين ورقة! شو جَنِّيْتْ! مستحيل! لَكْ كتيير، بِيْكَفِّي عشر ليرات.. وزيادة".

رنّ في أذني أمّي صدى تعليمات التّسوّق الصارمة التي أصدرتْها الأخت الكبرى ليلى ذات يوم للطفلة الصغيرة سامية: "مهما كان ثمن السلعة، أعطيه فقط نصف ما يطلب".

ابتسمت أمّي.

كم كانت تتطلّع، بل كم كانت على أهبة الرجوع إلى الطفولة، لتعود مجدّداً سامية الصغيرة المحبوبة مدلّلة العائلة.

وقفتْ أمام بوّابة الأرز الخشبية الضخمة لقصر البارودي متحفّزة ومتسلّحة بالصبر، أو بالأحرى نافدة الصبر، "ارتفاع البوّابة يسمح بمرور فارس على صهوة جواده، وعرضها يسمح بمرور جمل محمّل بالبضائع"، كما اعتاد أبوها نعمان أن يقول. فرَّت عن وجهها المقدِسي المرهَق ابتسامة شاحبة بينما كانت تحمل على أحد ذراعَيْها طفلتها المرهقة النائمة نانا، بينما أحكمت قبضة اليد الأخرى على كفّ ابنتها الشيطانة مروة ذات السنَتَيْن ونصف. كان سمير، سائق وسيم الذي قاد السّيّارة من القدس إلى دمشق، واقفاً بجانبها أو على الأصحّ بجانب ثلاث حقائب كبيرة وصفيحتَيْن معدنيَّتَيْن من زيت الزيتون، تحتوي كل منهما على عشرين لتراً من الزيت البكْر. وبما أن منزل والدها نعمان كان في منطقة للمشاة متاخمة للجامع الأموي، اضطرّ سمير إلى إيقاف السّيّارة على بُعد مئة متر من المنزل، في بداية الزقاق بجوار محلّ أبو معروف للثلج.

على مدى السنوات الخمس الماضية، ومنذ عام 1942 عندما انتقلت أمّي من السلط للعيش في القدس، فعلت أمّي كل ما في وسعها لأن تجلب لخالتي ليلى "حصّتها"، التي كانت في الواقع حصّة تِيْتِة بسيمة، من زيت زيتون أسرة عبد الهادي في عرّابة. كانت أمّي، كباقي أفراد عائلتها، بمَنْ فيهم جِدُّو، تلبّي طلبات خالتي ليلى ورغباتها جميعها. ومن بين هذا وذاك كليهما اعتادت خالتي ليلى أن تُنهي كل وجبة من وجباتها بقطعة صغيرة من الخبز مغموسة بزيت الزيتون عالي الجودة مع حبّة زيتون أسود من زيتون

عرّابة. وهكذا أصبحت صفيحتا زيت الزيتون صلة الرحم الوحيدة بين عائلتَي عبد الهادي والبارودي، وحتّى نكون أكثر دقّة: بين تِيْتِة بسيمة من جهة وعائلتها وقريتها وفلسطينها من جهة أخرى. لم يكن هذا لأن تِيْتِة بسيمة لم تحبّ أو تفتقد عائلتها، بل لأنها لم تكن تريد أن تخاطر، مرّة أخرى، لتواجه العواقب الرهيبة الناتجة عن ترك جِدُّو نعمان خلفها، كما فعلتْ في أوّل رحلة لها، التي كانت الأخيرة والوحيدة إلى عائلتها في عرّابة.

ولعلّ التفسير الذي لم يكشف عنه جِدُّو نعمان بخصوص الوظيفة الحقيقية لهذه البوّابة الضخمة (التي كانت أمّي تفقد أمامها صبرها ببطء)، هو قدرتها على إخفاء قصصه وقصص عائلته. فقد حافظت هذه البوّابة المغلقة على خصوصية العائلة، وخصوصية الصفقات التجارية، والأسرار والفضائح التي تحدّث في كل زاوية من الزوايا الكثيرة في هذا البيت، في الأماكن المفتوحة والمَخفيّة، في غرف الاستقبال الفسيحة حول الفناء، وفي الفناء نفسه والليوان شبه المفتوح، وفي غرف استقبال الرجال أو ما يسمّى الساحة الخارجية (المربّع البرّاني)، وفي غرفة استقبال النساء في الساحة الداخلية (المربّع الجوّاني)، في الصالون المختلط للضيوف (الصالة)، وفي الأجنحة الخاصّة العديدة وغرف النوم، وفي مساكن السادة والخدم في نواحي هذا القصر الفخم. وغنيّ عن القول إن بعض هذه القصص كانت فاضحة، لدرجة كان يتعذّر إخفاؤها في مدينة تُعنى بالقيل والقال مثل دمشق. ولكن التصاميم

الخارجية الطينية المتواضعة للقصور الدمشقية جعلت من المستحيل تصوّر نوع الثراء والروعة الكامنَيْن وراء هذه الجدران العالية التي لا يمكن اختراقها. يدّعي الباحثون أن القصد من هذه التصاميم التّهرّب من الضرائب العقارية. ولعلّ الخبراء والباحثين يميلون إلى السذاجة بعض الشيء أحياناً.

كادت والدتي، التي لا تزال تقف أمام البوّابة، أن تفقد أعصابها "الله أكبر، أين أنتِ، يا ساجدة؟ خَلْصِيْنِي، افتحي هالباب"، أخذت نَفَساً عميقاً، وتنهّدتْ بصوتٍ عالٍ، ثمّ أفلتت كفّ مروة الصغيرة التي كانت تعتصرها. وبلمح البصر أخذت الجنّيّة مروة تركض بشكل دائري في زقاق الصّوّاف الضّيّق. مدّ سمير يده، وطرق سقّاطة الباب الحديدية عدّة مرّات مراعياً عصبية أمّي التي تململت بالقول: "الوضع لم يعد يُحتمَل. ففي الآونة الأخيرة، أصبحنا جميعا تحت رحمة ساجدة وغالية. وللأسف إحداهما عجوز، والأخرى نصف صمّاء. إمّا أنهما لم يسمعا الطرقات أو أن ساجدة لا تزال تُجرجر قَدَمَيْها في الممرّ الطويل"، سكتت أمّي قليلاً، ثمّ أضافت:

"غريب، لقد اتّصلتُ بكريمة منذ بضعة أيّام لإبلاغها بأنني قادمة مع الأطفال اليوم، لا يمكن أن تكون قد نسيتْ".

"انتظري، انتظري، هناك مَنْ هو آت. أسمع بعض الخطوات"... قبل أن يُنهي سمير جملته، فُتحت الخوخة، الباب الصغير في البوّابة الضخمة، وأطلّت فتاة صغيرة

برأسها، فتاة لم ترها أمّي من قبل، وكانت أشبه بالفلاحات. حاجباها الأسودان السميكان يؤطّران عينَيْن سوداوَيْن حادَّتَيْن كبيرَتَيْن مع خطوط سميكة من الكحل، ذكّرتها هيئة هذه الفتاة، بما فيها ضفيرتاها، بالبورتريه الشخصي للفنّانة فريدا كالو، التي أحبَّها والدي، وكرهَتْها أمّي.

"أهلا وسهلا ستّ سامية!" يبدو أن الفتاة الصغيرة قد أُبلغت عن وصول أمّي. وقالت بثقة: "هل يمكنني مساعدتكِ مع الطفلة؟" أجابت أمّي متعجّبة من مظهر الفتاة الرّثّ: "لا، شكراً، ولكنْ، يمكنكِ المساعدة في الأمتعة"، فكّرت أمّي.. لربّما تكون الفتاة خادمة شخص يزور العائلة. حنَتْ رأسَها، ودخلت عبر الخوخة إلى الممرّ المظلم المنحني.

أمرتْها الفتاة الصغيرة من ورائها "تأكّدي من خلع حذائكِ"

ردّتْ والدتي بغضب ظاهر "أعرف العادات في هذا المنزل جيّداً، ولا أحتاج إليكِ، كي تخبريني ما عليّ القيام به في بيت أبي". ثمّ أضافت:

"ممكن أسأل مَنْ أنتِ؟"

انحنت والدتي، وهي لا تزال تحمل نانا على ذراعها، لتخلع حذاءها. وضعت الحذاء في خزانة الأحذية في نهاية الممرّ، واختارت واحدة من النعال الجلدية المصطفّة على الرفوف، وأغلقت المصراعَيْن الخشبيَّيْن المزخرفَيْن.

"أنا مدبّرة المنزل الجديدة، وأنا مساعدة الحاجة ساجدة". انتبهت والدتي إلى كلمة "مدبّرة المنزل" بدلاً من كلمة خادمة.

"هكذا إذنْ. فهمتُ الآن، وما هو اسمكِ؟"

"أمّ محمّد، لكني أفضّل أن تنادوني باسمي الأوّل فاطمة".

سألت أمّي مصدومة "هل قلتِ أمّ محمّد؟ هل لديكِ بالفعل طفل، اسمة محمّد؟" لم تستطع أن تصدِّق، فالخادمة الجديدة لا تزال طفلة.

"نعم، ستّ سامية، لديّ طفل رضيع".

استفسرت أمّي متعجّبة "وكم عمركِ؟"

"أصبحت في الثانية عشرة في أيّار، وُلدت أنا ومحمّد في أيّار. أصبح عمره سنة، وأنا أصبحتُ الآن في الثانية عشرة من عمري".

بدا وكأن الهدف الرئيس من الإجابة على استفسارات أمّي هو أن تصدّق فاطمة واقعها الجديد، وأن تؤكّد معطيات حياتها الجديدة في بيت جِدُّو نعمان. "ثقي بي، وأعطيني طفلتكِ، أنا أمّ، وأستطيع التعامل معها".

كانت أمّي أكثر من سعيدة لإزاحة عبء حمل طفلتها نانا عن كاهلها، رغم أن فاطمة كانت في الثانية عشرة. كلّما أُتيحت الفرصة لأمّي، أودعت أطفالها في أيدي أفراد أسرتها مستخدمة، أو مستغلّة بالأحرى، أختَيْها غير المتزوّجَتَيْن، وخاصّة خالتي كريمة التي عشقت الأطفال من الأعمار جميعها.

قالت أمّي عندما أمسكت فاطمة نانا بالسهولة والألفة نفسَيْهما اللَّتَيْن تُمسك فيها فتاة صغيرة دميتها "خذيها،

وانتبهي جيّداً كي لا توقظيها".

مثله مثل أمّي تلقّى سمير التعليمات الصارمة بشأن خلع حذائه، ثمّ كأنه سمع تعليق والدتي الهامس "كم هي غريبة وفاجرة!".

أدركت والدتي، ومنذ اللحظات الأولى، إلى أي مدى كانت هذه الخادمة الجديدة متسلّطة.

"تعال، هيّا، احمل هاتَيْن الصفيحَتَيْن، واتبعني. علينا تخزينهما هناك في القبو الخلفي. سنعود فيما بعد لأخذ الحقائب. سنأخذها فيما بعد إلى الطابق العلوي، لنضعها في جناح السّتّ سامية فوق". افتتنت أمّي بكفاءة الخادمة الجديدة، وسألتها: "منذ متى تعملين هنا؟"

"مُنذ ثلاثة أشهر، يا خانم".

لم تكن والدتي راضية عن الطريقة التّسلّطية التي تعاملت بها فاطمة مع السائق سمير. ولكنْ، انشرحت أساريرها لاختفائهما عن وجهها، ليتسنّى لها أن تعيش لحظة وصولها إلى بيت أهلها، وأن تتمتّع بالدلال المنتظَر من أفراد عائلتها. أشرق وجهها بمجرّد أن وطئت قدماها الفناء المفتوح المشرق، التمعت عيناها الخضراوان، وامتلأت رئتاها برائحة الياسمين الأبيض.

"يا إلهي، كم أفتقد هذا البيت".

لحظات نوستالجية مرّت قبل أن ينهار عليها سيل من كلمات الترحيب من شقيقتها كريمة التي جاءت راكضة من

الطرف الآخر من أرض الديار "مرحباً بكِ، يا سامية، أهلاً بكِ في بيتكِ، يا أختي. أهلاً ومرحباً، يا حبيبتي. أصبحت الساعة 3:30 بعد الظهر، لا بدّ أنكِ والأطفال تتضوّرون جوعاً الآن"، وبسرعة تحوّلت كلمات كريمة الترحيبية إلى همهمات وسط القبلات والعناق.

"تعالي هنا، أيّتها العفريتة الصغيرة مروة، تعالي حبيبتي، دعيني أقبّلكِ على وجهكِ الأحلى من القمر... موا... موا!" ركعت خالتي كريمة لتُقبّل مروة. ثمّ سريعاً تحوّلت مروة بمجرّد أن أُتيحت لها الفرصة باتّجاه نافورة الرخام البيضاوية في منتصف الفناء، وأخذت ترش الماء في الاتّجاهات كلها. نظرت أمّي في وجه مروة، ومنحتها ابتسامة مُطمْئِنَة، وكأنها تقول: "نعم، يا حبيبتي، هل ترين ما يعنيه أن تعيشي في مكان رحب كهذا؟". شجّعت ردود فعل أمّي مروة، فصرخت عالياً، واستمرّت برشق الماء إلى المدى الذي سمحت به عضلاتها الصغيرة.

"لا! لا! توقّفي الآن فوراً. استيقظتُ من الثالثة فجراً لأنظّف هذا الفناء". صرخت فاطمة بأعلى صوتها، وجاءت مسرعة كالسهم باتّجاه مروة التي تحوّلت قهقهاتها إلى صرخات مدوّية. بينما كانت نانا لا تزال على ذراع فاطمة اليسرى، سحبت بيدها اليمنى مروة بعيداً عن حافّة النافورة. اقتربتْ خالتي كريمة من فاطمة، وأخذت نانا منها بهدوء "مرحباً، يا عصفورتي الصغيرة، ششششش... ششششش حبيبتي". وكذا تحوّلت ضحكات فرح مروة إلى سمفونية هستيريا ثلاثية، شارك بها كل من مروة ونانا

وفاطمة. أثارت فاطمة غضب أمّي مجدّداً، فسألت كريمة أختها بصوت منخفض "بربّكِ، من أين جئتُم بهذة اللبؤة؟"

"لم نأتِ نحن بها. جاءت هي إلينا من تلقاء نفسها". أجابت كريمة في حين كانت الأختان تعبران الفناء مباشرة باتّجاه غرفة الطعام.

"أخ أخ، يا سامية، حقّاً لا أعرف من أين أبدأ. هناك الكثير الذي أريد أن أحدّثكِ عنه. كم تسارعت الأحداث منذ أن رأيتُكِ آخر مرّة. سنتحدّث عن كل شيء، بمجرّد أن تنالي قسطاً من الراحة. تعالي الآن، واغسلي يَدَيْكِ، وتفضّلي مع البنات على الغداء قبل أن يبرد الطعام".

أدركتْ أمّي أنها وطفلتَيْها قد وصلنَ في فترة القيلولة المقدّسة لوالدها البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً، وأمّها المريضة وليلى الأنانية المدلّلة، لذلك عرفت بأنها لن تراهم سوى لاحقاً عند العصر.

بغبطة لم تشعر بها منذ زمن، تبعت أمّي كريمة إلى غرفة الطعام، وكلها أمل في أنها وبمجرّد الانتهاء من الغداء ستُودع ابنَتَيْها أختَها كريمة، وستختفي في غرفة نومها في الطابق العلوي وحدها، للتّمتّع بقيلولة طويلة، مثلها كمثل باقي أفراد عائلتها، باستثناء أختها المعطاءة كريمة.

الفصل الثامن

يوم الجمعة في بيت جِدُّو(أطول يوم في التاريخ)

الصباح الباكر

"بيت جِدُّو": إن كان ثمّة ما يجمع بين أفراد عائلة البارودي، أو القاطنين في قصر البارودي، فهي عبارة "بيت جِدُّو". وبما أن أفراد العائلة الممتدّة كلهم ومن حولهم أحبّ "بيت جِدُّو"، وأحبّوا ذكرياتهم المشتركة فيه، فكثيراً ما كرّروا هذه العبارة السحرية: "بيت جِدُّو". لذا أرجو المعذرة إذا ما بالغتُ في استعمالها.

طيلة حياتها، وكلّما تسنّى لها ذلك، كانت أمّي تحبّ أن تصل إلى بيت جِدُّو بعد ظهر يوم الخميس، لتكون حاضرة في الوليمة الكبرى "La Grande Bouffe"ليوم الجمعة. منذ زمن سحيق، اعتاد أفراد عائلة البارودي وأنسباؤهم جميعهم وأطفالهم على تناوُل الغداء مجتمعين كل يوم جمعة في بيت جِدُّو. عندما أقول كل يوم جمعة، فأنا أعني كل يوم جمعة. ولنكون أكثر دقّة، فمن الممكن أن يقع يوم الجمعة قبل أحد العيدَيْن، الفطر والأضحى، مباشرة أو بعده مباشرة، فعندئذ كان شبه مستحيل إعداد وليمَتَيْن كبيرَتَيْن متتاليَتَيْن، لأن الاستعدادات والتحضيرات لوليمة الجمعة غالباً ما كانت تبدأ قبل يوم أو يومَيْن.

لا شيء خارجٌ في صباح يوم جمعة عن المعتاد في معظم الصباحات في بيت جِدُّو، الأشباح تبدأ أعمالها قبيل الفجر. بجفون مثقلة وناعسة تتحرّك تلك الأشباح بخفّة وهدوء، وتتهامس. تشقّ طريقها في الظلام الضبابي الذي طالما ملأ ساحة الفناء في مثل هذه الساعات الباكرة من الصباح (أو بالأحرى الساعات المتأخّرة من الليل). يتشكّل البخار مع كل زفير وكل كلمة ينبسون بها في صباحات الشتاء

الباردة، يتراكضون هنا وهناك، صاعدين وهابطين السلالم بين الطوابق المختلفة للقصر. جاءت أشباح الصباح زرافات. شملت الموجة الأولى ساجدة، مدبّرة المنزل الرئيسة، وأكبر الخادمات الثلاث سنّاً، وغالية مساعدتها الأصغر سنّاً، وفاطمة حديثة العهد، والبالغة من العمر اثنَي عشر عاماً فقط. وصلت الخادمات الثلاث إلى بيت جِدُّو في أزمنة مختلفة (1900، 1910، 1947)، وفي ظلّ ظروف متفاوتة. ففي حين أن والد ساجدة، كان قد قايض بها لدفع ديونه، مُنحت غالية الأَمَة السوداء لجِدُّو هدية من شقيقته التي كانت تعيش في جَدّة. أمّا فاطمة التي جاءت من حوران، السهول الجنوبية من سوريا، فكانت قد هربت من زوجها، ووصلت على حين غرّة، تحمل طفلها محمّد بين ذراعَيْها.

وبسبب مرضها ووهنها، بدت ساجدة الخمسينية أكبر بكثير من سنّها. وبدلاً من أن تبدو كشقيقة غالية الكبرى كما بدت دائماً، غدت تبدو مثل أمّها. وسواء كانتا كأمّ وابنتها أو كشقيقَتَيْن، كانتا وما زالتا قريبَتَيْن عاطفياً، إلا أنهما كانتا مختلفَتَيْن في الجسم والملامح تماماً. فملامح ساجدة البدينة، التي جاءت أصلاً من أعماق إفريقيا السوداء، كبيرة: شفتان ممتلئتان، وأنف عريض مسطّح، ووركان عريضان. في حين كانت غالية الأثيوبية تتمتّع بملامح دقيقة، وجسم ضئيل، إلا عند الوركَيْن. وبغضّ النظر عن المرض والضعف اللذَيْن كانت ساجدة تعاني منهما، فقد كانت أول مَنْ يصحو فجراً، إن لم يكن لأداء الأعمال المنزلية، كما

كانت تفعل في الماضي، فعلى الأقلّ، للإشراف على تنفيذها عن كثب. لم تتغيّر مسؤوليات أو مكانة الأشخاص أبداً في مكان يعرف تقاليده مثل بيت جِدُّو أو في مدينة عتيقة مثل دمشق. كما لم تتغيّر مكانة ساجدة في الأسرة رغم أنها أصبحت أمّاً لطفل، يحمل اسم البارودي. أمّا المسؤولية الرئيسة للموجة الأولى من الأشباح، فكانت إعداد كل ما يلزم قبل إيقاظ الموجة الثانية: ألا وهم سادة البيت الكبار سنّاً وشأناً، جِدُّو نعمان وتِيْتِة بسيمة.

تولّت ساجدة مسؤولية إعداد الجولة الأولى من القهوة التركية مع الهال. وضعت على صينية فضية دائرية ركوة قهوة كبيرة، عليها نقوش خطّيّة جميلة، وفنجانَي قهوة من الصيني، وكأسَيْن رقيقَيْن ممتلئَيْن بالماء البارد، وصحناً صغيراً من زيت الزيتون الذي يشربه جِدُّو نعمان قبل أي شيء في الصباح. حملت ساجدة الصينية بتأنٍّ، (تأنٍّ وشى بعمرها) إلى القاعة التحتا، الجناح الخاصّ بتِيْتِة وجِدُّو. كانت القاعتان التحتا والفوقا ذواتا الأسقف الخشبية الملوّنة والجدران الجفصية والخشبية المزخرفة أجمل أجنحة القصر. قُسّمت القاعة التحتا إلى مساحَتَيْن كبيرَتَيْن بسقفَيْن عاليَيْن. زُيّنت المساحة السفلى من القاعة التحتا بنافورة مثمّنة كبيرة مصنوعة من رخام كارارا الإيطالي الأبيض، مطعّمة بقطع دقيقة من الحجارة الوردية والسوداء. تتماشى زخارف هذه النافورة مع أشكال الأرضيات الرخامية من حولها. تتباين هذه الأرضيات الرخامية البيضاء على نحو جميل مع السّجّاد العجمي المفروش في وسط الفضاء

العلوي، حيث ينتصب سرير جِدُّو وتِيْتِة النحاسي المرتفع. كما امتدّت الديوانيات الضّيّقة والعالية على طول الجدران الثلاثة الخشبية المزخرفة. كانت زخارف هذه الجدران، فضلاً عن الأسقف المرسومة والمنحوتة، من بين أجمل الزخارف في القصور العثمانية الدمشقية جميعها "حتّى لو قُورنت بقصر العظم" كما كان جِدُّو نعمان يقول بفخر في كثير من الأحيان.

اشترى جِدُّو نعمان في عام 1905 هذا القصر العثماني الرائع من ابن عمّه درويش أفندي البارودي لإيواء أسرته الآخذة في التّوسّع. بُنيت هذه الرائعة المعمارية في عام 1737، وضمّت أربعاً وعشرين غرفة وجناحاً من مختلف الأحجام والأشكال. وتقع معظم غرف الاستقبال والصالونات وقاعات الطعام ومناطق الخدمة حول الفناء والليوان شبه المفتوح في الطابق الأرضي، أمّا الطابقان الثاني والثالث، فكانت فيهما غرف معيشة عائلية مختلفة، وغرف نوم، وشرفات مفتوحة.

وعلى الرغم من كبر سنّها ومرضها، استمرّت ساجدة في أداء واجباتها المحدّدة، وأهمّها تلبية احتياجات سيِّدَيْها المسنَّيْن، تِيْتِة بسيمة المريضة البالغة من العمر أكثر من ستّين عاماً، وجِدُّو نعمان البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً. جلست تِيْتِة بسيمة على السرير تحتسي قهوتها بهدوء، بينما جلس جِدُّو نعمان على ديوان قرب السرير يحتسي قهوته، في الوقت الذي تابعت فيه ساجدة القيام بأعمالها المعتادة. وضعت إبريقَيْن كبيرَيْن من النحاس

مملوءَين بالماء الفاتر على حافّة النافورة، ووعاء مسطّحاً فارغاً على الأرض تحضيراً لوضوء صلاة الفجر. لكبر السّنّ وعدم قدرتهما على الركوع والسجود، كان جِدُّو وتِيْتِة يؤدّيان صلواتهما جالسَيْن على كرسيَّيْن متجاورَيْن مسنودَيْن إلى الحائط في الفناء السفلي. غادرت ساجدة الغرفة، لتؤدّي صلاة الفجر، بعد أن ساعدت تِيْتِة بسيمة على النزول من السرير المرتفع والجلوس على أحد الكرسيَّيْن والوضوء وتغطية رأسها استعداداً للصلاة. ثمّ ظهرت لاحقاً، تحمل كأسَيْن ساخنَيْن من حليب الماعز، وساعدت تِيْتِة بسيمة على تناول دوائها. وبعد أن وضعت ساجدة ملابس يوم الجمعة النظيفة والمَكوية والمُنشّاة لكل منهما، خرجت للتّأكّد من درجة حرارة الحمّام التركي الساخن الذي كان في انتظارهما.

كانت غالية، المسؤولة الرئيسة عن المطبخ، وخاصّة عن الاستعدادات الشّاقّة لوليمة يوم الجمعة، مشغولة أيضاً. تروح جيئة وذهاباً بين قبوَي التخزين في طرفَي الفناء، تحمل أواني النحاس وأواني القلي الضخمة، وحزماً كبيرة من الحطب عبر الفناء إلى المطبخ الواسع والحمّام التركي الفسيح. بالإضافة إلى التجهيزات اللامتناهية للوليمة العائلية. يوم الجمعة أيضاً هو اليوم الذي يأخذ فيه كل فرد من أفراد الأسرة حمّاماً ساخناً، يستمرّ طويلاً، حتّى كأنه بلا نهاية. يكتسب حمّام يوم الجمعة قدسية وطهارة فقط إذا ما غسل المرء جسده ورأسه سبع مرّات (سبعة أزوام والمفرد زوم). لذا كان على غالية أن تتنقّل بين الموقدَيْن

الكبيرَيْن، وتُلقِّمهما قطع الحطب والخشب ذات الأحجام المختلفة، فبالإضافة إلى "الغيزر" أو الموقد الأسطواني في الحمّام، كان عليها أن تُلقِّم في المطبخ الوجاق، وهو موقد الطهي الأشبه بالطاولة مع أربع فتحات مدوّرة، تُوضَع عليها الطناجر.

يصل هاني، مساعد جِدُّو، وخالو سامي، ابن ساجدة، بعد ساعة ونيّف من صلاة الفَجْر، وبرفقتهما الجمال والحمير المحمّلة بمستلزمات الوليمة.. يجلبان صناديق من الخضروات الموسمية الطازجة مثل الباذنجان والبندورة والخيار والكوسا والخسّ والسبانخ والفاصوليا الخضراء، وصناديق الفواكه الطازجة، بما فيها المشمش والخوخ والعنب والكمّثرى، وكمّيّة هائلة من البطّيخ والشّمّام، بالإضافة إلى أكياس كبيرة من الأرز والبطاطا والجزر والحبوب والفاصوليا، وأخيراً، وبالتأكيد ليس آخراً، خروف أو اثنان مسلوخَيْن محمولَيْن غالباً على كتفَي الجزار نفسه. كان هاني وخالو سامي من مساعدي جِدُّو نعمان في مصانع الثلج والخشب. وبينما كان هاني في الأربعينيات من عمره، كان خالو سامي، الذي ترك أمّه ساجدة وبيت جِدُّو في سنّ الثالثة عشرة، يقارب العشرين من عمره الآن. لطالما قال خالو سامي مازحاً كلّما سُئل عن الأسباب التي جعلتْه يغادر بيت جِدُّو: "بما أن لوني شوكولاته مثل لون أمّي، ففرصي في العثور على الزوجة المناسبة أعلى بكثير، إذا ما تركتُ هذا البيت، وعشتُ بمفردي".

كان من البديهي والمتوقّع أن تُوكَل معظم، إن لم يكن المهامّ الشّاقّة كلها، إلى فاطمة الصبية اليانعة والقوية. توجّب على فاطمة، قبل الشروع في مهمّة شطف أرضيات الفناء الناعمة والخشنة بالماء والصابون والفرشاة، وقشّها، أن تسقي نباتات الفناء والشرفات: أشجار البرغموت الأربع، وشجرة الليمون، والياسمينات البيضاء الثلاث، وشجيرة رعي الحمام، ونبتة الجهنّميّة الأرجوانية الداكنة التي تزيّن الدرابزين الحجري للدرج الذي يؤدّي إلى القاعة العليا. كان عليها أيضاً أن تحرص بعناية على النباتات الحسّاسة الموضوعة في أحواض مختلفة الحجم، والمرتّبة في مجموعات، إمّا محاذية للجدران أو موضوعة على حاملات النباتات المتدرّجة، على سبيل المثال لا الحصر: زهرة عصفور الجنّة، نبتة شجرة الحبّ، السرخس، الزبرينا الحمراء، لسان حماتي، المِسِتْحِيِّة، القاضي، نجمة الصباح، الوسيم، الغرنوقيات، وإبر الراعي من الألوان جميعها، بالإضافة إلى البتونيا. كانت زنابق السلام ونبتة الحبّ أكثر النباتات التي تكرهها فاطمة، لأنها مضطرّة لمسح وتلميع كل ورقة من أوراق هذه النباتات. على الرغم من جدِّها ونشاطها مَنْ قال إن فاطمة تمتثل للأوامر عندما لا يروق لها عمل شيء ما؟! وضّحت فاطمة من اللحظة الأولى التي وطئت قدماها بيت جِدُّو، ما تحبّ وما لا تحبّ أن تقوم به، وماذا عليهم أن يدعوها أو يلقّبوها، وما لا ينبغي عليهم أن يدعوها به. كان أكثر ما يغضبها ويُخرجها عن طورها استعمال كلمة "خَدَّامة" أو خادمة. كلّما أشار

إليها أحدهم بالخَدَّامة، تنفجر فاطمة، ويتشظّى العالم من حولها إلى قطع صغيرة. كانت تنفجر بسيل من الشتائم البذيئة في وجه أي شخص يجرؤ على استخدام هذه الكلمة معها. ولكنْ، ولسوء حظّها، كان الجميع يستخدم بسهولة وخفّة كلمات مثل الخدّامات والخدم والعبيد. سنعود إلى هذه الشخصية وتعقيداتها الكثيرة في سياق هذه الملحمة. ولتجنّب غضب فاطمة العارم، كانت خالتي كريمة تتولّى بالنيابة عنها الأعمال التي ترفضها كتنظيف أوراق بعض النباتات ورقة ورقة. وغالباً ما تحايلت خالتي على عملية التنظيف المملّة بتحويلها إلى لعبة، يشارك فيها العديد من أطفال العائلة: أبناء الإخوة والأخوات وبناتهم. وبالمقابل كانت كريمة توزِّع عليهم كمّيّات كبيرة من الآيس كريم والحلويات والشوكولاته. جلست فاطمة القرفصاء، وفي زنّار سروالها الواسع علّقت طبقات من الخِرَق الملوّنة، وباستخدام خرطوم المياه القوي، وفرشاة أرض خشنة، والكثير من الصابون، أخذت تفرك رخام كارارا الإيطالي الناعم والأرضيات الخشنة من الحجر البازلتي الأسود.

لم يكن مستغرباً، بل لربّما من المفهوم لماذا صرخت فاطمة وهبّت لجَرِّ مروة بعيداً عن نافورة المياه، لتحافظ على نظافة الفناء، ولو لفترة مؤقّتة. أمّا أكثر الأمور الغريزية المحبّبة التي كانت تقوم بها هذه الأمّ الفتيّة، أنها غالباً ما كانت تلفّ طفلها الرضيع محمّد بقماشة، لتحمله على ظهرها عندما تقعي على ركبَتَيْها لفرك الأرضيات. اكتشف الكثير من أطفال العائلة متعة التّعلّق على ظهر

فاطمة. كانوا يتسلّقون ويتشبّثون بظهرها مثل القرود الصغيرة، وضحكاتهم وصيحاتهم تملأ الفناء.

كانت أشعّة الشمس الساطعة تملأ الفناء مضيئة الأرضية النظيفة المتلألئة في الوقت الذي بدأ فيه الطابق العلوي بالاستيقاظ، كما كانت تشرق على جِدُّو وتِيْتِة اللامعَيْن المهفهفَيْن اللذَيْن قد انتهيا من الجولات السبع لحمّامهما. ظهرت ساجدة تحمل صينية الجولة الثالثة من القهوة، بمجرّد أن انضمّت خالتي ليلى وخالتي كريمة لوالدَيْهما على الديوانَيْن اللذَيْن وُضعا في الركن الشمالي الغربي، الركن الأكثر برودة في الفناء.

الفصل التاسع

صباح الجمعة

أيقظت صرخات الرضيع أمّي المرهقة من نومها العميق. الأصوات التي غزت نومها بدت أشبه بصرخات استغاثة. بعين نصف مفتوحة، استرقت نظرة إلى ساعتها. كانت الساعة السادسة والثلث صباحاً. أدارت أمّي جسدها الثقيل باتّجاه الحائط محاولة العودة إلى النوم.

كم تمنّت الاستمتاع بالنوم لساعة متأخّرة على الأقلّ في صباح اليوم الأوّل من وصولها إلى بيت أهلها. ولكي تستمتع بالنوم إلى وقت متأخّر - كما كانت تنوي، أو بقدر ما كانت تحلم، أو بقدر ما تطلّب جسدها المرهق - كلّفت والدتي، في الليلة السابقة، شقيقَتَيْها كريمة وليلى برعاية ابنَتَيْها طوال مدّة إقامتها في بيت جِدُّو التي قد تمتدّ أسبوعاً،

أو بقدر ما كانت خالاتي على استعداد لرعاية البنتَيْن، أو بقدر ما سمح لها ضميرها باستغلال أخواتها وعائلتها. بينما كانت نانا من "نصيب" خالتي كريمة، كانت مروة حصّة خالتي ليلى. أقنعت أمّي نفسها أن هذه قسمة عادلة ونزيهة، دافنة أي شعور بالذنب تجاه أطفالها في مهده.

شعرت خالتي ليلى بمحبّة خاصّة تجاه مروة منذ اللحظات الأولى من ولادتها. لسبب أو لآخر، أحبّتها أكثر من أي طفل من أطفال أخواتها وإخوتها الكثيرين. كان الأطفال الآخرون جميعهم يخشون خالتي ليلى الشديدة والجدّيّة، أمّا مروة، فقد تمكّنت، في كثير من الأحيان، من اقتناص ابتسامة نادرة وثمينة منها. ورغم تلك العلاقة الخاصّة بين خالتي ليلى ومروة، إلا أن خالتي كريمة هي التي كانت، في الواقع، تعتني بالطفلَتَيْن، فنظراً لطيبتها وسخائها كانت قادرة على منح الحبّ والرعاية والاهتمام والتّفهّم والطعام والحلويات والآيس كريم والبالونات ولعب الأطفال، وأكثر من ذلك بكثير، للعشرات من أبناء شقيقاتها وأشقّائها وبناتهم. كان أشقّاء ليلى كلهم، بحلول ذلك الوقت، باستثنائها، متزوّجين، ولديهم أطفال. تولّت خالتي كريمة رعاية أطفال الأسرة وتدليلهم وتدليعهم جميعهم، في حين هيمنت خالتي ليلى عليهم جميعاً، الكبار والصغار والمسنّين والبالغين والأطفال والرّضّع، الذكور والإناث والسادة والخدم، في الطابق العلوي والسفلي. هيمنت ليلى على الجميع، بمَنْ فيهم تِيْتِة بسيمة وجِدُّو نعمان، وخاصة جِدُّو الذي لم يقل لها "لا" أبداً، ولم يرفض طلباً أو رغبة من

رغبات ابنته الكبرى. لقد اكتسبت دورها ومكانتها كليلى الطاغية، التي يسعى الجميع لمشورتها ورأيها وحكمها.

قاربت خالتي ليلى التي ولدت في عام 1898 على الخمسين من عمرها في صيف عام 1947. كان جناحها الفسيح، مثل جناح الوالدَيْن المسنَّيْن جِدُّو وتِيْتِة، يقع في الطابق الأرضي في ما كان يُسمّى المربّع الداخلي، بينما يقع جناح خالتي كريمة في الطابق الأوّل. درج ضيّق وطويل بدرجات عالية، كان يربط الفناء الرئيس بالشرفة المفتوحة التي تقع أمام جناح خالتي كريمة.

عندما كانت تأتي في الزيارة وحدها، أي من دون أبي أو أطفالها الذين لم يكن لهم أي اعتبار عندها، كانت أمّي غالباً ما تختار النوم في جناح خالتي كريمة المكوّن من غرفَتَيْن، وليس في الفرنكة، غرفة النوم الزوجية التي تقع في الجزء الشتوي من القصر.

بينما كانت تحاول جاهدة أن تنال قسطاً إضافياً من النوم، تساءلت أمّي لماذا تبدو صرخات محمّد الصغير وكأنها آتية من غرفة نوم أختها كريمة المجاورة بينما ينبغي أن يكون مدسوساً هناك بعيداً في منطقة الخدم في الطابق الأرضي؟ رفعتْ أمّي رأسها الثقيل من تحت الوسادة، وأرهفت السمع، غريب! كانت الصرخات تتسرّب بالفعل من غرفة نوم كريمة المجاورة لغرفتها، ولم تكن هذه الصرخات، بكل تأكيد، لبنتَيْها. استغربتْ، وسألتْ نفسها، هل من الممكن أو من المعقول أو المتخيَّل أن تقوم كريمة

بالاعتناء بطفل الخادمة الجديدة؟! أي طفل فاطمة! لا، لا، هذا من رابع المستحيلات! فعلى الرغم من طيبة كريمة وكرمها ولطفها، وبناء على ذاكرة أمّي، لم يُسمح لأي طفل من أطفال الخدم التواجد في غرفة نوم سيّدتهم. حتّى سامي الصغير المدلّل والمفضّل لديها، ابن ساجدة الوحيد، الذي عاش في هذا القصر مع أمّه لأكثر من ثلاثة عشر عاماً، لم يصل، في يوم من الأيّام، إلى غرف النوم في الطابق العلوي. تلاشى، لجزء من الثانية، من ذهن والدتي كلا الاسمَيْن تماماً، فاطمة اسم الخادمة الجديدة ومحمّد اسم ابنها البالغ من العمر سنة واحدة. وهذا ليس مستغرباً من امرأة، لم ترغب يوماً في الزواج أو حتّى إنجاب الأطفال. بثقل وتردّد سحبت والدتي جسدها من دفء الفراش الوثير، مدرِكة أنه لم يكن أمامها أي فرصة للحصول على المزيد من النوم حتّى يحين موعد قيلولة بعد الظهر. دسّت قَدَمَيْها المتورّمَتَيْن المتأرجحَتَيْن في النعل الجلدية المزخرفة، وهي تلفّ روبها حول جسدها الطويل، وتهادت بفضول من غرفتها عبر الدهليز، ومن ثمّ إلى جناح كريمة.

فتحتْ باب جناح نوم أختها الفسيح وهي لا تزال في حالة من الارتباك، تحاول جاهدة فهم مصدر الصوت وصاحبه، مدّت رأسها الناعس من خلال الباب الموارب، ونظرت حولها باستغراب وفضول. فوجئت لأن كريمة قد أعادت ترتيب جناحها بشكل مختلف تماما. تساءلتْ أمّي وهي تقف في منتصف الغرفة عن السبب الذي دفع كريمة إلى تحويل

هذا الجناح من جناح معلّمة مثقّفة وقارئة إلى غرفة نوم أطفال وردية أشبه بغرف رياض الأطفال. الجناح الذي كان يوماً في قمّة الأناقة - مكتب ضخم من خشب البلّوط بجوار نافذة تطلّ على الفناء الرئيس في الأسفل، ورفوف كُتُب مجلّدة تجليداً موحّداً تتوسّط الجدران الثلاثة العالية، والأثاث الدمشقي لغرفة المعيشة المكوّن من كراسي خشب الجوز والكنبة المطعّمة بالصدف الأبيض وأريكة مخمليّة خضراء داكنة مع كرسيَّيْن متطابقَيْن من خشب الأرز (الأثاث الذي طالما أحبّتْه والدتي، وحلمت بأن تحصل على أثاث مشابه له في يوم ما)، وأخيراً ركن النوم بسرير النحاس العالي، المماثل لسرير ليلى، ومقابله طاولة مثمّنة، وضع عليها مصباح من زجاج "الموارنو" يشعّ بنوره حين كانت كريمة تمضي لياليها في قراءة الروايات - هذا كله أصبح الآن كأنه غرفة مزركشة في حضانة أطفال. تذكّرت أمّي على نحو واضح التفاصيل المتعلّقة بالقراءة، لأنها على عكس كريمة لم تكن يوماً تهتمّ بالقراءة.

يبدو أن الكثير قد حصل منذ زيارتها الأخيرة إلى بيت أهلها قبل ما يقارب السّتّة أشهر. فرَكَتْ أمّي عينَيْها، وقَرَصَتْ نفسها، لا، لم يكن هذا حلماً، بل حقيقة. ولكنْ، كيف غدا كل شيء في هذا الجناح وردياً؟ جدران وردية، ستائر وردية، سجّادة وردية، كراسي صغيرة وردية، سرير وردي، بطّانيّة وردية، شراشف وردية، غطاء وسادة وردي، عربة أطفال وردية، وأكوام كبيرة من الملابس والدمى الوردية. كان كل شيء وردياً، باستثناء

الصور التي بالأسود والأبيض التي عُلِّقت أو صُمدت على كل جدار أو رفّ في الغرفة.

ألقتْ أمّي نظرة متأنّية على الصور قبل أن تحيد عيناها عن المشهد الوردي المزغزغ للعيون: صورة لكريمة تعانق الطفل بابتسامة مغزاها "أنا في الجنّة في سابع حلم، وفي سابع سماء". وأخرى لليلى وهي تحضن الطفل بتعابير سعادة وغبطة على وجهها، ما عهدتْها أمّي من قبل.

وثالثة لجِدُّو نعمان مع الطفل، يبتسم ابتسامة عريضة، كشفت عن حنانه وقلبه الكبير. ورابعة لتِيْتِة بسيمة جالسة على كرسي والطفل نفسه هاجع في حضنها. وهنا صورة لكل من كريمة وليلى تتشاركان عناق الطفل، كما يفعل الأزواج عادة. وهنا صورة لهم جميعاً كعائلة سعيدة مع طفل صغير ببشرة داكنة، وقد بدا مرتبكاً بعض الشيء. وصورة لطفل بأبهى حلّة، وهنا صورة أخرى لطفل يرتدي نصف ملابسه، وثالثة لطفل عار تقريباً، ورابعة لطفل عار تماماً، وكان هذا الطفل العاري فتاة.

قالت والدتي لنفسها متعجّبة: "طفلة!".

ثمّ كرّرت مجدّداً: "طفلة".

وفي المهد كانت هناك "طفلة"، أنثى.. كان البكاء صادراً عنها إذنْ، ولم يكن لمحمّد الرضيع ابن فاطمة من وجود في أي من هذه الصور على الجدار.

حامت أمّي فوق مهد الطفلة متفحّصة. وما إن نظرت إلى وجهها حتّى تحوّل بكاء الطفلة إلى قهقهات ونغنغات فرحة. رفست بقَدَمَيْها وذراعَيْها الصغيرَتَيْن، في حين مدّت رأسها وعنقها وكأنها تقول: "هيّا، يا خالة سامية، احمليني، احمليني". أخذت والدتي تتحدّث إلى نفسها بصوت عال وهي تقاوم ما لا يمكن مقاومته: "لحظة، لحظة واحدة فقط!" كان هناك شيء ما في هذه الشيطانه الصغيرة حرّك ذكرياتها. ما هو؟ نعم! أنا أعرف هذه الطفلة! نعم، فعلاً! لقد رأيتُ هذا الأنف وهاتَيْن العينَيْن من قبل. إنها فتاة القدس.

فكّرت والدتي مليّاً بعدما شكّت في أنها تُهلوس، ألم تكن هذه الطفلة الجميلة نفسها التي أتى بها وسيم إلى بيتها في القدس قبل بضعة أشهر؟ هل يُعقل أن تكون هذه الشيطانة الصغيرة قد ميّزتْ رائحتي؟ سألتْ أمّي نفسها، ثمّ تذكّرت كيف حملت هذه الطفلة في القدس "أعرف جيّداً، يا حبيبتي، ليس هناك ما يُعوِّض عن حضن الأمّ، كما أعرف جيّداً، يا حبيبتي، ليس هناك ما يُعوِّض عن حبّ الأمّ". وفي اللحظة التي انحنت فيها لتحمل الطفلة المبتسمة، سمعت خطوات خلفها، أدارت رأسها، لتجد أختها كريمة واقفة وراءها بالضبط.

"سامحيني، يا سامية، أردتُ إخباركِ بكل شيء ليلة البارحة، ولكن مرض أمّي والإرهاق الذي كنتِ أنتِ عليه جعلاني أؤجّل هذه المفاجأة الرائعة حتّى هذا الصباح". اقتربت خالتي كريمة بغبطة والابتسامة تملأ وجهها السمح

من سرير الطفلة، وقفت بجانب شقيقتها، ونظرت بحنان إلى الطفلة، وقالت:

"انظري إليها! انظري إلى لعبتي، انظري إلى ابنتي القمر نورما. إنها نور حياتي، انظري إليها، بربّكِ، أليست أجمل طفلة على وجه البسيطة؟" تمتمت والدتي: "ابنتكِ؟"

"نعم، ابنتي. أنا أمّها، وليلى تريد أن تكون والدها".

شكّت والدتي مرّة أخرى بأنها في منام.

"لدينا الكثير لنتحدّث بشأنه، يا سامية، ولديّ الكثير لأبوح لكِ به. انزلي الآن إلى الفناء لتناوُل قهوتكِ، فأمّي وأبي بانتظاركِ، وهما في غاية الشوق إليكِ. عليّ أن أُطعم طفلتي وأُغيّر لها ملابسها. ومن ثمّ، عليّ أن أمدّ يد العون لساجدة وفاطمة في المطبخ".

كانت أمّي لا تزال مشدوهة عندما أضافت: "يا إلهي، يا كريمة، لا يمكنني أن أصدّق ذلك. يا إلهي، كيف وصلت طفلتي من القدس، الطفلة التي حملتُها بيدَيّ؟ كيف وجدت طريقها إلى غرفة نومكِ؟ هذه القصّة أغرب من الخيال فعلاً، لا شكّ أنها هدية من الله".

"لا يمكنكِ أن تتخيّلي، يا سامية كم أنا سعيدة بوجودها. من الصعب، بل من المستحيل أن أعبّر. كم أنا محظوظة وممنونة! أسعد يوم في حياتي كان يوم وصولها إلى بيت أبي، وبالتحديد إلى غرفة نومي. لم أنمْ لحظة واحدة تلك الليلة وأنا أتأمّلها".

سألتْ أمّي بصوت منخفض، كما لو أنها تتحدّث إلى نفسها، وليس مع شقيقتها: "أتساءل إذا ما كان وسيم يعلم". تجاهلت كريمة سؤال أمّي، بل تظاهرت بعدم سماعه، أمسكتْ كريمة الطفلة المبتهجة، وضمّتها إلى صدرها بألفة تعامل فاطمة ويُسرها مع نانا بالأمس. ضحكت الرضيعة نورما، وأصدرت نغنغات فرحة، وبالمقابل عانقت كريمة طفلتها الوردية عناقاً طويلاً - عناقاً أبدياً.

الفصل العاشر

الطفلة المقدسية

تساءلت أمّي نصف نائمة ونصف مصدومة وهي تنزل بحذر الدرج الضّيّق والمظلم من جناح كريمة إلى الفناء الرئيس، إن كان ما رأتْهُ للتّوّ حقيقة أم حلماً، أو ربّما شيئاً بين هذا وذاك. انضمّت إلى والدها ووالدتها وليلى في صبحيّتهم محاولة تجميع قطع اللغز. طقوس شرب القهوة الصباحية غالباً ما تكون في الظّلّ تحت شجرة النارنج الطويلة، وكانت هذه الساعة من أثمن ساعات اليوم. يتحدّث أعضاء الأسرة في صفاء وهدوء هذه الساعة مع بعضهم، ويستشيرون بعضهم، ويتناقلون القيل والقال عن أفراد الأسرة والشؤون العائلية. كانت هذه الساعة الوحيدة التي تمتلك فيها تِيْتِة بسيمة وخالتاي غير المتزوّجَتَيْن، كريمة وليلى، والآن أمّي، الفرصة للحديث بهدوء مع جِدُّو نعمان قبل أن ينطلق إلى عالمه التجاري المتطلّب والمرهق. ورغم أن اليوم يوم جمعة، إلا أن جِدُّو نعمان

يعمل مثل معظم التّجّار لحين صلاة الجمعة. كما استغلّ الكبار فرصة تجمُّعهم قبل أن تنطلق تِيْتِة والآخرون لتلبية المتطلّبات الكثيرة ليوم الجمعة. أرادت أمّي معرفة تفاصيل حكاية كريمة ونورما كلها قبل أن تستيقظ ابنتاها الصغيرتان.

كثيراً ما تجمّع أفراد العائلة حول هذا الفناء (الديار) الشاسع المفتوح والنافورة البيضاوية التي تتوسّطه خلال أشهر الصيف الحارّة والجافّة.

ينتقل أفراد الأسرة بين الثلاث مناطق المخصّصة للجلوس بحسب الساعة من النهار، أو الزاوية التي تضرب فيها الشمس. ففي الصباح الباكر، كانوا يتمتّعون بظلّ الركن الشمالي الشرقي، أمّا في فترة ما بعد الظهر، فكانوا يجلسون في الزاوية الجنوبية الغربية قرب الياسمينة البيضاء الضخمة. أمّا خلال الساعات الحارّة وساعات بدايات ما بعد الظهر، فكانوا يحتمون من الشمس المحترقة بالجلوس في الليوان المغطّى وشبه المفتوح.

التزمت تِيْتِة الصمت، بسبب طبيعتها المتحفّظة وجسدها العليل هذه الأيّام، في حين تناوب جِدُّو نعمان وخالتي ليلى على رواية التفاصيل المتعلّقة كلها بقصّة الأمّ بالتّبنّي وقصّة الطفلة المتبنّاة: قصّة كريمة ونورما.

قالت الخالة ليلى بصوتها الرصين المعتاد "سامية، لا يمكنكِ أن تتخيّلي إلى أي مدى أحبّتْ كريمة هذه الطفلة المقدسية. لقد تغيّرت حياة كريمة وحياتنا معها منذ وصول

هذه الطفلة الرائعة إلى منزلنا قبل ثمانية أشهر". ثمّ أضافت برقّة: "أنا أعشق هذه الطفلة". فوجئت أمّي برؤية الدموع تنهمر من عينَي شقيقتها القويّة عندما خذلها صوتها. كانت هذه الرقّة والمودّة اللتان أظهرتْهما شقيقتها ليلى الوقورة شيئاً جديداً عليها، لم تره ولم تختبره خلال السنوات الخمس والعشرين التي فصلتْهما عن بعضهما. كان من المدهش أيضاً أن ليلى القليلة الكلام هي الشخص الذي أظهر الرغبة في رواية القصّة بأكملها وبإسهاب، وكيف انتهى المطاف بنورما، أو "الطفلة المقدسية "كما كانت تشير إليها، في غرفة نوم كريمة. افترّت شفتا ليلى الرقيقتان عن ابتسامة متعمّدة، للتّغلّب على الحرج الذي سبّبتْه دموعها التي نادراً ما كانت تطلّ، وتابعت:

"صدِّقيني، يا سامية، إنه الحبّ من النظرة الأولى كما يقولون، لم يكن أمامي، أو أمام أي شخص آخر، وسيلة لإقناع كريمة بترك هذه الطفلة. كما لم يكن من طريقة أيضاً لدفع الطفلة للتّخلّي عن كريمة. كانت كلتاهما أشبه بالمغناطيس، بالنسبة إلى الأخرى. لقد التصقتا ببعضهما، قد وُلدا لبعضهما". لم تستطع أمّي في تلك اللحظة بالذات التّوقّف عن التفكير في والدة نورما البيولوجية، والظروف التي أجبرتْها على ترك طفلتها. خاصّة وأن أمّي كانت على اطّلاع على نمط الحياة التي كان يعيشها وسيم وأصدقاؤه في القدس. يبدو أن الخاطرة نفسها خطرت في ذهن خالتي ليلى أيضاً: "لا أعرف كيف أو ما الذي أجبر أمّاً على هجر

طفلتها؟ ولكنْ، مهما كان السبب، فقد تبيّن الآن أنه لمصلحة كل منهما، أعني لمصلحة كريمة ونورما أيضاً".

ربّما كانت هذه هي المرّة الأولى التي تسمع فيها أمّي اسمَي كريمة ونورما، كما لو كانا اسماً واحداً. حتّى ذلك اليوم كان اسم كريمة مرتبطاً دائماً، أو يذكر أو يتعلّق على الدوام باسم ليلى: ليلى وكريمة.

"ليلى، لم تُخبريني حتّى الآن كيف انتهت الطفلة المقدسية في هذا البيت؟"، كانت أمّي تشعر بالفضول تجاه المحطّات جميعها على طول درب الآلام الذي مرّت به نورما الصغيرة من غرفة معيشة أمّي في القدس إلى غرفة نوم شقيقتها كريمة في الطابق العلوي من قصر البارودي في دمشق.

"نعم، بالتأكيد. بدأ كل شيء في ذلك اليوم الذي ذهبت وكريمة لزيارة ابنة عمّتي عزيزة الجمل، التي قد أنجبت سلمى كما تعلمين، ابنة أخرى". لم تعلم أمّي شيئاً عن سلمى، كونها كانت غائبة لعام كامل، ولكنها بقيت صامتة، إذ لم ترغب في مقاطعة شقيقتها. "أخبرتنا عزيزة كيف أن ابن أختها وسيم وصديقه قد قاما بتهريب طفلة حديثة الولادة من القدس إلى دمشق، على أمل أن قريبته عزيزة ستتبنّى الطفلة، ولكنها رفضت قائلة لوسيم: ماذا سأفعل ببنت إضافية؟ ألا يكفيني خمس بنات؟"

لم تستطع أمّي سوى أن تقاطع ليلى في هذه المرحلة الحرجة: "هل أخبرتْكِ عزيزة، أنني أنا التي لَففتُ الطفلة

لوسيم؟" متحمّسة لكونها جزءاً من عملية التّبنّي هذه، ناسبة لنفسها بعض الفضل.

"لا أتذكّر، ربّما فعلتْ".

لم تنتبه ليلى لتعليق والدتي التي كانت جاهدة لنيل اعتراف العائلة بفضلها، وتابعت رافضة ذلك على نحو غير متعمّد: "وفي اللحظة التي جلبتْ فيها عزيزة الطفلة المقدسية الصغيرة إلى الغرفة، وقعت كريمة حالاً في حبّها". وسألت عزيزة وعلى الفور إذا ما كان باستطاعتها أخذها إلى منزلها؟ تدخّلتُ أنا على الفور، وقلتُ لكريمة إن الأمر ليس بهذه البساطة! من الضروري، بل من الواجب أن تتشاور مع والدَيْها أوّلاً. إذ لم يكن لديّ أي فكرة عمّا إذا كان من الممكن للمرأة غير المتزوّجة أن تتبنّى طفلاً أصلاً. وبعد أن ضغطت عليها للتشاور مع أبي في هذا الشأن، أعادت كريمة الطفلة إلى عزيزة، وجاءت إلى المنزل، لتطرح الأمر على أبي وأمّي".

حوّلتْ أمّي جسدها كله في اتّجاه والدها وهي توجّه له السؤال متجاهلة تِيْتِة بسيمة مجدّداً، كما اعتادوا أن يفعلوا في كثير من الأحيان: "وماذا كان رأيكَ حينها، يا أبي؟" ابتسم جِدُّو نعمان لأمّي، وأجاب بصوته الهادئ والمطمئن على الدوام:

"كما يقولون، كل شيء ممكن عندما يُؤْمِن المرء به، وهذا ما قلتُه لكريمة، سوف تكونين، يا ابنتي الحبيبة، أفضل أمٍّ على الإطلاق لهذه الطفلة، إذا ما رغبتِ حقّاً في ذلك".

وأضاف جِدُّو نعمان بعد أن سكت برهة: "رغم يقيني التّامّ من عشق كريمة الغريزي للأطفال، فقد حذّرتها من أن تربية طفلة بمفردها لن يكون أمراً سهلاً على الإطلاق. ولكنها أخبرتْني حينها أن ليلى وعدت بمساعدتها، وأنها أرادت أن تقوم بدور الأب. وأكّدتُ لها أننا جميعاً جاهزون لمساعدتها"، توقّف جِدُّو نعمان هنا ليأخذ نَفَسَاً، ثمّ تابع: "إذا كان هذا ما تريدينه أنتِ وليلى، فليكن". ونظر جِدُّو نعمان باتّجاه ليلى مبتسماً. منحها تلك النظرة المطمئِنة التي أكّدت على العلاقة الوطيدة بينهما، والتي منحت ليلى المزيد من السلطة. بادلت ليلى والدها الابتسامة، ثمّ تابعت:

"وبمجرّد أن حصلت كريمة على بركة والدها، لم يعد العالم يسعها من الفرحة. فذهبت مجدّداً كالصاروخ باتّجاه بيت عزيزة. لقد قطعت المسافة جرياً بلا توقّف بين بيتنا وبيت عزيزة. لم أتمكّن من اللحاق بها، فقد خلّفتْني وراءها. وقبل أن أصل إلى بيت عزيزة كانت كريمة قد لفّت الطفلة، وجمعت أغراضها، وأصبحت في طريق عودتها إلى البيت".

كان هناك شيء ما في الطريقة التي روت بها خالتي ليلى القصّة أثار غَيْرة أمّي. شعرت وكأن الطفلة أصبحت طفلتَيْهما حصراً. أحسّت أمّي بأذى شديد، لكون ليلى، وعلى ما يبدو، كريمة أيضاً، لا تعترفان بدور أمّي الهامّ في هذه القصّة. احتجّت دون أن تنبس بكلمة. لم تقلْ: "في نهاية الأمر، أنا التي أنقذت هذه الطفلة من الموت أصلاً. وأنا التي حميتُها من الجوع. ونظّفتُها وحمّمتُها ولففتُها

ببطّانيّة نانا الصغيرة. لولاي لكانت الطفلة المرتجفة والمزرقّة من البرد ميتة الآن". تحرّكت رغبتها الذاتية في أن تكون جزءاً من الموضوع، أو أن يُنسب إليها الفضل في إنقاذ الطفلة، ممّا مكّن كريمة وليلى من تبنّيها، ولكن أمّي وجدت أفكارها تذهب بعيداً عن الطفلة المقدسية إلى تعليق والدها حول رغبة ليلى بأن تكون أمّاً. ممّا حثّها على التّفكّر بعلاقة أختَيْها ببعضهما.

فكّرَتْ كم كانت ليلى أنانيّة لا تفكّر إلا بنفسها! وكم كانت كريمة سخية ومعطاءة! كم كانت ليلى داهيةً ومتلاعبةً! وكم كانت كريمة طيّبة القلب وبسيطة!

قبلت كريمة لسنوات مرافقة شقيقتها الأكبر في رحلاتها جميعها إلى الأردن. وفي حين عرف الجميع نوعاً ما لماذا لم تتزوّج خالتي ليلى، وربّما خمّنوا الأسباب الحقيقية وراء رفضها عروض الزواج جميعها من الأغنياء وغير الأغنياء، لم يكن واضحاً لماذا لم تتزوّج خالتي كريمة.

من خلال مرافقتها ليلى، التي أرادت أن تكون مع أو على مقربة من حبيبتها في الأردن، لم تفوت كريمة فرصة الزواج فقط، بل فوّتت فرصة إنجاب الأطفال أيضاً. وليس هناك أحد يعشق الأطفال ويتوق لإنجابهم مثل خالتي كريمة. نجحت ليلى في جعل الجميع يعتقدون أنها هي التي ضحّت بحياتها من خلال مرافقة كريمة للتدريس في الأردن. ولكن أمّي، مثل كثيرين آخرين في الأسرة، عرفوا أن الأمور كانت غير ذلك تماماً.

كانت كريمة في الواقع هي التي غطّت على ليلى من خلال قبول التدريس في أمكنة نائية صغيرة في الأردن مثل جرش والسلط في منتصف العشرينيات والثّلاثينيّات، ولكن كريمة أصبحت الآن تقارب الأربعين من عمرها، ولذلك كانت فرصها ضئيلة في الزواج والحصول على طفل بيولوجي، لذلك حان الوقت لتردّ ليلى الجميل لكريمة أو أن تكافئها على تضحياتها جميعها. فكّرت أمّي أيضاً في الدوافع الحقيقية وراء حماسة ليلى لزواج أمّي من أبي في بلدة صغيرة كالسلط. في واقع الأمر، كانت ليلى وليس كريمة مَنْ شجّع أبي على الذهاب إلى بيروت للقاء أمّي، وطلب الزواج منها. تساءلت أمّي عمّا إذا كان الأمر بمحض الصدفة أن انتهت هي أيضاً متزوّجة، وتعيش في الأردن، ثمّ في فلسطين لاحقاً، أي في الأماكن والبلدات نفسها التي عاشت فيها عشيقة خالتي ليلى. بحسرة تعجّبت إلى أي مدى كانت شقيقتها ليلى داهية ومخادعة. كما شكّت أيضاً في أن جِدُّو نعمان كان على اطّلاع على كل شيء "إذا كان هذا هو ما تريدينه أنتِ وليلى، فليكن"، كانت أمّي تكرّر في ذهنها كلمات والدها عندما قطعت الخالة ليلى حبل أفكارها قائلة:

"سامية، لا يمكنكِ أن تتخيّلي إلى أي درجة من القسوة والسوء وصل أخواتكِ وإخوتكِ المتزوّجون تجاه هذا الموضوع"، ونظرت ليلى إلى والدها ساعية للحصول على موافقته، "لن تصدِّقي كيف عارضوا وبشراسة فكرة تبنّي شقيقتهم غير المتزوّجة لطفلة؛ قال ناجي الغبي: "كيف

يمكن لامرأة غير متزوّجة أن تتبنّى طفلة؟" لا، بل إنهم أثاروا ضجّة حول اسم الطفلة"!

ارتبكت أمّي، وسألت: "اسمها؟! ما هو الخطأ في اسم نورما؟"

"لا، يا سامية، ماذا دهاكِ، لم يعترضوا على اسمها الأوّل، الذي ورد في أوراق تسجيلها الرسمية، بل أثار أخي حكيم ضجّة حول اسم عائلتها، والذي لم يُذكَر بالطبع في الأوراق، أعني شهادة الميلاد التي جاءت معها".

"أوه، هكذا إذنْ!" انتبهت والدتي للحقيقة المثيرة للاهتمام، فقد جاءت الطفلة مع أوراق رسمية، ولكنها تغاضت عن الموضوع الآن.

"احتجّ أخوكِ حكيم، وقال: سَمُّوها أي شيء، ولكنْ، لا تدعوها تحمل اسم عائلة البارودي، لن تحمل بنت الحرام هذه اسم عائلتي، ولو على جثّتي"، يا لأخيكِ المتغطرس. ذكّرتُه أن اسم عائلة البارودي هو اسمنا جميعاً، وليس حكراً عليه. وفي الأحوال جميعها، فإن الشخص الذي منحنا هذا الاسم لا يزال على قيد الحياة، وهو الذي بارك تبنّي الطفلة، وأعطاها اسمه"، والتفتت إلى جِدُّو نعمان، "هدّدتْه أيضاً بأن أطرده من هذا المنزل إذا تجرّأ، هو أو أي شخص آخر على التّلفّظ بهذا الوصف تجاه الطفلة". نظرت أمّي إلى والدها، تراقب ردود فعله على كل ما قالت.

وعلى الرغم من حبّ أمّي لأختها الكبرى ليلى وموافقتها على كل ما تقول، إلا أنها لم تستسغ سيطرة ليلى المطلقة على أفراد العائلة جميعها.

قال جِدُّو نعمان: "الله أعلم، ربّما تكون عائلة نورما في القدس أكثر ثراء ونفوذاً من عائلتنا"، ثمّ ابتسم كَمَنْ يعرف شيئاً لا يريد أن يبوح به. أرادت أمّي أن تُوقِف ليلى سيل كلماتها، لتعطي والدها فرصة التّوسّع أكثر في هذه النقطة الهامّة إلا أن ليلى واصلت كلامها:

"لا أعرف ما الذي دها رؤوس رجال عائلة البارودي هؤلاء! حدث هذا مع أخوات أبي أيضاً، فقد تصرّفنَ جميعاً مثل الذئاب، بما في ذلك الأغنام الوديعة منهم. صدِّقيني لولا دعم أبي، لكان من المستحيل علينا، يا سامية، أن نقوم بذلك، مستحيل". وكرّرت ليلى: "بالطبع، لا يمكن لأحد منهم أن يقول كلمة في وجه أبي، أو في وجهي، ولكنْ، ما زالوا يتكلّمون وراء ظهورنا. يا لكريمة المسكينة! لقد خرّبوا عليها فرحتها. أنا واثقة بأننا لم ننتهِ بعد من كلامهم وأعمالهم العدائية. لم ينتهِ السوء الذي يمكن أن يسبّبوه، بل هناك المزيد في المستقبل". كانت ليلى لا تزال مستغرقة في الحديث عن الاعتراضات العائلية والقسوة التي مورست على قصّة التّبنّي عندما خرجت فاطمة من المطبخ تحمل جولة أخرى من القهوة، الجولة الرابعة. وظهرت كريمة بعد فترة وجيزة من جناحها تحمل نورما على صدرها. لم تستطع أمّي سوى أن تبتسم عندما رأت الأمّ المثيرة للجدل والطفلة متشبّثتان ببعضهما.

"أوه، هذا جميل، يا كريمة، لا بدّ أن أعترف أنني لم أفكّر فيكِ أو أتخيّلكِ يوماً أمّاً تحملين طفلاً. هذا جميل جدّاً"، وتلألأت عينا أمّي الرماديَّتان الخضراوان وهي تقف وتقترب من وجه الطفلة. ردّت لها كريمة الابتسامة مجدّداً، بينما ضحكت نورما الصغيرة، ودفعت ساقَيْها النحيلَتَيْن على صدر أمّها. ربّتت أمّي على مؤخّرة الطفلة البارزة.

ضحك الثلاث، وقهقهنَ.

"وَلَوْ، يا سامية، لماذا فوجئتِ؟ إذا كان هناك شخص يهتمّ أو يحبّ الأطفال من أعماق قلبة، فهو كريمة!" كانت ليلى لا تزال تمارس دور محامي الدفاع عن كريمة. لم تحبّ أمّي أسلوب التّبجّح والادّعاء هذا.

ولكنْ، رغم انزعاجها من تعليق ليلى، واصلت اللعب مع الأمّ والطفلة. قالت أمّي لنفسها: "أنا أيضاً أحببتُ هذه الطفلة لحظة رأيتُها في القدس".

انسحبت أمّي لتلبية احتياجات ابنتيها مروة ونانا اللّتَيْن كانتا قد استيقظتا منذ فترة وجيزة.

أدركت أمّي أنه من الآن فصاعداً لن تتمكّن شقيقتها كريمة من رعاية نانا ومروة كما فعلت قبل أن تصبح أمّاً لنورما. وعلى العكس من كريمة، اضطرّت أمّي لأن تكون "الأمّ" التي لم ترغب أو تهتمّ يوماً أن تكون.

لاحقاً في هذا اليوم

لم تتحْ لأمّي والخالة كريمة فرصة الجلوس والتّحدّث إلا بعد وقت متأخّر من صباح هذا اليوم. جلستا في الفناء تتمتّعان بالنسيم العليل وهما تحتسيان كوبَيْن من عصير الليمون الطازج.كانت الخالة كريمة متشوّقة لإخبار أمّي بالقصّة بأكملها، كونها لم تعلم ما أخبرها به كل من الخالة ليلى وجِدُّو نعمان من قصّة نورما. كرّرت بعض القصص، وروت أيضاً قصصاً إضافية حول ردود فعل الأقارب والأصدقاء. كما روت تفاصيل قصّة فاطمة وابنها محمّد البالغ من العمر سنة واحدة.

ولأن خالتي كريمة كانت قد اكتشفتْ مبكّراً مهارة فاطمة في التّنصّت، اقتربتْ من أمّي وهمستْ في أذنها:

"لن تصدِّقي كم تغار تلك الخادمة النمرودة من صغيرتي نورما. بل كم هي خطيرة أيضاً".

"خطيرة!" فزعت والدتي ممّا قالتْه كريمة بخفّة وبلامبالاة.

لم تكن أمّي بالطبع بحاجة إلى سبب إضافي لكره فاطمة وانتقادها لقسوتها في التعامل في اليوم السابق.

لذا طالبت بالمزيد من التفاصيل "فاطمة سيّئة! نعم، أستطيع أن أرى ذلك، ولكنها تغار من نورما! لماذا؟ ما شأنها بهذا؟ لديها طفل، فلماذا تغار من نورما، إذنْ؟ هل أرادت أن تحظى بطفلة بدل الطفل مثلاً؟" سألت أمّي ساخرة على الرغم من أنها تعرف جيّداً أنه لا أحد في عالمنا، بمَنْ في ذلك أمّي نفسها، يفضّل الابنة على الابن.

"لم تستسغ فاطمة يوماً حقيقة أن نورما، التي تعدّها "بنت حرام" أو "طفلة الخطيئة"، أصبحت ابنتي، وفرداً من عائلة البارودي، بينما ابنها محمّد، الذي جاء نتاج زواج قانوني، مهما كان هذا الزواج تعساً يُعدّ ويُعامَل على أنه ابن خادمة". أضافت الخالة كريمة: "قالت لي مرّة.. هذا ليس عدلاً". لم تتمكّن والدتي من ضبط نفسها، فخرجت الكلمات من فمها كالطلق: "قولي لتلك العاهرة أن تخرس! عليها أن تلزم حدودها، وإلا ستتحكّم بنا جميعا خلال فترة قصيرة".

"ششش، سامية! بالله عليكِ، لا ترفعي صوتكِ، ستسمعنا".

همست والدتي: "اسمعي، يا كريمة، لم أحبّ تلك الخادمة منذ أن وقعت عيناي عليها"، اشتكت والدتي مجدّداً بشأن الخادمة.

"أنا في حَيْرة من أمري، لا أعرف ماذا ينبغي أن أقول؟ إنها لاذعة، حاقدة. وأخشى أن تقوم في النهاية بإيذاء طفلتي.. كيف؟ لا أعلم! لكنني أشعر بهذا، وأخاف منه"، سكتت كريمة لحظة، ثمّ أضافت: "مسكينة هي هذه الفتاة، فقد عاشت حياة صعبة قبل أن تأتي إلى هنا. أنا واثقة أنكِ ستتعاطفين معها عندما تسمعين قصّتها، فستعرفين كيف كانت حياتها من قبل ومن أين أتت"، كانت لهجة كريمة دفاعية قليلاً وهي تتحدّث عن الخادمة: "وكم هو رائع وجذّاب ابنها محمّد، سترينه مرّة أخرى هذا المساء".

قالت أمّي لنفسها.. هذا ما دأبت عليه كريمة، حتّى عندما تشتكي من فاطمة اللاذعة والحقود تنتهي بالدفاع عنها، قد لا تكون على قدر كبير من الذكاء، ولكنها تبقى بسيطة وطيّبة. فكّرت أمّي قليلاً، ثمّ قالت لكريمة:

"لا أعرف ماذا عليّ أن أقول لكِ، يا أختي، قلبكِ أبيض، قلبكِ ذهب ٢٤ قيراط".

أجابت كريمة يملؤها ذلك الشعور بالتعاطف: "لا يمكنكِ أن تتخيّلي إلى أي مدى تُقطِّع قصّتها القلب، انتظري حتّى تسمعيها".

عندما سمعت أمّي خالتي كريمة تسرد حكاية فاطمة، شكّت في أن تكون أختها طيّبة القلب والأشبه بالملائكة قادرة على حماية طفلتها نورما من شرّ تلك الخادمة البائسة.

ولمرّة واحدة فقط، أثبت الزمن أن أمّي كانت على حقّ.

الفصل الحادي عشر

فاطمة، حوران، أيّار 1946

"لعنة الله عليكِ، يا فاطمة، سأناديكِ للمرّة الأخيرة قبل أن آتي وأسحبكِ من ضفيرتَيْكِ السميكَتَيْن كعقلكِ. هل سمعتِني؟"، تعالى الصراخ على نحو هستيري.

أدارت فاطمة جسدها الصغير، وتظاهرت بعدم سماع صرخات أمّها المدوّية كالرعد المشعشعة بغضب، وكالبرق الذي يشقّ الغيوم الكثيفة في سماء سهول حوران. ملأت رياح خماسين شهر أيّار الهواء بالغبار البركاني الذي كاد

يخفي الظلال المتقافزة للفتيات الثلاث. كان المشهد أشبه بحلم: سحابة الغبار الناعم تتطاير مع كل قفزة. وعندما تستقرّ، كانت قَدَمَا فاطمة المتشقّقتان والأحذية السود اللامعة لابنَتَي عمّها، تختفي تحت غلالة رقيقة.

تابعت فاطمة التي تبلغ من العمر عشر سنوات القفز على ساق واحد من منتصف مربّع إلى آخر بينما تسارعت نبضات قلبها، وازداد تصميمها وعنادها عن المعتاد.

لكي تزيد من فرص فوزها، كانت فاطمة أوّل مَن يلتقط حجراً أو عصاً، لتُعلِّم على الأرض البازلتية الرمادية مربّعات اللعب الثمانية. بالغت فاطمة في حجم المربّعات، ليتناسب مع حجمها هي، وممّا يصعّب القفز على مريم البالغة من العمر تسع سنوات، وعلى سحر البالغة من العمر سبع سنوات.

مريم وسحر ابنتا أحمد، عمّ فاطمة الثّريّ.

آملة بالفوز على بنات عمّها بهذه اللعبة بالذات، تابعت فاطمة اللعب، على الرغم من صرخات والدتها المليئة بالوعيد، وعلى الرغم من توقّع وصول الضيوف في أي لحظة الآن. بعد أن كانت قد تنصّتت على همهمات جَدّتها قبل أيّام، شعرت فاطمة بأنها ستكون المرّة الأخيرة التي سيُسمح لها باللعب في الشارع.

وهذا ما كان بالفعل.

كان فوزها بهذه الجولة من لعبة الـ إكس، أو السبع حجار أو أي لعبة أخرى، هي الطريقة الوحيدة التي تُمكِّن فاطمة

من إثبات تفوّقها وتميّزها على ابنَتَي عمّها الغنيّ، وخاصّة مريم. فكثيراً ما انتقمت فاطمة الغاضبة والمستاءة من عمّها أحمد بالإساءة إلى ابنَتَيْه البريئَتَيْن.

"جشع أحمد جعله يستولي على كل ما تركه والدنا لنا، المال، والأرض، والممتلكات. بل أخذ بيت العائلة الكبير، ولم يتبقّ لنا أي شيء، أي شيء على الإطلاق"، ترعرعت فاطمة مع الإحساس بانعدام الأمان من خلال هذه الشكاوى التي كانت تتكرّر يومياً مرّة على لسان جَدّتها القاسية صِبْحِيّة، ومرّة على لسان والدها الغاضب المتذمّر عليّ.

رغم أن أباها عليّ كان واحداً من تسعة أشقّاء، ثلاثة أشقّاء وستّ شقيقات، فإن كلمة "لنا" في هذا السياق تشير إليه حصراً، وإلى والدته التي كانت تعيش معه، وزوجته وأطفاله السّتّة. عاش أحمد الغنيّ في بيت العائلة الكبير الذي بُني من حجر حوران البازلتي الصلب، في حين حُشر كل من عليّ ووالدته وزوجته فريدة، وفاطمة وأخوتها الخمس في ثلاث غرف صغيرة حول فناء بيت الأسرة الكبير. وعاش إبراهيم، شقيق عليّ الأصغر وحده في غرفة مجاورة. اختارت والدة عليّ العيش معه ومع عائلته رغم ضيق الغرف، وذلك بسبب كرهها زوجة أحمد. اتّخذ الانتقام، بسبب الميراث والخلافات العائلية التي لا تنتهي، أشكالاً وصوراً متنوّعة، في أماكن مختلفة، وعلى مستويات متعدّدة. وما كان فوز فاطمة على ابنَتَي عمّها أحمد في لعبة الـ إكس اليوم إلا نوعاً من أنواع الانتقام.

أكثر ما أزعج فاطمة وأوجع قلبها رؤية ابنة عمّها مريم تذهب إلى المدرسة في حين تلازم هي البيت، لتساعد أمّها وجَدّتها في الأعمال المنزلية الشّاقّة التي لا تنتهي. لم يتمكّن عليّ من إرسال أيٍّ من أبنائه الخمسة إلى المدرسة بسبب فاقته، ناهيكَ عن إرسال ابنته. كانت فاطمة مثل والدها تكاد تموت من الغيظ من الثروة، النسبية طبعاً، لعمّها أحمد الذي لم يحرّك ساكناً لمساعدة أخيه الأصغر أو أي من أطفاله. وكثيراً ما سمعت فاطمة والدها يتباهى قائلاً: "بسبب جشعه، عاقبه الله، ورزقه ستّ فتيات، ولم يرزقه ابناً ذكراً واحداً، إنه يستحقّ هذا بكل تأكيد. لا أبدّل أي ولد من أبنائي بكل ذهبه أو ذهب الآخرين". لكنها عرفت جيّداً أن هذا لا ينطبق بالطبع عليها هي البنت رغم كونها ابنته الوحيدة. كانت عينا فاطمة السوداوان تغرورقان كلّما رأت بنات عمّها، وخاصة مريم، يحملنَ حقائبهنّ في طريقهنّ إلى المدرسة، مرتديات ملابس نظيفة وقد مشّطنَ شعورهنّ بأناقة. كان هذا يحدث صباح كل يوم من أيّام الأسبوع، باستثناء الجمعة.

في حين تجمّع رجال القرية لأداء صلاة الجمعة في باحة مسجدهم الصغير، كانت النساء، الكبيرات منهنّ والصغيرات يتراكضنَ بين مطابخهنّ والحوش المشترك استعداداً لتناوُل غداء يوم الجمعة العائلي. وما إن تجمّع أفراد العائلة الممتدّة في بيت العمّ أحمد، "الذي هو بيتنا أيضاً"، كما كان يؤكّد والد فاطمة على الدوام، حتّى بدأ أحمد يتباهى بابنته الأصغر:

"مريم، حبيبتي، لماذا لا تجلبين كتاب اللغة العربية، وترينهم براعتكِ في القراءة والكتابة"؟

ولطالما سمعت فاطمة احتجاج أبيها المتهكّم: "قد يتفهّم المرء هذا التّبجّح، لو كان ذلك متعلّقاً بابنه الوحيد، لكن التفاخر بقدرة واحدة من بناتة السّتّ على القراءة هذا أمر أكثر من سخيف، بالنسبة إليّ ولكثيرين من حولي". كان عليّ يقول قوله هذا وينظر من حوله مستجدياً التأييد. وكانت فاطمة متّفقة تماماً مع والدها. لم يكن لدى فاطمة أدنى شكّ في أن الهدف الرئيس للمفاخرة بالكتابة هو إغاظتها وتعذيبها. فعبارة "ترينهم" التي يتمّ التأكيد عليها تعني شيئاً واحداً: "لماذا لا تُرين فاطمة؟" أو على نحو أكثر دقّة: "لماذا لا تغيظين فاطمة بأن تُظهِري لها مدى قدرتكِ على القراءة والكتابة". كانت مريم في أثناء التحضير لوليمة الجمعة الكبيرة مشغولة بأدائها الأسبوعي "لمسرحية" أو "استعراض" يوم الجمعة، كما كانت تحبّ فاطمة أن تسمّيه.

ولو تسنّى لوالد مريم أن تستعرض ابنته قدراتها في المدرّج الروماني القريب والمسمّى بطبقة فحل لفعل ذلك. وقفت مريم تحت شجرة الجوز الضخمة في وسط فناء البيت، وأدّت عرضها أو "استعرضت مهاراتها". كان وجهها مختفياً وراء كتابها، وجسدها ورأسها يتمايلان بإيقاع واحد، وأخذت تقرأ على نحو رتيب جملها القصيرة بصوت عال:

"ضرب المعلّمُ الصبيَّ الكسولَ. كلّ الأمّهات يحببنَ أبناءهنّ. علينا جميعاً أن ندافع عن بلدنا الحبيب سوريا. دمشق الجميلة والخضراء هي عاصمة سوريا. عاشت فلسطين. عاشت فلسطين حرّة عربية".

كان والد مريم ووالد فاطمة الشخصَيْن الوحيدَيْن، من بين المتفرّجين المتهامسين والمثرثرين، اللذَيْن ركّزا على قراءة مريم، واحد بدافع الحبّ والآخر بدافع الغَيْرة. لم تكن فاطمة تكترث بمضمون ما قرأتْه مريم: مَنْ يحبّ مَنْ، ومَنْ يضرب مَنْ، أو مَنْ يدافع عن سوريا. إذ لم يكن لديها أي فكرة أين تقع دمشق أو فلسطين.

لم يكتفِ أحمد بهذا الحدّ، بل أضاف، بعد أن صفّق لابنته طويلاً: "لماذا لا تقرئين لهم درسكِ الأخير عن حوران؟" قلبت مريم، المستعدّة دائماً، صفحات كتابها الكبير، وقرأت بشغف: "تقع منطقة حوران على بُعد مئة وأربعين كيلومتراً جنوب دمشق. إن تربتها البركانية جعلتها واحدة من أخصب المناطق في سوريا. كانت حقول الحبوب في مدينة بصرى القديمة تُطعم الإمبراطورية الرومانية". لم تكن فاطمة قادرة على تمالك نفسها لفترة طويلة، وأخذت تهمس لمَنْ حولها: " هذه أكاذيب كلها، نعم، مجرّد أكاذيب. أنا على يقين تامّ من أن مريم غير قادرة على القراءة. لا يمكنني أن أستوعب كيف يمكن أن يكون هذا المكان المنكوب بالفقر المنطقة الأغنى في سوريا؟ كيف يمكن لهذه الحقول نفسها أن تُطعم الإمبراطورية الرومانية بأكملها بينما لا تستطيع اليوم إطعام عائلتنا؟ إلا إذا كانت

الإمبراطورية الرومانية أصغر من عائلتنا، إمّا أن يكون الرومان كاذبين محتالين أو أن تكون مريم كاذبة محترفة، وأنا أرجّح الاحتمال الأخير". ما أثار غضب فاطمة، وألهب غَيْرتها هو الاهتمام المبالغ به الذي تحظى به مريم في كل يوم جمعة، لذا لجأت إلى الابتزاز والتخريب.

في أحد أيّام الجمعة، عندما كان أفراد الأسرة الممتدّة مجتمعين لتناوُل وليمتهم الجماعية، تسلّلت فاطمة إلى منزل عمّها أحمد، ثمّ إلى غرفة مريم. ومن دون أن يراها أحد، التقطت كتاب مريم الشهير، وخبّأتْه بين الطبقات الكثيرة لملابسها، وغادرت المكان بهدوء. بكتْ مريم ساعات طويلة مفتقدة كتابها وكل ما يرافقه من اهتمام يوم الجمعة. ليس فقط لأنها عرفت تماماً مَنْ أخفى كتابها، وفوّت عليها عرضها الأسبوعي، بل لأنها أيضاً خشيت توبيخ معلّمتها في اليوم التالي. كانت السّتّ علياء، المعلّمة الوحيدة في مدرسة القرية، مشهورة بتِقْنِيّاتها العقابية المبتكَرة. أرضى هذا فاطمة، وأشفى غليلها، بل أمتعها.

لم يكن لعصيانها وتجاهلها لصرخات أمّها وتهديداتها اليوم أي علاقة بكتاب مريم المفقود. كانت فاطمة قد اكتشفت أن شيئاً سيّئاً على وشك أن يحدث لها. كان والدها قد أبرم صفقة مع عبد، من أجل إنقاذ حياة شقيقها المريض ناصر.

ليلة زفاف فاطمة

الصفقة

رغم أن جَدّة فاطمة كانت قد حذّرت من أن "كل تفصيلة من تفاصيل عقد الزواج ذات قيمة وأهمّيّة"، إلا أن اهتمام والد فاطمة انصبّ فقط على مهر ابنته، وبالأخصّ على "المقدّم" أو "المعجّل" من المهر. تحوّلت هذه الدفعة في ذهنه إلى دفعة مقدَّمة لعلاج ابنه الأكبر ناصر. وبعد أن ضمن تلك الدفعة، ترك التفاصيل الأخرى كلها المتعلّقة بحفل الزفاف التقليدي الذي يمتدّ ثلاثة أيّام: التلبيسة، الجهاز، والخلعة، والذهب، والمجوهرات، وفستان الزفاف المطرّز، وبقية ملابس العروس لوالدته الخبيرة، وزوجته العنيدة، وشقيقه الطّيّب الصبور إبراهيم.

توصّل الرجلان، والد فاطمة وزوجها المستقبليّ عبد (الذي يجعله سنّه أقرب إلى حماها من زوجها) بعد اجتماعات استمرّت ثلاثة أيّام أخيراً إلى اتّفاق. سيحصل عليّ بالنيابة عن ابنته على عشرة آلاف ليرة سورية كدفعة مقدّمة، وتُترك ألف ليرة سورية فقط كدفعة مؤجّلة أو ما يُعرف بالمتأخّر.

وبما أن للعادات والتقاليد منطقاً خاصّاً بها، فإن تقسيم المهر إلى دفعَتَيْن له منطقه أيضاً. كان من المفترض أن يبلغ المؤجَّل ثلاثة أو أربعة أضعاف المعجَّل، ليصبح تطليق الزوج لزوجته أصعب. كما يُعدّ المؤجّل أيضاً ضماناً مالياً للزوجة المطلقة ولأطفالها، خاصّة وأن نفقة الزوجة المطلّقة وأولادها كانت لا تزال في حدّها الأدنى. غير أن حيثيات هذا الزواج: الأب المنكوب بالفقر، والابن المريض بمرض خطير، والعروس التي تبلغ من العمر

عشر سنوات، مقابل عريس غنيّ، يبلغ من العمر أربعين عاماً مع زوجَتَيْن وعدد وفير من الأطفال، عكست نفسها على تقسيمة المهر، وزادت من قيمة المعجّل.

"كيف تحبّ قهوتكَ؟"

سأل والد فاطمة معلناً انتهاء المفاوضات الصعبة والمرهقة مع صهره المستقبلي عبد. نهض عليّ من على واحدة من المراتب العديدة التي وُضعت تحت شجرة الجوز الكبيرة في وسط فناء الأسرة. البقعة الكريهة لدى فاطمة.

"قهوة حلوة بحلاوة هذه المناسبة الرائعة" أجاب عبد بوجه مبتهج غير مصدِّق أنه حصل على فاطمة أخيراً. كشفت ابتسامته العريضة عن أسنانه الذهبية الثّلاثة، وباقي أسنانه الصفراء المدبوغة بلون قطران السجائر، وجعلت عيناه الصغيرتان تختفيان خلف أنفه الضخم.

بصراحة، وكما يقول القرويون في بلدته، لم يكن هناك أي شيء جذّاب في هذا "الوحش القبيح" هذا إذا افترضنا أن هناك وحوشاً جميلة. هذا صحيح، لم يكن هناك أي شيء جذّاب في عبد. وكما قال الفلاحون من قريته في كثير من الأحيان "الله بيعطي الجوز للّي ما له سنان". ادّعى عبد محاولاً توضيح مصدر ثروته المفاجئة أنه ربح بطاقة يانصيب خلال غيابه الذي استمرّ عامَيْن في بوغوتا، في حين انتشرت شائعات تقول إنه سرق محلّ مجوهرات وهرب. بل إن البعض أقسم أن عبد لم يذهب أبعد من سوق الذهب في حلب.

وقف عبد مفعماً بالطاقة والحماسة بقامته الطويلة، ولف عباءته البنّيّة حول جسده المتين، ومدّ ذارعه الفلاحية القوية باتّجاه والد فاطمة. تصافح الرجلان بحرارة، ثمّ تعانقا. كانت ابتسامة عبد تملأ وجهه العريض في حين كانت عينا عليّ السوداوان الواسعتان مغرورقَتَيْن.

"دموع السعادة والأمل"!

"الله أعلم!" تنهّد عليّ قبل أن ينادي زوجته:

"فريدة، لماذا لا تذهبين وتحضرين لنا القهوة"؟

"حالاً!" ردّت فريدة مباشرة وهي تخرج مسرعة من باب مطبخها إلى الفناء، حيث كان الرجلان يتفاوضان ساعات طويلة. طمأنت الابتسامة الخفيفة على وجهها زوجها بأن الصفقة، التي أبرمها للتّوّ مع العريس، لم تكن بهذا السُّوء. كان عليّ يدرك بالطبع أن زوجته كانت خلال فترة المقايضة في مطبخها الصغير مادّة عنقها لسماع كل ما يقال. فعلت هذا اليوم. وفعلته بالأمس وأوّل أمس أيضاً.

عاد الرجلان للجلوس بانتظار قهوة المباركة، أو بالأحرى تمدّدا، ليُريحا ظهرَيْهما المنهَكَيْن وجسدَيْهما المتيبّسَيْن على بعض الوسائد.

تركت فريدة غلاية القهوة على النار لمعرفتها أنه ما من غلاية تغلي عندما يراقبها صاحبها، وركضت إلى الفناء الخلفي، لتحمل آخر الأخبار لوالدة عليّ:

"مرة عمّي، مرة عمّي، عليّ طلب منّي أن أحضر لهما القهوة".

"ما المبلغ الذي اتّفقا عليه؟" سألت والدة عليّ وقد نفد صبرها.

"سنعرف قريباً". لم تفض فريدة بأي معلومة رغم اطّلاعها على التفاصيل المتعلّقة بالمهر كلها. مثل أي كنّة عاقلة،

كانت تخشى ردود فعل حماتها، وخاصّة النقاشات البيزنطية حول تفاصيل هذه الصفقة. ولكي تحافظ على مكانتها كامرأة مسنّة أو ككبيرة عائلتها، كانت أمّ عليّ تتظاهر بأنها صعبة الإرضاء أو ربّما كانت ببساطة كباقي الحموات صعبة لا تُطاق.

مثل بقية أفراد عائلة عليّ وأفراد عائلتها لم تكن هذه العجوز راضية عن هذا الزواج. أدركت كما أدركوا جميعاً أن الثمن لعدم إتمام هذه الصفقة قد يكون موت ناصر، حفيدها الأوّل ومعبودها وحبيب قلبها.

قبل بضعة أسابيع فقط عاد ناصر الدمث طيّب القلب من عمله في الحقل أبكر من موعده المعتاد، خائر القوى. اشتكى الفتى البالغ من العمر سبعة عشر عاماً من صداع قوي. أبقى التّعرّق الشديد والرجفة التي هزّت بدنه وبدن أمّه كلاً من ناصر وفريدة مستيقظَيْن طوال الليل. استمرّت أنّات ناصر وصرخاته حتّى الصباح الباكر عندما نُقل إلى درعا عاصمة منطقة حوران إلى عيادة الطبيب جمال الذي أجرى فحصه الطّبّيّ المعتاد "افتح فمكَ، قل آ آ آ، اخلع قميصكَ، خذْ نَفَساً عميقاً، احبسْ نفسَكَ، تنفَّسْ مرّة أخرى، خذْ نَفَساً عميقاً. كل شيء على ما يرام، والآن ارتدِ قميصكَ مجدّداً" ابتسم الدكتور جمال، وعاد ليجلس خلف مكتبه المتّسخ الخالي من الكُتُب والأوراق، وأنهى حديثة ممازحاً أهل المريض:"لا داعي للقلق، إنها إنفلونزا بسيطة، ستذهب خلال سبعة أيّام، إذا تناول ابنكم المضادّات الحيوية، أو خلال أسبوع، إذا لم يتناول ابنكم المضادّات

الحيوية" وكان هو الوحيد الذي ضحك على النكتة التي لم ينتبه إليها أو يفهمها أهل المريض المهمومون.

ولكونهم والدَيْن حريصَيْن ومحبَّيْن، اختار عليّ وفريدة وصفة المضادّات الحيوية. وعلى الرغم من ذلك، استمرّ فقدان الشهية، وفقدان الكثير من الوزن والسعال الرهيب لأكثر من ثلاثة أسابيع. لم يدرك الطبيب المستخفّ ولا العائلة أن الشّابّ المسكين مصاب بالسّلّ سوى عندما بدأ يسعل دماً. لم يكن أمام ناصر بحلول ذلك الوقت سوى القليل من الفرص للبقاء على قيد الحياة، ما لم يتمّ نقله إلى مستشفى متخصّص في دمشق. ولكن كثيرين من أهالي القرية اعتقدوا أن ناصر، مثل الشباب الوسيمين كلهم قد أصابته عين الحسود. خطّت العديد من الفتيات المعجبات في القرية آيات قرآنية في حُجُب وتمائم لحماية الشّابّ الوسيم، أدخلتها فاطمة ووالدتها فريدة إلى الكارنتينا، حيث عُزل ناصر، وفُرض عليه الحجر الصّحّيّ.

قرّرت الجَدّة التي لا تملك هي ولا ابنها عليّ المال الكافي لعلاج ناصر في دمشق، أن تكسر العهد الذي كانت قد قطعتْه على نفسها بألا تكلّم ابنها الأكبر أحمد، كانت تعاقبه لأنه استولى على ممتلكات العائلة جميعها، كانت قد تبرّأت منه، وغيّرت كنيتها من أمّ أحمد إلى أمّ عليّ، وغادرت البيت الكبير الذي عاشت فيه طوال حياتها الزوجية، وذهبت لتعيش مع ابنَيْها الأصغر سنّاً. لم يكن حنثها باليمين الذي وفت به طيلة عشر سنوات سهلاً على الإطلاق،

ولكن فقدان حفيدها ناصر سيكون بالتأكيد نهايتها ونهاية الأسرة بأكملها.

"أليس من الحماقة أن ننفق هذه الأموال كلها ونحن على يقين من أن الصبي لن ينجو من هذا المرض الفتّاك؟" كان هذا ردّ ابنها البكر أحمد عندما توسّلت إليه للمساعدة.

كانت هذه اللحظة الحاسمة التي تقدّم فيها عبد، الماكر، بعرضه الذي لا يُقاوَم "لصديقه" عليّ.

"ماذا أقول لكِ، يا أمّي؟ أنا سعيد وحزين في الوقت نفسه" قال عليّ بصوت مرتجف لوالدته وهو يُطلعها على تفاصيل الصفقة التي أبرمها للتّوّ مع العريس عبد. جلس بجانب أمّه على الطّرّاحة نفسها. وأخذ يغمس الخبز في طبق فتة البندورة والبصل الموضوعة على الأرض أمامهما.

ردّت والدته وهي تمسح دموعها المنسابة على خَدَّيْها، لتمنعها من الاختلاط بصلصلة البندورة المالحة أصلاً:

"لا حاجة للشرح، يا بني، كما يقول المثل: الجوع كافر".

لم ينم أحد تلك الليلة.

أمضت فاطمة الليلة بأكملها، تتلوّى وتتقلّب على السرير بجانب جَدّتها. ولا ترى سوى الظلم والظلام بعينَيْها السوداوَيْن المحدّقَتَيْن في عتمة الغرفة. سمعت الأخبار السّيّئة مرّتَيْن: مرّة عندما كانت والدتها تُحضّر القهوة لعبد، ومرّة أخرى قبل بضعة أيّام عندما اعترضت جَدّتها بشدّة:

"هذا نصف أو حتّى ربع مهر بنات القرية اليوم؟ كان مهر ابنة عمّها نجلا ضعف هذا المهر، ومهر ابنة الجيران ثلاثة أمثال. هذه جريمة! إنها في العاشرة من عمرها فقط، وهو قد تجاوز الأربعين، ولديه زوجتان وجيش من الأولاد. عليه أن يدفع ضعف هذا المهر على الأقلّ، ولو بسبب صغر سنّها فقط. لا أحد من بنات اليوم يتزوّج قبل سنّ العشرين!"

"ماذا نستطيع أن نفعل؟ أخبريني أنتِ. هل نترك ناصر يموت؟" سألت فريدة بحسرة والدموع تنساب بغزارة من عينَيْها.

"قطع الله لسانكَ! لا سمح الله!".

"إذنْ؟"

"إذنْ؟ لا أعرف. اقترضوا المال لعلاج ناصر، ولا تبيعوا الطفلة المسكينة إلى ذلك البغل الذي بعمر جَدّها". كانت الحماة تحتجّ بنبرة، كما لو أنها لم تكن مَنْ توسّل لاقتراض المال من ابنها البكْر أحمد، وفشل.

توسّلت فاطمة إلى أمّها إلى أن تُنقذها من هذا الزواج.

ولأنها كانت تدرك مكمن النفوذ الحقيقي في هذه العائلة، ركعت وقبّلت قَدَمَي جَدّتها، وتوسّلت إليها: "أرجوكِ، يا جَدّتي، أتوسّل إليكِ، لا تدعيهم يفعلون هذا بي"، وغرقت فاطمة في البكاء، ثمّ تعانقتا باكيَتَيْن طويلاً. وعدَتْها الجَدّة: "سأتحدّث مع والدكِ في هذا حالما يعود من دمشق".

وعندما عاد ابنها عليّ بعد أسبوع من دمشق، قبل ليلة واحدة فقط من زواج ابنته، حاولت جَدّة فاطمة أن تحدّثه كما وعدت، ولكنْ، دون جدوى.

في تلك الليلة، كان عليّ، الأب، هو مَنْ بكى بصوت عال.

عرس عبد الثالث

"الزواج، إنجاب طفل ذكر، وبناء منزل، أسعد شيء في حياة المرء"، هكذا يقولون.

كان هذا حفل زفاف عبد الثالث في أقلّ من عقد من الزمن. عن سابق إصرار وتعمّد، كان كل حفل زواج له أكثر احتفالية وصخباً من العرس الذي سبقه. غير أن هذه المناسبة حطّمت الكثير من القلوب بدلاً من أن تُسعدها. كانت الاحتفالات المبالغ بها نكاية، ليس فقط بزوجَتَيْه الأولى والثانية، وأولاده الكُثُر من الزواج الأوّل والثاني، والمجموعة الأولى والثانية من أنسبائه، بل نكاية وشماتة أيضاً بأعداء عبد، وهم كُثُر.

احتفالات الزواج كالجنازات. غالباً ما تُطلِق عنان الشرّ والثرثرات والإشاعات. بالإضافة إلى ذكره بالسوء مع كل عقد قران جديد، أثار زواجه الثالث من فاطمة الغَيْرة والحسد والكراهية. فعلى غرار القرى السورية الأخرى، كان في قرية دير توما ثلاث حمولات رئيسة ذات حجم وثروة ومكانة اجتماعية مختلفة.

كانت حمولة بني حسن أكثرها غنى، وذلك لأنها ملكت معظم أراضي القرية الخصبة. ولأنها الحمولة الأكبر

عدداً، كان شيخ القرية أو "المختار" دائماً من بني حسن. وعلى عكس الحمولَتَيْن الأخريَيْن، حمولة الفاهوم وصبري، لم تكن نساء بني حسن يعملنَ في الحقول، ولم يتزوّجنَ من خارج حمولتهنّ سوى من العائلات الغنية من قرى أو بلدات أخرى. كان عليّ، والد فاطمة، من حمولة الفاهوم، وكانوا يملكون القليل من الأرض بينما لم تمتلك حمولة صبري التي انحدر منها عبد أية أراض. لذلك غالباً ما كان رجال ونساء حمولة صبري عمالاً وفلاحين لدى حمولة بني حسن، وحتّى الفاهوم. وبما أن حمولة صبري جاءت إلى دير توما قبل أربعمئة عام فقط، كما يقول القرويون، فقد كانوا يُوصَفون، في أحسن الأحوال، بـ "الغرباء"، وفي أحيان أخرى، "الغربان" لما يعتقده الآخرون من شؤمهم.

وكلّما وقع خصام أو اقتتال بينهم وبين أي حمولة أخرى، كانوا يطلقون عليهم اسم الطبنجية، في إشارة إلى حادثة وقعت قبل عقود مضت عندما ضبط رجل كبير السّنّ من حمولة صبري مختلياً بصبي صغير. أمّا اليوم وعشية زواج عبد الثالث من فتاة صغيرة أخرى، فقد كانت العشيرة على وشك أن تكتسب لقباً جديداً وهو عشّاق الفتيات القواصر، الطريقة المهذّبة للقول إنهم يعانون من مرض اشتهاء الأطفال النفسي.

بطريقة أو بأخرى تمكّن عبد من أن يقتنص "فرصة استثمارية" جديدة، أو بالأصحّ أن يستغلّ محن أهل بلده ومصائبهم. سوء الحظّ كان الطريقة التي استطاع عبد من

خلالها الاستيلاء على الأراضي والمنازل والمحلات التجارية والخيول والماشية في القرية. ولطالما ارتبطت عروضه هذه، بما في ذلك عروض الزواج الثلاث، بحادث مؤسف أو بمحنة ما. ولم تكن فاطمة وشقيقها المريض المهدّد بالموت سوى مثال على ذلك.

امتطى ماجد، أحد أصدقاء عبد القلائل، حصاناً، وأخذ يدور في ساحة القرية وحاراتها معلناً عن حفل الزفاف الذي سيستمرّ ثلاثة أيّام:

"يا أهالي دير توما الكرام، ابتداء من مساء غد، ولمدّة ثلاثة أيّام، رجال القرية جميعهم كباراً وصغاراً مَدعوون لساحة البلد لحضور مراسم زفاف أخونا وحبيبنا عبد محمود صبري، على ابنة عليّ فاهوم، سوف تُذبح الذبائح: خمسة خرفان وجملان بانتظاركم في هذه المناسبة السعيدة! أكرّر، يا أهالي دير توما الكرام..".

كان وَقعُ إشهار زواج عبد الثالث من فاطمة البالغة من العمر عشر سنوات كوقع الزلزال المدوّي. اجتاح القرية وباء الثرثرة كما النار في الهشيم. تدفّق سيل من التعليقات والشتائم والصيحات وراء ماجد المسكين وحصانه. كانت الصرخات تتردّد كلّما أطلّت الرؤوس من النوافذ والأبواب، ومن الأزقّة الضيّقة التي يمرّ بها ماجد، كما تدفّقت أيضاً من الساحات الأمامية والخلفية، وأسطح البيوت، والحقول القريبة والبعيدة.

"اللّي بده ذَبِح هو عبد مش الخرفان والجمال".

"عيب عليكم أن تشهروا هالزواج المشين، وتتفاخروا فيه، روحوا استروا حالكم".

"قال سيّدنا محمّد "إذا بُليتم فاستتروا".

"وعلى شو دايرين تنشروا غسيلكم الوسخ في البلد".

"يا عيب الشوم عروس أصغر من ولاده".

"مسكينة مرته الأولى والثانية شو هالمصيبة".

"تستاهل، كل مَنْ يقبل بالزواج من رجل متزوّج بدفع الثمن غالي عاجلاً أم آجلاً".

"هاي العروس الثالثة، وبالتأكيد ما رح تكون الأخيرة"!

"نيّاله على حظّه كل ما يكبر هو بتصغر عروسته".

"هاد مخالف للقانون اللي بقول لازم عمر البنت يكون ١٨ وفوق".

"عن أي قانون بتحكي؟ أكيد بتمزح".

"العار على أبوها وإخوتها اللي باعوها".

"حرام عليك، لو كان ابنك المريض، لكنت عملت هيك وأكثر".

"فشرت عينه، إيش في أكثر من هيك؟! باعوا البنت بتراب المصاري، على كل، الله يخليلي ولادي ويحميهم".

وما إن تسلّم عليّ وفريدة مقدّم مهر ابنتهما فاطمة، حتّى سارعا ونقلا ابنهما ناصر إلى المستشفى في دمشق، تاركَيْن وراءهما المهمّة الصعبة المتمثّلة في إعادة

التفاوض على تفاصيل مراسم الزواج على عاتق شقيق عليّ.. إبراهيم. خضع العريس أخيراً، بعد الكثير من الصدّ والرّدّ، إلى طلب العائلة بضرورة تقليص احتفالات الزفاف المعتادة التي تستمرّ ثلاثة أيّام إلى أُمسيّة واحدة، وذلك لتدهور صحّة ابنهم ناصر، وإلى ردود الأفعال الغاضبة لأهل القرية أيضاً.

وغنيّ عن القول إن أحداثاً كثيرة حصلت خلال اليومَيْن اللذَيْن سبقا ليلة الزفاف:

أخذت شيماء، زوجة عبد الأولى التي ملأها الغضب على زوجها والاشمئزاز من القيل والقال، أولادها الأربعة، وغادرت منزلها إلى منزل أهلها في القرية المجاورة.

صبّت سلمى زوجة عبد الثانية غالوناً من البنزين على نفسها، وأضرمت النار في نفسها مرتدية ثوب زفافها. أنقذها أحد الأقارب، وسارع بها إلى المستشفى، وهي تعاني حروقاً بالغة.

وفي خضمّ هذه الأحداث كلها، اختفت فاطمة زوجة عبد الجديدة.

فقط عندما وصلت نساء حمولة آل صبري الثلاث إلى فناء منزل عائلتها، فهمت فاطمة سبب إصرار والدتها على ارتدائها الفستان المخملي الأحمر بعد ظهر ذلك اليوم. كما أدركت لماذا اشترت لها أمّها، على نحو مفاجئ، ثوباً باهظ الثمن في اليوم نفسه الذي نُقل فيه شقيقها ناصر إلى قسم الطوارئ في مستشفى دمشق. على عكس العادات والتقاليد

المتعارف عليها جميعها، رفض رجال حمولة صبري مرافقة عبد لبيت أهل العروس لطلب يدها، لذا جاءت والدة عبد وشقيقتاه للطلبة.

لو كان الوضع طبيعياً، بمعنى لو لم يخرج أهالي القرية عن طوقهم ويجنّ جنونهم، ولو لم تكن ردود فعلهم درامية لاستمرّت الطقوس والاحتفالات التي تسبق ليلة الدخلة لبضعة أسابيع، وما كانت هذه الطقوس لتُختزَل إلى أُمسيّة واحد فقط.

لو كان الوضع طبيعياً، لكانت الخطوة الأولى هي أن يطلب العريس من أمّه وأخواته زيارة أمّ عروسه وجَدّتها، ولكان هدف الزيارة التّأكّد من جمال العروس وملاءمتها للزواج من ابنهم. وعادة ما يجري هذا الفحص في أيّام الجمعة، يوم الحمّام عندما تكون العروس نظيفة وبرّاقة، وذلك للتّأكّد من جمالها ونضارتها، وليُطلَب منها أن تُقدِّم القهوة بطقوس، هدفها تفقّد شخصيّتها ومهاراتها ومعرفتها لأصول وآداب الضيافة. أمّا الاختبار الثاني الذي كان هدفه واضحاً دون مواربة، فهو أن تقدِّم نساء عائلة صبري للعروس حبّة جوز أو بندق بقشرها، لتقوم بكسرها بأسنانها، ليتأكّدنَ من سلامتها. لحسن الحظّ أو لسوئه، لم تتعرّض فاطمة الصغيرة لهذه الاختبارات كلها. كانت فاطمة لا تزال تلعب لعبة الـ إكس مع ابنة عمّها مريم عندما وصلت نساء حمولة صبري عصر ذلك اليوم.

لو كان زواجاً "عادياً"، لتبعت زيارة النساء جاهة مكوّنة من مجموعة كبيرة من أبرز رجالات حمولة آل صبري، ولتضمّنت والد العريس وأعمامه جميعهم وثلّة من شيوخ عشيرة صبري الموقّرين، ولكان استقبلهم والد العروس وأعمامه أعيان عشيرتها. فبالإضافة إلى إظهار حجم القبيلة ونفوذها، فإن الغرض من الجاهة هو طلب يد فاطمة رسمياً، فبعد تبادُل الثناء، يصوغ الرجال الأكبر سنّاً ومكانة عبارة طويلة وشائكة، تبيّن إلى أي مدى تتشرّف عائلة صبري بأن تكون فاطمة كنّة لها، ويؤكّدون مرّة أخرى تفاهماتهم المسبَّقة على تفاصيل عاجل المهر وآجله.

لو كان الوضع طبيعياً، لكان على والد العروس التظاهر بأنه مفطور القلب ومتردّد بخصوص إرسال ابنته بعيداً، وسيمثّل أيضاً أنه غير راض أيضاً بمهر ابنته. لأنه لا يمكن لأي مبلغ من المال أن يعادل خسارة ابنته لتذهب وتعيش مع أسرة أخرى.

لو كان الوضع طبيعياً، لقرأ رجال العشيرَتَيْن الفاتحة، ولشربوا القهوة الحلوة لتأكيد الاتّفاق المتبادل، ولوقف الجميع مرّة واحدة، بعد شرب القهوة، وخرجوا تاركين للشيخ وممثّلي العائلَتَيْن المضي قُدُماً في التفاصيل القانونية لعقد الزواج.

لو كان هذا حفل زفاف عادياً، لاستدعى الشيخُ فاطمةَ، وطلب موافقتها قبل التوقيع على عقد الزواج، ولتصرّفت

الزوجة بخجل، وامتنعت عن نطق كلمة "نعم"، بل هزّت رأسها هزّة خفيفة مُدلِّلة على رضاها.

لو كان الوضع طبيعياً، لكان هناك بضعة أسابيع على الأقلّ بين يوم الخطوبة وحفل الزفاف، ولأخذ العريس خلال فترة الخطوبة هذه عروسه المقبلة بصحبة والدتها إلى سوق الذهب في دمشق، ليشتري لها الصِّيْغَة، أي الذهب كله الذي تم الاتّفاق عليه من قِبَل رجال العشيرَتَيْن. ولو تمّ احترام العادات والتقاليد، لكانت والدة العروس قد رافقتْها إلى الأسواق في درعا، أو حتّى إلى سوق الحرير أو سوق الحميدية في دمشق، أو سوق سرسق أو سوق الطويلة في بيروت لشراء التلبيسة، وثوب الزفاف المرصّع والمطرّز، بالإضافة إلى خزانة كاملة من الملابس المطرّزة الزاهية المعروفة في منطقة حوران، ليتمّ عرضها خلال احتفالات الزواج لمدّة ثلاثة أيّام.

لو كان الزوج ذلك الفارس الشّابّ الساحر المرتدي درعه المتلألئة على حصان أبيض، الفارس الذي من المتوقّع أن تحلم به البنت لو أُتيحت لها فرصة أن تبلغ أشدّها، لكانت قد تعرّضت لحملة تنظيف دقيق من رأسها إلى أخمص قَدَمَيْها. سيصُفَّف شَعْرها، وتُهيَّأ أظفارها، ويُنتَف شَعْر جسمها، ويُنَظَّف بالشمع. ولكنها كانت لا تزال طفلة مشغولة بلعبة الـ إكس يوم زفافها. وكذا فإن مرض شقيقها رمى بظلاله على كل شيء.

لو كانت هذه مناسبة سعيدة حقّاً، لاستمرّت الاحتفالات ثلاثة أيّام وليال، ولسمع أهل القرية الأخبار السعيدة، ولتجمّع الرجال في ساحة القرية ليرقصوا ويدبكوا ويسحجوا، ولغنّوا الأُغنيّات الخاصّة بالأعراس. ولذبحوا الإبل والأغنام، ولكانت نساء القرية قد تجمّعنَ للمساعدة في التحضيرات الشّاقّة لموائد الأعراس المتخمة: اللحوم والمزيد من اللحوم، والمزيد المزيد من اللحوم المطبوخة باللبن التي تُصبّ على تلال من البرغل الخشن المطبوخ والمصبوب في صوانٍ نحاسية ضخمة.

لو لم تكن القرية قد أصابها مَسّ من الجنون جرّاء الإعلان عن زواج عبد الثالث من فاطمة البالغة من العمر عشر سنوات، لما كانت زوجتاه قد اتّخذتا مثل هذه المواقف الدراماتيكية، ولحملت نساء عشيرة صبري صواني الحنّة على رؤوسهنّ، ولشققنَ طريقهنّ يغنّينَ إلى بيت العروس للاحتفال الجماعي بليلة الحنّة. لو كان العريس شابّاً ووسيماً، ولو كانت العروس ناضجة وموافقة على هذه الترتيبات كلها، لعكست تصاميم الحنّة فرحة الجميع من الشباب وكبار السّنّ، ولحصلت بعض النساء، مثل العروس على دقّات وشم على وجوههنّ بخلاف الحنّة.

لو كان حفل الزفاف يجري وفقاً للعادات والتقاليد الفلاحية، لكان أصدقاء العريس الذكور سيُجلسونه في يوم زفافه تحت شجرة البلّوط في وسط ساحة القرية، ويحضرون له أبو العبد، حلّاق القرية، ليزيّنه بحلاقة نظيفة، ولجرّوه إلى الحمّام، ليستحمّ وفق طقوس الحمّام السباعي. وعندما

يصبح مهفهفاً نظيفاً، سيرتدي ملابسة الأنيقة وعباءته البيضاء، ويمتطي حصاناً أبيض مزيّناً، وسيصدح حينها الغناء. يغنّي الرجال للعريس، في انتظار وصول العروس إلى منزل والد العريس مجموعة من أغاني الزفاف، المضحكة غالباً، والتي تشجّع العريس:

حلاق! ما بدُّو حدا يوصِيّكْ

واحـلق لزين المعاني الله يخلّيـكْ

واحلقْ لزين المعانـي بحياة أبيكْ

وإيشن طلبتْ يا عيني أنا بعطيكْ

ثمّ يتمّ تلبيس العريس، ويخرج للشباب بثياب زفافه متبختراً:

ياعريِّس مبارك كـل ما تلبـس

مـن الحريـر للديباج للأطلـس

بدار بيَّك يتصدَّر لـَكْ الريحـان

وبدار خيَّكْ يبتسم لَكْ النرجـس

وإذا خجل العريس من الحنّاء بِعَدِّها طقساً خاصَّاً بالنساء، فهناك مَنْ سيشجّعه:

يا عريس مدّ الكفّ واتحنَّى

بحياة بيَّكْ لا تْزَعِّلْ حدا منّا

وبينما تركب العروس الهودج المزخرف المنصوب على سنام الجمل، يملأ العويل السماء، وتنهمر الدموع. وتتّحد

العائلتان في الغناء في هذه المرحلة بينما يتحرّك الجمل باتّجاه منزل العروس الجديد.

تتشارك القرية بأكملها في الأُغنيّة التقليدية معلنين عن وصول العروس: "جينا وجينا وجينا، جبنا العروس وجينا!" بينما يوصل الجميع العروس إلى منزل أهل زوجها لتنتظر هناك. يستقبلان وهما ينزلان، هو عن حصانه الأبيض وهي عن جملها، برشّات من القمح والأرز كفأل خير وخصوبة. وعندما تطأ قَدَمَاهما الأرض، يُمطَران بالقبلات، ويجلسان في النهاية على مقعدَيْن مرتفعَيْن بينما يستمرّ الغناء:

يخلف عليكم كثّر الله خيركم

أنتوا مناصب ما مناصب غيركم

يخلف عليكم كثر الله خيركم

إنتوا الأكارم ما أكـارم غيركم

جينا وجينا وجينا

جبنا العروس وجينا

خلّو العريس يلاقينا

جبنا العروس وجينا

يا ويل اللي يعادينا

يقدّم العريس في هذه المرحلة قلادة الذهب التي أحضرها لزوجته، ويضعها حول عنقها بنفسه. يلي هذا تقدُّم أفراد

الأسرة الآخرون لتقديم النقوط. بعد ليلة من تناوُل الطعام والرقص، تنتهي احتفالات الزفاف بأُغنيّة أخرى، تدفع العريس ليأخذ عروسه، ويذهب بها بعيداً.

لو كان هذا حفل زفاف عادياً، لخضع العريس الخجول للضغوط أخيراً، ولأخذ العروس من يدها، واختفى. ولكنْ، بما أن هذا الزفاف لم يكن يجري وفقاً للأعراف والتقاليد، فقد كانت فاطمة لا تزال تلعب لعبة الـ إكس مع ابنَتَي عمّها.

وفي مرحلة ما اختفى إحدى الظلال الثلاثة الطويلة في مواجهة الشمس.

بعد أن ذهب عشرات من أفراد العائلة يبحثون عنها في الاتّجاهات جميعها، تمّ العثور على فاطمة مختبئة تحت سرير مريم في منزل عمّها أحمد. وعندما سحبتْها أمّها من ساقَيْها المغبرَّتَيْن، كانت آثار البول تُلطِّخ بلاط الأرضية، وكذلك واحدة من السّجّادات الثمينة في بيت أحمد.

لكن القدر كالزمن لا شيء يُوقِفه، وهكذا حلّت في نهاية المطاف ليلة الزفاف.

بعد سنة

كسرعة انتشار الطاعون انتشر الخبر السّيّئ مات ناصر أسعفتْه دمشق مرّة لا مرّتَيْن لجماله ولصغر سنة لم يتخلّ السّلّ عنه كالرعد والبرق صعق الخبر المأساوي فاطمة "لا، لا، قولوا لي غير ذلك قولوا لي إن الخبر غير صحيح، أتوسّل إليكم، أبوس أياديكم، قولوا لي إنني في

حلم، أو في كابوس، ولكنْ، يا إلهي، لماذا؟ يا إلهي، ما الذي فعلتُهُ لأستحقّ هذا كله؟ كيف يمكن لهذا الثمن الباهظ أن يذهب عبثاً" انضمّت فاطمة، وهي تلفّ طفلها محمّد حول جسمها بإحكام، إلى الحشد في الجنازة، كانت فاطمة في طريقها إلى دمشق مع جمع من أفراد عائلتها، ليس فقط لإحضار جثّته، بل لغرض أخفتْه، وهو البحث عن بديل لحياتها الضائعة. ومع الصخب الوئيد للموت، وبينما تبع الحشد على عجل جثمان الميت إلى حوران، اتّخذت فاطمة منعطفاً حادّاً في الحياة. اختفت في أزقّة دمشق المزدحمة وكانت تحمل طفلاً على ذراعها الأيسر

وبيدها اليمنى تطرق بوّابة قصر البارودي بعنادها وإصرارها المعهودَيْن، وتوسّلت وشرحت، وبالفعل كانت هناك حياة جديدة تنتظرها.

الفصل الثاني عشر

وليمة يوم الجمعة في بيت جِدُّو

كباقي أفراد عائلتها، كانت أمّي تنتظر بفارغ الصبر غداء يوم الجمعة ولقاءاته في بيت جِدُّو نعمان.

إلا أن قصص نورما وفاطمة أثارت فيها مشاعر وعواطف متضاربة، فاقت قدرتها على التّحمّل. فأمّي المدلّلة والمحاطة بأمان والدها لم تكن معتادة على هذه المستوى من القلق. إذ أمست أحاسيس وعواطف أمّي أكثر تشابكاً وتعقيداً مع تكشّف أحداث اليوم.

إذا كان هناك مشهد واحد لم يتغيّر أبداً في بيت جِدُّو نعمان، فهو غداء يوم الجمعة. كانت هذه اللقاءات العائلية أبدية خالدة مثل جِدُّو نعمان نفسه الذي عاش لما يناهز الثمانية والتسعين عاماً (1862-1960). وإن كانت هناك مناسبة لا تستدعي مبالغات أمّي المعتادة، فقد كانت هذه المناسبة. فالترف والمغالاة في وليمة يوم الجمعة لم يكن يحتمل أي مبالغات أو إضافات، كان فوق كل مبالغة. المشهد ذاتة يتكرّر. فغداء هذه الجمعة ولقاءاتها نسخة طبق الأصل عن الجمعة الماضية، ونسخة طبق الأصل عن الجمعة الآتية، باستثناء اختفاء بعض كبار السّنّ، وظهور مواليد جدد، لدرجة يستطيع المرء معها وصف غداء أيّام جمعة ولقاءاتها لم يكن حاضرها. كانت أجواء وليمة يوم الجمعة، التي يجتمع فيها خمسون فرداً من عائلتي البارودي والجمل، حول مائدة الطعام الطويلة ذات طابع احتفالي. وبسبب صخبها توارت حقيقة هذا الملتقى، حقيقة أن كل اجتماع كان يخلق المزيد من سوء الفَهْم الأسري، ويجدّد حساسيات عائلية قديمة. كانت المشاكل "المُلحّة" التي من المفترض أن يكون قد جرى تداولها وحلّها يوم الجمعة الحالي هي المشاكل نفسها التي نُوقشت يوم الجمعة الماضي، وعلى الأغلب، سيتمّ طرحها مرّة أخرى في الجمعة التالية. وهكذا دواليك إلى أجل غير مسمّى. كما أن الطبيعة الاحتفالية للوليمة الكبرى أخفت طبيعتها الاستشارية والعلاجية، إذ أصبح يوم الجمعة يوماً مخصّصاً، ليس فقط للشكوى والنحيب والتّذمّر، بل هو

أيضاً يوم التظاهر بالشعور بالتّحسّن في مسائل أَسريّة غير قابلة للحلّ أصلاً.

كانت الاهتمامات والتّطلّعات لتجمّعات الوليمة الكبرى مختلفة ومتضاربة في كثير من الأحيان، إذ يحضر كل فرد إليها لأسبابه ودوافعه الخاصّة. لكنْ، أليست هذه الطبيعة الفطرية للعائلات جميعها وآليّتها؟ لا أحد يحبّنا ويحمينا كعائلتنا ولا أحد يؤذينا ويؤلمنا كالعائلة.

التسلسلات الهرمية للعائلة

تعكس مواعيد الوصول إلى الوليمة الكبرى هرمية عائلة البارودي. ففي حين يصل جِدُّو نعمان وأفراد العائلة المميّزين مثل خالي حكيم مع زوجته الإنجليزية وأطفاله في الوقت المناسب لتناوُل طعام الغداء، يكون مَنْ يحظون بمكانه أقلّ مثل خالي ناجح قد وصلوا منذ ساعات، ليقدّموا يد العون في الاستعدادات التي لا تنتهي. وفي حين تُرسل الخالات والأخوال الأغنياء خدمهم وخادماتهم في الصباح الباكر للمساعدة، يرسل الأفقر زوجاتهم وبناتهم قبل بضع ساعات من موعد الغداء.

لطالما تمكّنت أمّي التي لديها نكوص قوي إلى الطفولة، من العودة إلى كونها طفلة العائلة المدلّلة أو طفلة جِدُّو نعمان المفضّلة. لذا لم تساهم يوماً بمشاقّ تحضيرات يوم الجمعة. كانت خالتي كريمة القائد الرئيس لكامل قطاع الطهو، بما يشمل المطبخ الضخم. ويمتدّ نفوذها، ليشمل المساحة المفتوحة في الهواء الطلق لحفلات الشواء، وقبوَي تخزين

الطعام الضخمَيْن البارِدَيْن، بالإضافة إلى غرفة الطعام الرئيسة. كان تحت إمرتها ستّة عاملين، من بينهم أربع خادمات: ساجدة، وغالية، وفاطمة، ومساعدة الخالة فايزة التي وصلت باكراً في الصباح، ويضاف إليهنّ خالي سامي، وهاني، الذراع اليمنى لجِدُّو نعمان. وفي حين تتولّى قمر زوجة خالي ناجح وابنتاه الأعمال الروتينية جميعها، كانت خالتي إسعاف وخالتي فايزة مثل الجرّاحين المتخصّصين، تتولّيان الشؤون الأكثر فنّاً وحساسية التي تتراوح بين صنع كرات الكبّة المستديرة استدارة تامّة، مروراً بتذوّق الطعام وتقديمه، وصولاً إلى وضع اللمسات الأخيرة الأنيقة على إعداد المائدة الضخمة للوليمة الكبرى.

وفي حين كانت خالتي كريمة تشرف على العمليات في الطابق السفلي،كانت خالتي ليلى في قمّة الأناقة تستقبل أفراد العائلة والأصهار والأنسباء الأعلى مكانه، وقد درجت خلال أشهر الصيف الحارّة على استقبال الضيوف في الليوان، الجزء شبه المفتوح من الفناء، بينما تستقبلهم في فصل الشتاء في الفرنكة، غرفة المعيشة الشتوية المشمسة التي تقع في الطابق الأوّل. لطالما جلست خالتي ليلى سواء في الليوان أو في الفرنكة، مثل ملكة أو إمبراطورة رومانية، متّخذة أبرز مقعد في صدر الغرفة. كانت قصيرة ومكتنزة مثل كليوبترا، ومستبدّة مثل هيلا سيلاسي، - لم تكن رجلاها تلامسان الأرض. وفي حين كان لدى الإمبراطور الإثيوبي رجل متخصّص يضع وسادة بالسمك الصحيح تحت ساقَيْه، كانت رجلا خالتي

ليلى تبقيان تتأرجحان في الهواء مثل البندول. كان يتوجّب على كل فرد من أفراد العائلة صغيراً كان أم كبيراً أن يقصد خالتي ليلى أوّلاً، ويقدّم احتراماته، سواء أكانت مكانته العائلية تستدعي منه تقديم يد المساعدة لخالتي كريمة في المطبخ الحارّ أو تتيح له الجلوس في كرسي من الكراسي الأربعة والعشرين المصنوعة من خشب الجوز المطعّم بالصدف في الليوان البارد، كما هو حال أمّي.

ومثل مواعيد الوصول إلى الوليمة، تعكس طريقة استقبال خالتي ليلى لكل شخص، مكانته الاجتماعية أو تراتبيته في العائلة. ففي حين ينحني زوجات خالي ناجح وأبناؤه وخالي صادق، ويقبّلون يد خالتي ليلى، كانت أمّي وأبي بالإضافة إلى الزوجة الإنجليزية لخالي حكيم المدلّل وأطفاله يقبّلونها على خَدّها.

الوصول إلى وليمة يوم الجمعة

رغم أن وليمة يوم الجمعة تُقدَّم في اللحظة التي يصل فيها جِدُّو نعمان، فإن أفراد العائلة كانوا يتوافدون إلى بيته في وقت مبكّر. كانت لجنة الاستقبال المكوّنة من الأحفاد الأصغر سنّاً على أتمّ الاستعداد دائماً لفتح الباب للخمسين ضيفاً المتوقّع وصولهم ذلك اليوم. ربّما كان من المنطقي لو استمع أعضاء اللجنة لتعليمات خالتي ليلى، وتركوا الباب مفتوحاً، إلا أنهم كانوا يحرصون على إغلاق الباب وراء كل شخص جديد، مستمتعين بمسابقات الركض لمسافة قصيرة مثل العدّائين المحترفين، مرابطين في آخر

الفناء، فما إن تُسمَع طرقة على الباب حتّى يصرخ أحدهم: "انطلاق!" وينطلق الفريق على الفور عبر ساحة الفناء الوسيعة بأسرع ما يمكن، باتّجاه الممرّ المتلوّي، ويُبطئون فقط قبل الزاوية القائمة للممرّ، ثمّ ينطلقون مجدّداً بالسرعة القصوى لفتح الباب. وبما أن الجميع كانوا يصلون بشكل أو بآخر بالترتيب نفسه كل يوم جمعة، كان الأطفال يعرفون بالفعل مَنْ كان على الباب في كل مرّة.

إنصاف وشهيرة

كان أوّل مَنْ وصل إنصاف وشهيرة. ولما كانت هاتان السّيّدتان عبارة عن ثنائي لا ينفصل، فقد عاشتا وتسوّقتا وطبختا وأكلتا واستحمّتا ونامتا وجاءتا وغادرتا معاً، وهكذا حصلتا معاً على اسم موحّد. لم يسمع أحد أبداً خالاتي، أو أي شخص آخر، يشير إلى واحدة منهما من دون الأخرى، كان يقال دائماً إنصاف وشهيرة قالتا هذا أو ذاك. إنصاف وشهيرة لا تحبّان البامية. لم يكن أحد يعرف، أو لم يشعر أحد بالحاجة إلى أن يعرف، أيّهما إنصاف وأيّهما شهيرة. الشيء الوحيد المعروف أن إحداهما كانت ابنة عمّة أمّي والأخرى لا. ولأن إحداهما كانت بيضاء والأخرى سمراء، فقد كان لقبهما (ملح وفلفل). غالباً ما كانت إنصاف وشهيرة تقومان بزيارات إلى بيت جِدُّو، بالإضافة إلى تواجدهما دائماً على مائدة يوم الجمعة. قد تستمرّ زياراتهما لأيّام، على الرغم من أنهما تعيشان في مدينة دمشق نفسها. تخطّت ملازمتهما بعضهما الحياة إلى الممات. فحين وفاتهما اتّصلت خالتي كريمة بأمّي قائلة:

"سامية، هل تعلمين أن إنصاف وشهيرة ماتتا؟ لا، يا سامية، ليس في حادث، بل في الشهر نفسه. عندما ماتت إحداهما، تبعتها الأخرى". ولم تدرك أمّي أبداً ترتيب الوفاة: إنصاف وشهيرة أم شهيرة وإنصاف!

لكنْ، لماذا لا نترك موت إنصاف وشهيرة الذي يقطر له القلب حزناً، وننضمّ إلى العدّائين، لنرى مَنْ كان على الباب؟

ناجح

كان خالي ناجح، على عكس اسمه، يمثّل الفشل الذريع في العائلة. يتمتّع خالي ناجح بعادة غريبة، تتمثّل في المجيء أكثر من مرّة يوم الجمعة. كان يظهر على الباب مراراً وتكراراً. وفي كل مرّة، يهرع فيها الأطفال لفتح الباب، يجدونه ماثلاً أمامهم. الظهور الأوّل لخالي ناجح يكون حوالي الساعة العاشرة والربع صباحاً، مع زوجته قمر وابنَتَيْه ظريفة وحنان. ويأتي بقية أبنائه التسعة فيما بعد. في حين تأتي خالتي قمر وبناتها في وقت مبكّر للمساعدة في المطبخ، كان خالي يدّعي أنه مشغول، وعلى عجلة من أمره، "أنا في مساس الحاجة للتشاور مع شقيقتي الكبرى ليلى بشأن مسألة مُلحّة"، يتمتم لنفسه وهو ينحني من خلال الباب الصغير المفتوح، يكرّر محاولاً دون جدوى إخفاء سُكْره: "مسألة مُلحّة". ولكن خطواته المترنّحة على طول الممرّ الطويل تكشف أمره. يتوجّه خالي ناجح أوّلاً قاصداً شقيقته الكبرى لتقبيل يدها قبل أن يتجوّل في الفناء أو

يعرّج على المطبخ، حيث زوجته وابنتاه. يغادر بيت جِدُّو نعمان على عجلة من أمره بعد عشر دقائق أو عشرين دقيقة أمضاها بلا أي هدف. يقول خالي ناجح وهو يحني رأسه خارجاً من الباب الصغير "يسعدني القول إنني وأختي الكبرى ليلى نفكّر بالطريقة نفسها، إننا نتشارك الرأي نفسه حول هذه المسألة". كان هذا يتكرّر دائماً، ولطالما تمتّع به أطفال العائلة أكثر من غيرهم، وهم يغرقون في ضحك هستيري، ممسكين بطونهم وهم يتلوون. وعندما يكونون على وشك الانتهاء من نوبة الضحك، يعاود الظهور للحصول على مشورة أخرى من أخته الكبرى ليلى. كان لدى خالي ناجح، على عكس خالي حكيم الذي يرتدي بدلة أنيقة جديدة كل يوم جمعة، بدلة واحدة فقط، وهي بدلة رمادية مقلّمة بصفَّي أزرار، ثلاثة على كل جهة، وياقة مبالغ في حجمها، إلا أنها متناغمة مع حذائه الأبيض والأسود. كان خالي ناجح يزداد ثمالة مع كل ظهور جديد، وكانت مشاوراته مع أخته الطاغية أكثر إلحاحاً في كل مرّة. وغنيّ عن القول إنه الخروف الأسود أو كبش الفداء في العائلة. لم يكن من الواضح أبداً ما إذا كان قد أصبح خروفاً أسود للعائلة، بسبب قدراته العقلية وعادة الشُّرب، أو أنه أصبح مدمناً على الكحول "لأنه" كان الخروف الأسود للعائلة. وعندما أنظر إلى الماضي أستنتج أن الاحتمال الأخير هو الأرجح. يصل المرء إلى مثل هذه الاستنتاجات فقط لأن شقيقه الأصغر صادق كان المعشوق والمدلّل من قِبَل أفراد عائلته جميعهم رغم إدمانه

على الكحول ومزاجه السّيّئ. يأتي خالي صادق وزوجته نهاية وابناهما رحاب وأسامة بالسّيّارة قاطعين مئة وستّين كيلومتراً، تفصل حمص عن دمشق كل يوم جمعة. ورغم شخصيّتها القوية والباردة، إلا أن خالتي ليلى كان لديها نقطة ضعف تجاه أخيها ناجح. لم تقتصر مهمّتها على الدفاع عنه أمام والده الصارم، ولكنها غالباً ما أعطتْه وزوجته وأطفاله الثمانية راتباً، ليعيشوا منه. وفي حين استخدم خالي ناجح راتبه لشراء المزيد من المشروبات الكحولية خلال النهار، وإنجاب المزيد من الأطفال في أثناء الليل، عملت زوجته قمر ليلاً ونهاراً على رعاية الأطفال الذين يَنتجون عن تلك الليالي الطويلة الحافلة.

كان الوقت يقارب الحادية عشرة صباحاً عندما قرع أحدهم الباب. لم يكن الأطفال متحمّسين لفتح الباب، لأنهم يعرفون أنه حان وصول خالتي فايزة وزوجها النكد عمّو عبدو. لم يكن أي من الأطفال على عجلة من أمره، وأخذ أعضاء لجنة الاستقبال وقتهم، وجرّوا أقدامهم جرّاً إلى الباب. فعلى عكس خالتي فايزة اللطيفة العذبة، كان مزاج عمّو عبدو عكراً على الدوام: "لماذا استغرقت وقتاً طويلاً لفتح هذا الباب اللعين؟" كان هاجس عمّو عبدو طيلة حياته كيفية جلوس الفتيات. وكان هناك دائماً الكثير من الفتيات ومن الأعمار جميعهنّ. "ليس هكذا تجلس الفتيات الصغيرات أبناء العائلات المحترمة! اجلسي جلسة مستقيمة، اجلسي جلسة مناسبة، ضمّي ساقَيْكِ جيّداً، وشدّي ركبَتَيْكِ!" كان غالباً ما ينضمّ ثلاث أو أربع من بنات خالاتي المراهقات

المشاغبات إلى كبار السّنّ في الليوان، ويجلسنَ على نحو مقصود جلسة "غير لائقة"، بحيث كان بإمكان عمّو عبدو رؤيتهنّ. وسرعان ما كانت المحاضرة تتكرّر: "الفتيات الساقطات فقط، اللواتي يتحدّرنَ من عائلات سيّئة، يجلسنَ بسيقان مفتوحَة كما تفعلنَ.. و.." وكانت ضحكاتهنّ تجعله أكثر غضباً.

مباشرة بعد وصول خالتي فايزة وعمّو عبدو، ظهرت خالتي الطريفة إسعاف وزوجها عمّو زاهي وأطفالهما الثلاثة ماهر ونادية وسلوى. وفي حين كان أعضاء لجنة الاستقبال يتطلّعون إلى استقبال خالتي إسعاف الأشبه بالمهرّج، والتي كانت تُطلق النكات باستمرار، وتغنّي وتعزف على العود، لم يكونوا يعرفون ما الذي عليهم أن يتوقّعوه من زوجها الدكتور زاهي. لم يكن سيّئاً بكل تأكيد مثل أخيه عبدو، لكنه غامض، لا يمكن توقّع تصرّفاته. يضحك بلا سبب واضح، وكذا يحلّ عليه الصمت بلا سبب. كان يُوصَف بالكئيب في إشارة إلى مزاجه المتقلّب. من الجلي أن مصطلح "ثنائي القطب" أو (Bipolar)لم يكن حينها جزءاً من قاموس المثقّفين.

قبل بضع دقائق فقط من وصول جِدُّو نعمان، وصل خالي حكيم الأشبه بالطاووس المختال مع زوجته الإنجليزية جيد وبناتهما الثلاث وابنهما: جميلة أجمل الأحفاد وأوّلهم، ونجلاء وزينة، وابنهما عطا.

جلسات العلاج النفسي

سواء انضمّ القادم إلى ركب مساعدي خالتي كريمة في المطبخ، أو كضيف مكرّم مصمود على مقعد خشبي مرصّع بالصدف في الليوان الرحب، أو انتهى يقبّل يد خالتي ليلى أو خَدّها، فأفراد العائلة جميعهم يتطلّعون إلى وليمة يوم الجمعة لسبب أو مصلحة خاصّة. فالبعض، ومنهم أمّي وخالي صادق وزوجته نهاية، يتشوّقون لرؤية أفراد العائلة، وسماع آخر أخبارهم، ناهيكَ عن النميمة والثرثرة المتعلّقة بالأحداث والقصص التي فاتتْهم، لأنهم يعيشون في أماكن بعيدة مثل القدس، حيث عاشت أمّي، أو حمص، حيث يعيش خالي صادق وعائلته. كان خالي صادق مهندساً ميكانيكياً، يعمل مع شركة نفط العراق(IPC) في حمص. وكانت لقاءات يوم الجمعة بالنسبة إلى زوجات أخوالي الثلاث، قمر ونهاية والإنجليزية جيد، فرصة لطلب المشورة، أو على الأغلب، شكوى على أزواجهنّ الذين لم يعدنَ يطقنَهم أو يحتملنَهم. تعمد خالتي ليلى ذات السلطة المطلقة، كطبيبة نفسية لأفراد العائلة جميعهم نساء ورجالاً كباراً وصغاراً، إلى حلّ النزاعات والفتوى في المشاكل العائلية، من دون الرجوع إلى والدها، وإذا عَصي عليها أمر، تشاورت معه على انفراد. بينما أُقصيت تِيْتِة بسيمة بشخصيّتها المتواضعة والوديعة بعيداً عن معظم الاستشارات العائلية.

وكما هو متوقّع، فإن خالتي قمر هي الأكثر شكوى من خالي ناجح الكسول الفاشل السّكّير الذي لا حول له ولا قوّة. كانت هذه طريقة غير مباشرة لتطلب من خالتي ليلى

أن تتدخّل نيابة عنها، وتطلب من جِدُّو نعمان الكريم زيادة الراتب الشهري لعائلتها المتنامية. كثيراً ما اشتكت خالتي قمر، مع بعض التفاصيل غير الضرورية، من الإسراف في ممارسة الحبّ، وما يرافقه من تكاثر أشبه بتكاثر الأرانب. بينما كان أكثر ما يقضّ مضجع زوجة خالي نهاية، نوبات غضب زوجها صديق الذي طالما صبّها على ابنهما الصغير أسامة. وبسبب تلقّيه لأسوأ نوبات الغضب التي تحلّ بوالده، بقي أسامة بالتالي سَكُوتاً طوال حياته. كانت الأصوات الوحيدة التي أطلقها أسامة تأتي من غيتاره، الذي أصبح ملاذه. منذ أن جاءت نهاية من مدينة نابلس في فلسطين، لم يكن أي من أشقّائها حولها ليمنحها الدعم الذي تحتاجه، ولذلك تصرّفت وكأنها يتيمة، ممّا جعل دموعها السخية فعّالة وذات مصداقية. وكان زوجها خالي صديق مهندساً ناجحاً، على عكس خالي ناجح المعاق عملياً وعقلياً. وللحقيقة فإن الخال رفيق يشبه اسمه حين يكون بمزاج جيد، ليصبح ودوداً ولطيفاً ومحبّاً وساحراً.

أما خالي حكيم، البكْر والأكثر تحفّظاً، فقد كان على شيء من خُلُق خالي ناجح، فهو مثله لم يكن له من اسمه نصيب، إذ كان متهوّراً، تعوزه الموضوعية والحكمة، وما كان لزوجته الإنجليزية جيد، وكبادرة على كونها جزءاً من العائلة، إلا أن تغيّر حرفاً واحداً من اسمها، ليصبح جاد عوضاً عن جيد، ولكنْ، لسبب ما أُطلق عليها اسم أميمة، تصغير أمّ. كانت تلك هي الطريقة العربية في استيعاب أو قبول الثقافات والأديان الأخرى: تغيير اسمها ودينها.

اشتكت الخالة أميمة في كثير من الأحيان من أن زوجها حكيم متعلّق بالنساء، ويقضي جلّ وقته في الملاهي الليلية، في الوقت الذي كان لديها منه ثلاث بنات، ولم تُرزَق بابنٍ بعد، ما دفعها للشعور بالضعف الشديد وانعدام الأمان في ثقافة، تعطي القيمة الكبرى للأولاد الذكور. لم يتزوّج خالي حكيم في واقع الأمر في السّرّ وحسب، بل نجح في إخفاء عائلته الأخرى عن زوجته الأولى وأفراد عائلته جميعهم، ولسنوات عديدة. وعندما ظهرت الحقيقة حول عائلته الثانية، الزوجة المسيحية والبنات الثلاث، شعرت زوجته أميمة بالغَيْرة، لدرجة أنها تمكّنت من الحمل في سنّ الثانية والخمسين، وأنجبت طفلاً صغيراً، منحتْه اسم عطا الله (جوناثان أو عطاء الله). ولم تنجح الزوجة الثانية أبداً في أن تُنجب ذكوراً، وهكذا حقّقت زوجة خالي أميمة انتقامها المجلجل.

قائمة طعام الوليمة الكبرى

كانت قائمة طعام الوليمة الكبرى تتنوّع وتختلف كل يوم جمعة، على عكس الطبيعة المتكرّرة للقاءات الجمعة في بيت جِدُّو نعمان، وجوّها الاحتفالي الخادع، وطبيعتها العلاجية الزائفة، وبنيتها الهرمية المتجذّرة. وبما أن التّمتّع والمغالاة في الأكل حتّى الثمالة كان يمثّل روح اللّمّة العائلية ليوم الجمعة، فإن الكثير من التخطيط والتنظيم والجهد انصبّ على تحضير وجبة الغداء.

شملت الوليمة الكبرى العديد من الأطباق الرئيسة، بالإضافة إلى المقبلات التي لا تُعدّ ولا تُحصى. فالأطباق الرئيسة تتضمّن على سبيل المثال لا الحصر: البسمشكات وهي شرائح رقيقة من اللحم مخيّطة على شكل أكياس مستديرة، تُحشَى بالأرز واللحم المفروم واللوز المقلي، والكرشات والكوارع المَحشوّة بالأرز واللحم المفروم واللوز، وورق العنب الملفوف (اليبرق) والكوسا المَحشوّة، والمنزّلة، وهي شبيهة بالمصقعة اليونانية المطبوخة مع الباذنجان وصلصة البندورة، وأنواع اليخنة: قطع متوسّطة الحجم من لحم العجل أو الخروف مطبوخة مع أنواع مختلفة من الخضار مثل البامية والفاصولياء الخضراء والبازلاء، وأطباق الأرضي شوكي (الخرشوف)، أو الفاصولياء البيضاء الكبيرة عيشة خانم (العيشة خانم). كما تشمل الأطباق الرئيسة المشاوي من اللحوم البقرية ولحم الضأن والدجاج المشوي.

أمّا المقبّلات، فحدِّثْ ولا حرج. فكثير منها كانت أشبه بالوجبات الرئيسة كالفتّة باللبن، وهو طبق متعدّد الطبقات، أولاها طبقة من قطع صغيرة من الخبز المقلي، والقليل من اللحم أو صدر الدجاج، والطحينة واللبن ودبس الرّمّان، والطبق مزيّن بالصنوبر واللوز المقلي بزيت الزيتون. أمّا الأطباق النباتية، فعادةً ما تُقدَّم باردة، وغارقة بزيت الزيتون. وسُمّيت الأطباق النباتية بالصيام نسبة إلى أنها كانت تُقدَّم غالباً خلال صوم الأربعين عند المسيحيّيْن.

تشمل أطباق الوليمة أيضاً مجموعة من السَّلَطات مثل الفتّوش والشنكليش والتّبّولة، وأطباق المقبّلات الأخرى مثل المتبّل والبابا غنّوج والحمّص. ولن تكون الوليمة لتكتمل دون السجق الأرمني الحارّ والنقانق واللحم بعجين.

الكبّة بأصنافها السبعة المميّزة هي الأكثر لذّة وشعبية من وجبات يوم الجمعة جميعها، وكما هو متوقّع، فهي الوجبة التي تتطلّب القدر الأكبر من العمل. وهكذا تعمل معظم نساء عائلَتَي البارودي والجمل، بمَنْ فيهن خالتي ليلى - باستثناء زوجة خالي الإنجليزية أميمة - في الكبّة أو تقدّمنَ يد المساعدة في مرحلة أو أخرى. تستغرق عملية الإعداد الشّاقّة والمضنية للكبّة من أربع إلى خمس ساعات على الأقلّ، وتتألّف مكوّناتها الأساسية من أجود قطع لحم الخروف والعجل ومن البرغل. وكلّما ارتفعت نسبة اللحم مقابل البرغل كانت الكبّة أفضل. كان قرص الكبّة يحتوي بالإضافة إلى هذَيْن المكوِّنَيْن الرئيسَيْن على سبعة توابل طازجة، عدا عن كمّيّات كبيرة من البصل. وكان هاني، الذراع اليمنى لجِدُّو نعمان، وخالي سامي يتولّيان شراء المكوّنات الطازجة وإحضارها صباح الجمعة. كما تعتمد جودة الكبّة على عملية خلط مكوّناتها. تُخلط هذه المكوّنات بأجزاء صغيرة في كل مرّة، كمّيّة صغيرة من اللحم، والبرغل الناعم المنقوع، والبصل المفروم، وتوابل الكبّة السبعة التي تُوضَع كلها في الجرن الحجري المخصّص لدَقّ الكبّة، وتُدَقّ بمدقّة خشبية ثقيلة مدّة طويلة، لتصبح عجينة لزجة متماسكة مخلوطة على نحو جيّد، بلون

وردي. وبمجرّد أن تصبح الكبّة ذات قوام متماسك وممزوج جيّداً، يحين الوقت لفنّ تشكيلها بأصنافها السبعة. وعند هذه النقطة تجتمع معظم النساء للمساعدة في تشكيل الكبّة بأشكال مختلفة. بعد تقسيمها إلى أقراص، تُمَدّ الكبّة في طبقات في صواني فرن مستديرة، ويُشكَّل بعضها الآخر في كرات متناظرة مع أطراف رفيعة، وبعضها الآخر في كرات كبيرة وصغيرة، وبعضها على شكل أنصاف قباب. وهذا كان أيضاً الوقت الذي يغزو فيه أبناء الخالات والأخوال الصغار والكبار أيضاً المطبخ، يطلبون نصيبهم من الأقراص اللذيذة. تعطيهم الخالة كريمة وفاطمة، تحسّباً لغزو الكبّة النّيّة، عشرات الكرات الصغيرة والأقراص المسطّحة لتهدئة جحافل الجراد الآكل للحوم. "خذوا هذا الآن، ولا تأكلوا أكثر من ذلك! ينبغي أن تتركوا حيّزاً لتناول طعام الغداء". ينتزع أبناء الخالات والأخوال عموماً من الأحجام والأعمار جميعهم حصّتهم من الكبّة النّيّة، ويخرجون من المطبخ الأشبه بالساونا، ويستقرّون على الحافّة الرخامية للنافورة في وسط الباحة، يقضمون كراتهم الصغيرة.

وبمجرّد إنجاز المهمّة الصعبة التي تستهلك الكثير من الوقت لتحضير الكبّة، وتجهيزها، تقوم نساء عائلة البارودي الأنيقات بإخلاء المطبخ للخادمات، ليغرقنَ في روائح الطبخ الناتجة عن قَلْيِ أصناف الكبّة السبعة وشَيِّها وخَبْزِها وتشويحها.

ليس قبل وصول جِدُّو نعمان

ربّما كانت أطول ساعة في اليوم وأكثرها صعوبة الفترة التي تمتدّ بين الوقت الذي تبدأ فيه الروائح التي تُسيِّل اللعاب بالانبعاث من منطقة المطبخ ولحظة وصول جِدُّو نعمان. كان كل ما بوسع المرء أن يسمعه خلال تلك الساعة المؤلمة قرقرة أمعاء كبار السّنّ وشكاوى الأطفال الصغار وأنينهم "ماما، ماما، أنا أتضوّر جوعاً. متى سيأتي جِدُّو نعمان؟" يعرف المراهقون أفراد لجنة الاستقبال أن هناك ما يقرب من خمس إلى سبع دقائق تفصل وصول خالي حكيم وعائلته عن وصول جِدُّو نعمان مع حاشيته المكوّنة من خالو سامي وهاني وعدد قليل من الأولاد الذين يحملون صواني ضخمة من الحلويات لختام الوليمة الكبرى. أعطت هذه المعرفة المكتسبة بالخبرة لأعضاء لجنة الاستقبال الأفضلية للاندفاع والتصارع، ليكونوا الأوائل في صفّ طويل، يتشكّل لاستقبال جِدُّو نعمان، وتقديم واجب الاحترام له.

يستلزم الترحيب الذي يسبق الوليمة الكبرى أن تصطفّ الخالات والأخوال والأبناء والبنات الذين يتجاوزون الخمسين، فضلاً عن الخادمات والمساعدين في المنزل للمشاركة في طقوس الانتظار في الطابور، والانحناء، والتقبيل، ووضع يد جِدُّو نعمان على جبينهم من قبيل الاحترام. وبمجرّد الانتهاء من الطقوس الترحيبية، يتنحّى كل فرد من أفراد العائلة جانباً، وينتظر بصبر، ليقوم الشخص التالي بالتّحيّة قبل أن يسيروا جميعاً خلف جِدُّو

نعمان نحو الوليمة المنتظَرَة. يتحرّك جِدُّو نعمان المبجّل عبر الفناء في اتّجاه الروائح التي لم تعد تُقاوَم.

بمجرّد الوصول إلى غرفة الطعام، وقبل أن يأخذ أفراد العائلة مقاعدهم على طاولة السفرة، يحدِّق الجميع في العدد اللامتناهي من الأطباق المتقنة، ويتغزّلون بأطباقهم الشهية التي تُزيّن الطاولة التي يبلغ طولها أربعة أمتار، والتي تتّسع لجلوس معظم أفراد الأسرة الممتدّة: جِدُّو نعمان، وتِيْتِة بسيمة، وأخوات جِدُّو نعمان الأربع، وخالتي ليلى، وخالتي فايزة وزوجها عمّو عبدو، وخالتي إسعاف وخالي صادق، والخالة كريمة، والخال حكيم وزوجته الخالة أميمة، والخال ناجح والخالة قمر، والخال صادق وزوجتة نهاية، وأمّي وأبي، والخالة (الخالتان) إنصاف وشهيرة، بالإضافة إلى عشرات الأحفاد الذين تمتدّ أعمارهم على مدى عقدين من الزمن. باستثناء جِدُّو نعمان، الذي كان يترأّس الطاولة، تجلس تِيْتِة بسيمة، وخالتي ليلى، وخالي حكيم إلى جانب جِدُّو نعمان، لم يكن لأحد غيرهم مقعد مخصّص. وبعد أن يجلس جِدُّو نعمان وتِيْتِة بسيمة في كرسيَّيْهما، عندها فقط يجلس كل فرد من أفراد الأسرة في مكانه. على الرغم من أن المرء يتوقّع أن الجلوس حول طاولة الطعام اللامتناهية لا بدّ أن يعكس التسلسل الهرمي لعائلة البارودي، ولكن الحال لم يكن كذلك. ففي أغلب الأحيان، كان مكان الجلوس يعكس أطباق الناس المفضّلة. يجلس كل شخص من الخالات والأخوال وأبنائهم وبناتهم

بوجوه تبدو بريئة، لكنْ، بعقول استراتيجية كلاً مقابل طبقه المفضّل، وليس مقابل رفيقه المفضّل.

يجلس شاربو العَرَق من أفراد العائلة أقرب ما يمكنهم من الكبّة النّيّة، رفيقة العَرَق المرتبطة بهذا المشروب الكحولي الذي لا يجرؤون على شربه قبل أن يقوم جِدُّو نعمان. تُحضّر الكبّة النّيّة ببساطة عن طريق مَدّ عجينة الكبّة في طبق مسطّح وتزيينها بزيت الزيتون والبقدونس المفروم والجوز المبشور. ويُفضَّل أن تُؤكَل الكبّة النّيّة مع الخبز الرقيق، المشروح، والبصل الأبيض الصغير. وبمجرّد الانتهاء من المقبّلات، ينضمّ عشّاق الكبّة النّيّة إلى عشّاق الكبّة المشوية. تُملأ أقراص الكبّة هذه، الأشبه بأنصاف القباب، المشوية على الفحم بالشحم والجوز المطحون. كان هذا هو الصنف المفضّل لدى معظم الرجال الذين لا يشعرون بالذنب تجاه هذه القنابل الكولسترولية. وإذا نظرنا لكمّيّة الشحوم في الكبّة المشوية وكمّيّة المشروبات الروحية التي يشربها أخوالي الثلاثة، فلن نستغرب أن جميعهم ماتوا بأمراض الكبد. كان والدي الذي يهتمّ بصحّته، الذكر الوحيد في العائلة الذي ابتعد عن الشحوم، وعن الإسراف في الكحول. ولكنه كان للأسف الوحيد الذي توفّي بنوبة قلبية حادّة! لكنْ، هذا ربّما كان بسبب طعام أمّي المالح. غالباً ما جلس والدي بجوار صنف كبّة أقلّ ضرراً كالكبّة اللّبنيّة. هذه الكرات الصغيرة المستديرة من الكبّة المقلية التي تُوضَع في لبن الماعز المطبوخ الذي تُضاف إليه حبّات الفول الأخضر الطازجة والنعناع

المجفّف، ثمّ تُقدَّم إلى جانب البرغل الخشن المطبوخ. في حين كان هذا الصنف المفضّل لوالدي، عشقت أمّي الكبّة الحميس، الكرات المقلية الصغيرة المطبوخة في صلصة البندورة، مع البصل المقلي، ودبس الرّمّان، وحبّات الصنوبر المقلي. كان هذا النوع من الكبّة، الذي يُقدَّم إلى جانب الأرز الأبيض، الصنف المفضّل أيضاً لخالتي كريمة. أمّا الكبّة الأرنبيّة المطبوخة مع صلصة الخشخاش، فكانت الصنف المفضّل لجِدُّو نعمان وتِيْتِة بسيمة وخالتي ليلى.

أمّا المراهقون والأطفال، فيتزاحمون من أجل الجلوس أقرب ما يكون من أطباق الكبّة المقلية والمحشوّة باللحم المفروم والبصل المقلي والصنوبر. ويغرق البخار الساخن المتصاعد من الكبّة المقلية بعد قسمتها إلى نصفَيْن الأفواه الصغيرة.

أمّا الكبّة بالصينية المخبوزة بالفرن، والمكوّنة من طبقَتَيْن سميكَتَيْن من عجينة الكبّة، تتوسّطهما طبقة من اللحم المفروم المقلي والبصل والصنوبر، فكان أكثر ما يثير دهشة الأطفال فيها هو التصميم الهندسي المعقّد الذي كانت خالتي فايزة تنقشه على الطبقة العليا. كان هذا الصنف من الكبّة المفضّل للأخوَيْن زاهي وعبدو. فكلّما اقترب الأخوان الغاضبان من هذا الطبق، ابتعد عنه الأطفال.

وتفصل مجموعة متنوّعة من الأطباق النباتية المطبوخة بزيت الزيتون أطباق الكبّة عن بعضها البعض. تُقدَّم

الأطباق النباتية مثل الفول بزيت، والفاصولياء الطازجة مع الثوم والكزبرة وزيت الزيتون باردة. تمتلئ كل مساحة صغيرة متبقّية من الطاولة بطبق من السلطات المختلفة: التّبّولة، سلطة الخيار مع اللبن والنعناع، وسلطة الخسّ مع البندورة والخيار والبصل، وسلطة البطاطا المسلوقة مع البقدونس.

وكانت أكثر السلطات شعبية هي أصناف الباذنجان الثلاثة: الباذنجان المقلي مع الثوم، والبابا غنّوج، والمتبّل. باذنجان الثوم يُقلى ويُقطّع مكعّبات، ويغمس في اللبن المثوم، والبابا غنّوج يُحضّر من الباذنجان المشوي على الفحم، والطحينة، والليمون، والثوم، وزيت الزيتون، ويُزيّن بحبّ الرّمّان والبقدونس، والمتبّل باذنجان مقلي متبّل بالطحينة.

نظراً للأطباق الرئيسة المختلفة: أنواع الكبّة جميعها، وعدد كبير من الأطباق النباتية، وتشكيلة واسعة من السلطات، تليها صواني ضخمة من الفواكه الطازجة، وصينية الكنافة الكبيرة الغارقة بالقطر، والحلويات العربية من بقلاوة وبلّوريّة، والرّزّ بحليب.

كان الهدف الوحيد لكل متحلّق حولة مائدة الوليمة الكبرى لمدّة ساعَتَيْن أن يأكل ويأكل ويأكل. كانت الأصوات الوحيدة المسموعة، ليس فقط في غرفة الطعام الضخمة، بل في أرجاء القصر جميعها، أصوات المضغ، والطحن، والعلك، وتلمّظ الشفاه الرطبة والبلع.

ربّما كانت تتسرّب بين الحين والآخر خلال عملية حشو البطون السعيدة، بعض الكلمات غير الواضحة من فم ممتلئ أو آخر. وعلى كل حال، خلال نشوة الاستهلاك هذه لم يكن لأحد رغبة، أو لم يكن لدى أحد الوقت الكافي، ليستغني عن دقيقة من دقائق المضغ الثمينة، ليردّ بأي إجابة أو غمغمة.

الفصل الثالث عشر

الزيارة

لم يسمع أحد من الجالسين حول مائدة الطعام الطرقات المتتالية على باب البيت. ما زالوا منغمسين في أصناف الكبّة السبعة والأطباق المرافقة لها، غير آبهين بالمغالاة في ملء بطونهم بشراهة، والتي ستعرّضهم حتماً إلى نوبات قلبية حادّة. كان تمرير طبق من أحد جانبَي الطاولة إلى الآخر مشروطاً بتمرير طبق آخر في المقابل.

حالت الأصوات والضّجّة الناتجة عن الأكل والشرب من مضغ ولوك وعلك وقضم والارتشاف بصوت عال، والتي تعزّزت بأصوات التجشؤ، دون سماع الطرقات على باب البيت الرئيس.

لم يسمعها أحد سوى فاطمة. وحدها ركضت لفتح الباب، استفسرت أوّلاً، شحب وجهها قبل أن ترحّب بشخصَيْن مرتجفَيْن، يقفان على عتبة قصر بارودي. رجل في الثّلاثينيّات من عمرة وامرأة في أواخر سنّ المراهقة، أو

في أوائل العشرينيات، يقفان هناك بقلق شديد. وكانت فاطمة مَن ادّعى أن المرأة شابَّة وجميلة.

ربّما كانا أخوَيْن.

ربّما كانا زوجَيْن. ربّما كانا قريبَيْن أو جارَيْن أو صديقَيْن. لم يهتمّ أحد بالسؤال أو لم يتجرّأ أحد على ذلك.مهما كانت العلاقة بينهما، فقد سرت رعشة غريبة في جسد فاطمة عندما قدّما نفسَيْهما.

"أرجوكما، أرجوكما، ادخلا، تفضّلا!" قالت بتوتّر وعصبية، ثمّ مشت على طول الممرّ الطويل المنحني. "أرجوكما، اجلسا، وارتاحا". قالت وهي تقودهما إلى القاعة الخارجية. ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه فاطمة التي سرعان ما ذهبت لتُنبّه جِدُّو نعمان وخالتي ليلى.

كالحصان الجامح خرجت فاطمة من غرفة الضيوف، عبرت الفناء الواسع، ودخلت غرفة الطعام المزدحمة، حيث كان المضغ لا يزال على أشدّه. وبما أن الخدم كانوا مشغولين في تقديم الحلوى، لم يلاحظ أحد وجودها في مهمّة مغايرة تماماً.

لم يلاحظْ أحد فاطمة إلا حين اقتربت برأسها من رأس خالتي ليلى. انحنت فاطمة، وهمست في أذنها. ولم يتّضح ما إذا كانت رائحة جسد فاطمة المتعرّق أو كلماتها هي التي تسبّبت في شحوب وجه خالتي ليلى، ليغدو أصفر كالليمونة. استدارت بجسدها المكتنز القصير في الاتّجاه المعاكس، حيث جلس جِدُّو نعمان، وهمهمت في أذنه

الكبيرة. كانت تلك هي المرّة الأولى التي لاحظت فيه فاطمة أن للخوف أكثر من لون واحد، فبينما اصفرّ وجه خالتي ليلى وعنقها، تورّد وجه جِدُّو نعمان.

بوجوه مصعوقة تبادل كل من جِدُّو نعمان وخالتي ليلى نظرة من الرعب، ليقفا ويدفعا كراسي طاولة الطعام الثقيلة إلى الخلف، وينطلقا كالسهم الموجّه باتّجاه غرفة الضيوف. وفجأة توقّفت خالتي ليلى، واستدارت عائدة إلى الوراء راكضة.

"لدى أبي ضيوف مهمّون، لذلك لا أريد أن يغادر أي منكم غرفة الطعام لحين رحيلهم". لم تكن تعليمات خالتي خارجة عن المألوف، إذ طالما التقى جِدُّو نعمان بخصوصية مع ضيوف يصلون فجأة دون سابق إنذار، ولم تقيّد تعليماتها أحداً، إذ كان معظم أفراد عائلة البارودي والجمل أكثر اهتماماً بالطبيخ والأكل من أخبار العالم بأسره.

اقتربت خالتي ليلى بحذر من خالتي كريمة، وهمست في أذنها. وعلى عكس جِدُّو نعمان وخالتي ليلى، لم تُخفِ كريمة صدمتها وذعرها، فانتفضت واقفة دافعة كرسيّها إلى الوراء. وكجمل مذبوح، وقفت جامدة في مكانها للحظات قبل أن تهبّ مسرعة خارج غرفة الطعام إلى الفناء، ومثل زوبعة صعدت الدرج الطويل الضّيّق درجَتَيْن درجَتَيْن. سقطت مرَّتَيْن حتّى وصلت إلى باب جناحها،

فتحت بابه، واختفت. وفي هذا الأثناء، استنجدت خالتي ليلى بأمّي:

"سامية، اصعدي إلى الطابق العلوي، وساعدي أختكِ كريمة".

همست خالتي ليلى بأذن أمّي تعليمات خطّتها المحكمة قبل أن تتّجه مرّة أخرى إلى غرفة الضيوف. وقفت لتتماسك، وتستجمع قواها.

مسحت العَرَق عن وجهها. أخذت نَفَساً عميقاً. فتحت باب غرفة الضيوف، ودخلت، وأغلقت الباب خلفها بإحكام.

سمعت أطراف حديث قبل أن تسمع صرخة شقّت السماء، وعويل تنكسر له القلوب، إن وُجدت قلوب.

بكاء ونواح.

وبعدها صمتٌ تامّ.

صمت دام أكثر من ستّين سنة.

لا أحد يعرف حتّى يومنا هذا ما الذي حدث يوم قرع باب البيت هذا إن كان قد قرع حقّاً.

الفصل الرابع عشر

غالية (ما بعد وليمة يوم الجمعة ذاتها)

لا غنى عن قيلولة بعد الظهر خاصّة بعد وليمة يوم الجمعة الشبيهة بوليمة فلم La Grande Bouffe، ولكنْ، للأسف بدون مارتشيلو ماستروياني.

سعى أفراد عائلة البارودي والجمل جميعهم كباراً وصغاراً، للحصول على سرير، أو ديوان، أو أريكة مريحة، أو حضن أمٍّ، ليُريحوا عليها أجسادهم المنتفخة بعد أن استثمروا طاقتهم كلها في الأكل.

جرّ الكبار أقدامهم عبر الفناء، واستلقوا على أوّل ديوان في طريقهم، سواء في غرفة المعيشة أو في قاعَتَي الاستقبال، أو حتّى في الفناء المفتوح نفسه. أمّا الآخرون الذين لا يزال لديهم بعض الطاقة، فقد صعدوا السّلّمَيْن الحادَّيْن اللذَيْن أوصلاهم إلى غرف النوم الواقعة في الطابقَيْن الأوّل والثاني.

وساد صمت تامّ.

هدية زفاف.

تنفّست غالية ملء رئَتَيْها، كبقية الخادمات في المنزل والمساعدين في الوليمة الكبرى، لأن التّوتّر المرافق لتحضيرات يوم الجمعة شارف أخيراً على الانتهاء.

تنهّدت.

أعطى الهدوء المرتقب غالية الوقت اللازم لترتيب مملكتها الكبرى: المطبخ وتوابعه. كما وهبتها القيلولة فرصة لإراحة جسدها المنهَك المتألّم من مهامّ يوم الجمعة المضنية التي انطلقت قبل الساعة الرابعة فجراً، والتي ستُستأنف حين استيقاظهم بجولات متتالية من القهوة التركية، بما يتناسب ورغبة كل شخص وتذوّقه: صوانٍ نحاسية، تحمل قهوة بالهال، وغيرها من غير هال، وقهوة

حلوة، وأخرى مرّة دون سكّر، وقهوة بلحسة سكّر، وقهوة مغلية جيّداً دون وجه، وأخرى بوجه، وهكذا دواليك. اختلط عبق القهوة الذي فاح في أرجاء بيت جِدُّو مع الروائح العشبية الخفيفة للشاي الأسود والشاي مع النعنع والشاي الأخضر أو نبتة المَتّة التي يُقدَّم مشروبها في أكواب شفّافة صغيرة.

وإلى أن يحين موعد جولات القهوة والشاي جلست غالية في ركنها المفضّل في المطبخ، الركن الأقرب إلى الوجاق: موقد الطهي بالخشب الذي أخذ لهبه يهدأ شيئاً فشيئاً. استرخت، وبلحظات تدلّت رقبتها، وانخفض رأسها المتثاقل إلى الأمام. فتحت عينَيْها لبرهة، ثمّ غطّت في النوم مرّة أخرى. وتنقّلت طيلة فترة الهدوء التي تسود القيلولة، ما بين اليقظة والنوم. كانت على عتبة الوعي واللاوعي.

ثمّة شيء في تلك التّجمّعات العائلية جعل غالية تغرق في حزن عميق. حزن غالباً ما كان يدفعها إلى حافّة البكاء، ليس اليوم فقط، بل في كل جمعة منذ وصولها إلى بيت جِدُّو نعمان قبل خمسين عاماً.

لاحظت خالتي كريمة مزاج غالية السّيّئ، وبالتحديد أيّام الجمع، واشتكت كريمة، بحضور غالية، إلى خادمات أخريات، يساعدنَ في المطبخ، وهي تحاول بلطف أن تنصح غالية بأخذ استراحة:

"لقد استُنفدت تماماً في تحضير ولائم يوم الجمعة، أصبح مزاجها يتغيّر دائماً، وكثيراً ما تبكي".

أجابت غالية: "أنا بخير، دعيني وشأني".

"هل ترين ما أعني؟!" تمرّ فترة توتّر وجيزة قبل أن تكسر فيها خالتي كريمة حدّة التّوتّر، فتبتسم في وجه غالية، وتقول:

"مزاجكِ دائماً جيّد، يا غالية، ما عدا أيّام الجمعة. لا تُقنعيني بخلاف ذلك: في يوم الجمعة، ولسبب أو لآخر، تفقدين أعصابكِ بسرعة، يعني بالعربي الفصيح فْيُوْزِكْ ضَارِبْ".

تبتسم غالية للتعبير، وتكرّر بعد خالتي كريمة التي تعشقها: "نعم، فْيُوْزِي ضَارِبْ".

بالتأكيد لم يكن الإرهاق من العمل المضني ليوم طويل ما عكّر مزاج غالية، وجعلها تبكي أو تكون على حافّة البكاء، في كل مرّة يجتمع فيها أفراد عائلة البارودي، سواء أكان ذلك أيّام الجمعة أم في أي مناسبات عائلية أخرى. حقيقة الأمر أن هذه التّجمّعات جعلت غالية تفتقد عائلتها التي حُرمت منها طوال حياتها. فعلى عكس ساجدة وفاطمة، اللّتَيْن عرفتا من أين أتينَ، ويعرفان أسرَتَيْهما، لم تكن غالية، ذات القصّة المأساوية، تعرف الكثير عن أصولها. لربّما كان لديها بعض الذكريات الباهتة عن عائلتها أو عن المكان الذي جاءت منه.

ليس من الواضح ما إذا كان صِغَر السّنّ، أو فداحة الفاجعة، أو الاثنان مجتمعَيْن، قد جعلا من المستحيل على غالية تذكّر الأحداث التي وقعت لها قبل سنّ الخامسة.

كان كل ما تتذكّره هو ذلك اليوم المأساوي الذي انفصلت فيه عن أخوَيْها الأكبر سنّاً. اقتيدت هي إلى سوق النخاسة الخاصّ بالإناث، في حين جُرّ شقيقاها التوأمان البالغان من العمر سبع سنوات إلى قسم الذكور في السوق. كانت ملامح وجهها الدقيقة وسمرتها الفاتحة نسبياً هي التي جعلتها وآخرين يعتقدون أنها من أصول إثيوبية أو سواحيلية. وغنيّ عن القول إن فقدان الأعصاب السريع أو "الفْيُوْزْ الضَّارِبْ"، كما تحبّ الخالة كريمة أن تسمّيه، هو نتاج حقيقة مرّة: فلم يكلّف أحد من آل البارودي أو ممّنْ حولهم نفسه أو أبدى أدنى اهتمام بسؤال غالية عن قصّتها:

"كانت هدية الزواج التي حصل عليها والدي من شقيقته الكبرى علياء، عندما ذهب لزيارتها في جَدّة عام 1896". كانت هذه هي الجملة التي طالما كرّرتْها خالاتي وأخوالي على مسمع من غالية دون أدنى تفكير.

لم يدرك أحد، حتّى خالتي كريمة معبودة غالية، مدى الألم والحسرة التي تتسبّب بها تلك الجملة القصيرة.

"هدية زفاف".

كلمتان فَقَط اختصرتا قصّة حياتها.

نقطة، آخر السطر.

أمّا الحادثة التي أخرجتْها عن صوابها، وأفقدتها أعصابها، فكانت عندما شكّكت خالتي إسعاف في الذكريات القليلة التي كانت ترويها غالية عن طفولتها:

"بِيكَفِّي تِخْتِلْئِي نِصَصْ مِنْ رَاسِكْ، يا غالية، كِنْتِ صْغِيْرَة، وشُو بِيْزَكّرِكْ"؟

آلمت الملاحظة العابرة هذه غالية، وأبكتْها ليل نهار. هربَتْ إلى غرفتها، وامتنعتْ عن الكلام والطعام يومَيْن كاملَيْن رغم أن خالتي إسعاف لحقتْها، وادّعت أنها كانت تمازحها فقط. حاولت كل من ساجدة وفاطمة تهدئة غالية، ولكنْ، عبثاً.

استغرق الأمر بعض الوقت والجهد من خالتي كريمة التي عملت كل ما بوسعها لمراضاتها: "تعالي، يا حبيبتي غالية، لا تستمعي إلى أختي إسعاف، فما الذي تعرفه أصلاً؟!" قبّلت الخالة كريمة جبهة غالية، وجرّتْها من سريرها إلى المطبخ، وأطعمتها بيدها المهلبية مع القطر، الحلوى المفضّلة لغالية.

"لا شكّ أن خيال غالية خصب، وأكثر من خصب، لو كانت تُتقن القراءة والكتابة لأصبحت روائية عالمية بشهرة إميلي برونتي". قالت خالتي إسعاف لزوجة أخيها الإنجليزية أميمة عندما أثارت هذه الحادثة زوبعة صغيرة، تبعتْها بعض النقاشات في الطابق العلوي. أضافت أميمة الإنجليزية:

"لا أعرف كيف ومن أين تأتي بهذه القصص الغريبة العجيبة؟ كباقي أطفال العائلة صدّق ابني عطا كل ما روت لهم غالية، وأجرؤ على القول بأن قصصها عنصرية ومليئة بالصور النمطية".

اعترضت الخالة كريمة بشدّة: "عنصرية! كيف يمكن لها أن تكون عنصرية عندما تكون هي نفسها سوداء؟"

أصرّت زوجة خالي أميمة المثقّفة: "مَنْ قال إن عليكِ أن تكوني بيضاء، لكي تكوني عنصرية؟! كُثُرٌ هم السود الذين تقمّصوا قِيَم أسيادهم البيض؟" وعندما سئمت خالتي كريمة من النقاش، ولازمت الصمت، تقدّمت أميمة بحلّ وسط:

"إذا كانت القصص التي ترويها للأطفال حقيقية، فالحقيقة أغرب من الخيال. وأمّا إذا كانت من نسج خيالها، فخيالها ليس بعيداً عن واقعها الأليم".

لم يتمكّن أحد من الصغار، الذين غالباً ما يتجمّعون حول غالية وفوقها للاستماع إلى قصصها المثيرة، ولا حتّى الكبار البالغين، أن يكتشف ما إذا كانت مغامرات غالية من صنع خيالها أم من الواقع المرّ الذي تعرّضت له. ما حيَّر الصغار والكبار على السواء هو دموع غالية التي كثيراً ما رافقت قصصها "المختَلَقَة". وهل كانت الشخصيات السِّحْرِيّة التي ابتدعها خيال غالية حقّاً إخوتها، وأمّها، ووالدها، وعائلتها، وبلدها؟!

الشيء الوحيد الذي أجمعوا عليه هو أن الطفلة الصغيرة المختَلَقَة أو الخيالية، والتي تُدعى لالا، والتي تظهر في مغامرات غالية جميعها، كانت غالية نفسها. كان خيالها الجامح هو ما فتن أطفال آل البارودي والجمل، وجعلهم يتحلّقون حولها لساعات.

ورغم إنهاكها، إلا أن الغفوة القصيرة التي حظيت بها غالية مباشرة بعد الوليمة الكبرى، حسّنت مزاجها، وأحيت الألف حكاية وحكاية عن "أرض بعيدة تُدعى أرض الزولو". بعدما غطّ الكبار في النوم، فارق أطفال عائلة البارودي والجمل أمّهاتهم وآباءهم الناعسين، وتسلّلوا إلى المطبخ، ليجلسوا في حضن غالية، ويتسلّقوا كتفَيْها أو يجلسوا بجوارها، يستمتعون بدفئها ودفء وجاق الطبخ، وهي تروي لهم مغامرات وأحداثاً عجيبة.

"أين وصلنا يوم الجمعة الماضي؟" سألت غالية دائرة الأطفال من حولها.

أجاب الأطفال على الفور: "عندما خالفت لالا وشقيقها أوامر أمّهما، وذهبا للّعب بالقرب من شاطئ البحر الخطر".

"آه، نعم"، قالت غالية قبل أن تذهب في غيبوبة الزولو الخاصّة بها:

"كما قلنا يوم الجمعة الماضي، راقبت لالا بسعادة جيجي ودامو، شقيقَيْها التوأم البالغَيْن من العمر سبع سنوات يتسلّقان شجرَتَي جوز هند متجاورَتَيْن. وبعد أن انتظر الصبيّان لأيّام طويلة حتّى تصل الرياح القوية إلى أعلى قمم أشجار جوز الهند، تسابقا للصعود إلى أعلاها. ربط كل منهما قَدَمَيْه بحبل، واحتضنا الجذع بذراعَيْهما، وتسلّقا إلى أعلى، ثمّ أعلى.. حتّى وصلا إلى قمّة شجرَتَيْن

تتمايلان للأعلى والأسفل، وعلى الجانبَيْن. وصلت ضحكاتهما وضحكات أختهما عنان السماء..".

وكذا ضحكات أطفال عائلة البارودي.

"وبما أن لالا كانت فتاة، والبنات لم يكنّ قروداً مثل الصبية الصغار، فقد راقبتْهم بكل حواسّها وهم يستمتعون بالريح تؤرجحهم، إلى أن وصلت العاصفة نهايتها، وعمّ السكون. ثمّ على عكس تعليمات الأمّ الصارمة وتحذيراتها العديدة، فإنها قصدت مع أخوَيْها الأصغر سنّاً منها بسَنَتَيْن الأراضي الضحلة والشطآن المحرّمة. كان تسلُّق أشجار جوز الهند يمثّل مغامرتهم المفضّلة.

بعد فترة وجيزة من قطف الولدَيْن بعض ثمار جوز الهند، سمعت لالا الصغيرة صرخة زاعقة من قمّة إحدى الأشجار. عرفت أنه كان جيجي:

"لالا، لالا" صرخ باسمها بأعلى صوته، ثمّ أضاف: كولانغاليا نيوما،كوكيمبيا.. كوكيمبيا كوا هاراكا كاما أوناويزا، كويندا كومباندا كوكيمبيا نا كاما ميتيرمكو ميكالي.

قال جيجي لأخته لالا بلغة الزولو: "انظري خلفكِ، انتبهي! اركضي... اركضي بكل سرعتكِ، اصعدي التّلّة نحو المنحدرات الحادّة، اركضي"!

سأل عطا الصغير: "غالية، ما هي لغة الزولو؟"

"إنها اللغة التي يتحدّث بها الناس في بلد بعيد يُسمّى الزولو".

سألت رحاب: "هل تستطيعين التّحدّث بلغة الزولو؟"

"بالطبع، أستطيع: كوكمبيا.. كوكمبيا كوا هاراكا، كوانغاليا نيوما كويندا كوباندا كوكمبيا نا، كاما أوناويزا ميتيرمكو ميكالي، قالت غالية وعلى وجهها ابتسامة عريضة، بينما كان الأطفال يتدحرجون على الأرض من الضحك جرّاء اللغة التي اخترعتْها.

قال رائد: "المزيد... المزيد".

"يكفي حديثاً بلغة الزولو، ألا تريدون سماع بقية القصّة ومعرفة ما يحدث للأطفال الذين لا يطيعون أمّهم؟" وهنا ساد الصمت التّامّ، وتابعت غالية:

"أدركت لالا أنها مسألة حياة أو موت، وصرخت صرخة رعب، ارتدّت في كل ركن من أركان أراضي الزولو. ركضت سريعاً بقدر ما سمحت لها عضلاتها اليانعة والمشحونة بالخوف. ووفقاً لتعليمات شقيقها جيجي، ركضت بأقصى سرعة سمحت بها رجلاها المرتجفتان نحو التلال المنحدرة والهضبة بعيداً عن شاطئ البحر، بعيداً عن الشرق الذي أتى بالشّرّ كله".

استفسر عطا نصف الإنجليزي: "لماذا يأتي الشّرّ من الشرق؟"

أجابت غالية "إذا حافظتَ على صمتكَ قليلاً، يا عطا، فستعرف عمّا قريب لماذا"، ثمّ تابعت "لم تستطع لالا التي ركضت محاولة النجاة بحياتها سوى أن تنظر خلفها، فتعثّرت، وسقطت أرضاً، ولكنها نهضت بسرعة، ليتجسّد أمامها أسوأ كوابيسها، وترى بأمّ العين ما درجت أمّها وغيرها من أفراد قبيلتها على وصفه والتحذير منه. وها هما الرجلان، الأوّل ببشرة فاتحة، يرتدي دشداشة بيضاء وعمامة رملية اللون، بينما ارتدى رجل "الزولو" الأسود قطعة قماش سوداء وصفراء ملفوفة على وسط جسده مظهرةً رجلَيْه النحيلَتَيْن. حينها فقط أدركت لالا تهديدات رجل الزولو: "إذا توقّفتِ، لن نؤذيكِ، لكنْ، إذا هربتِ، فسوف نطاردكِ بالقوس والنّشّاب". اختلطت تهديداته المتكرّرة مع تعليمات شقيقها:

"لا تستمعي إليهما. انجي بحياتكِ. اهربي، يا لالا، اهربي!" صرخ جيجي يائساً قبل أن ينهار باكياً.

أدرك من موقعه وهو معلّق في أعلى الشجرة أنه وأخاه الأبكم سيُقبَض عليهما قريباً. كان رجلان ضخمان ينتظرانهما أسفل أشجار جوز الهند.

سألت مروة: "هل كان شقيق لالا أبكم؟"

"نعم، كان أبكم" توقّفي عن طرح الأسئلة، استمعي فقط إلى نهاية القصّة. ضاقت غالية ذرعاً بالمقاطعات المستمرّة للأطفال الصغار:

"ركضت لالا المسكينة، إلى أن تقطّعت أنفاسها، فأخذت منعطفاً حادّاً، واختبأت خلف الصخور الضخمة. جمدت كتمثال عندما كان الرجلان يدوران حول نفسَيْهما باحثَيْن عن المكان الذي توارت فيه. شعرت بالهلع من عُلُوّ أصوات أنفاسها التي ستكشف مكانها، فتسلّلت على رؤوس أصابعها إلى أحد الكهوف العديدة المنتشرة في تلك المنطقة التي تعرفها جيّداً. إنها الكهوف نفسها التي لجأ إليها فيما مضى العديد من أفراد قبيلتها رجالاً ونساء وأطفالاً. نجا البعض بأعجوبة، لكن الغالبية العظمى، كما نعرف جميعاً من التاريخ، قُبِض عليهم. وبينما كانت لالا جالسة في ركن منزوٍ، وصلتْها عبر ظلام الكهف العميق أصوات الرجلَيْن ولهاثهما. تحدّثا بلغة، لم تفهمها. كرهت تلك اللغة وكل مَنْ تحدّث بها.

قالت جميلة الشّابّة الشقراء ذات العينَيْن الزرقاوَيْن بلهجة عربية ثقيلة:

"غالية، غالية، أرسلني جِدُّو نعمان لأخبركِ أنه وتِيْتِة بسيمة قد استيقظا، وهما جاهزان لتناوُل القهوة". أظهرت ابتسامة جميلة الرقيقة جمالها الخلاب. وكونها الحفيدة الأولى، فقد أطلق عليها والداها اسم جميلة، اسم على مسمّى، فقد كانت جميلة بالفعل.

ساعد حضور جميلة غالية على الخروج من زاويتَيْها المظلمَتَيْن.

"أيّها الأطفال، لماذا لا تذهبون الآن، وسنواصل مغامراتنا يوم الجمعة المقبل؟ سأخبركم كيف تمّ إلقاء القبض على لالا وشقيقَيْها، وكيف تمّ وضعهم في قارب، نقلهم إلى جَدّة، ليُباعوا عبيداً".

سأل عطا الذي يبلغ من العمر أربع سنوات: "ما هو العبد؟"

أجابت غالية وهي تهمّ بالوقوف والذهاب لتحضير جولات قهوة ما بعد القيلولة: "العبد هو الهدية، والهدية هي أنا".

وضعت غالية ركوة القهوة النحاسية الضخمة على موقد الخشب، وتاهت في أفكارها وحدها.

"كرمال الله، يا غالية، ألا ترين أن القهوة تنسكب على الموقد؟" لم يكن من الواضح ما إذا كانت كلمات فاطمة الموبّخة أو الروائح النّفّاذة للقهوة هي التي جعلت لالا تستعيد وعيها.

"يِيْ علينا! نعم، نعم، آسفة، ها هي القهوة حاضرة. خذيها، خذي الجولة الأولى من القهوة"، بدأت غالية في صبّ القهوة في الفناجين الصغيرة التي صفّتها فاطمة ببراعة على طول الصواني.

الجزء الرابع

دمشقيَ (1957-1962)

أنا ونورما

الفصل الخامس عشر

أربعينية جِدُّو نعمان

كنتُ في التاسعة من عمري عندما توفّي جِدُّو نعمان. وأكثر الذكريات جمالاً ووضوحاً في ذهني هي ذكرى وفاته، ولكي لا يُساء فهمي، ولأكون أكثر دقّة، فإنني أعني احتفالات ذكراه الأربعين وطقوسها. فأربعينية جِدُّو كانت أشبه بحفلة كبيرة أو حفل زفاف.

أسوأ ما في الأمر، على الأقلّ بالنسبة إلينا معشر الصغار، هو منعنا من مشاهدة التلفاز الجديد علينا أو الاستماع إلى الراديو. أتذكّر بوضوح كيف شاهدنا ميكي ماوس سرّاً، وبلا صوت، إذ خفضنا الصوت إلى الحدّ الأدنى. وكيف صرخت خالتي ليلى موبّخة عندما قام أخي باسل (أحد المعجبين الكبار بميكي ماوس)، عن طريق الخطأ برفع الصوت إلى أقصاه.

عدد الأشخاص الذين جاؤوا للاحتفاء بأربعينية جِدُّو نعمان كان على الأقلّ ضعف أو ثلاثة أمثال الذين قدموا قبل بضعة أشهر فقط لحضور حفل زفاف جميلة أوّل أحفاد جِدُّو نعمان وأقربهم إلى قلبه. كانوا أكثر احتفاءً بأربعينية جِدُّو من زفاف جميلة.

ولمَ لا؟ أليس موت المرء أكثر أهمّيّة من حفل زفافه؟

ألا يُعدّ فقدان المرء حياته أهمّ من فقدانه حرّيّته؟

الاختلافات الوحيدة بين الحدثَيْن كانت في نوع الموسيقى والرقص، بالإضافة إلى نوع المشروبات المقدَّمة. ثملت شقيقتي نانا البالغة من العمر خمسة عشر عاماً وابنة خالتي

نورما خلال زفاف جميلة من رشفات بقايا الشمبانيا. ودخلتُ أنا في شبه غيبوبة مع العشرات من الراقصين الصوفيّيْن في أثناء أربعينية جِدُّو نعمان.

ظلّت البوّابة الخشبية الضخمة "التي يسمح حجمها بدخول فارس على حصانه" مفتوحةً على مصراعَيْها في ذلك اليوم ترحّب بالزّوّار. تدفّق الناس عصر أربعينية جِدُّو نعمان في موجات إلى فناء قصره عبر زقاق الصواف الضّيّق المكتظّ. امتلأ كل ركن وزاوية في القصر بالخلق: رجال ونساء، كبار وصغار. لم تخلُ أي غرفة في القصر من الناس. أتذكّر بوضوح كيف كنتُ وكان أخي باسل، بالإضافة إلى العشرات من الأطفال الآخرين، كرات تتحرّك من مكان إلى آخر، صعوداً ونزولاً بين الطوابق المختلفة، ندخل ونخرج متسلّلين إلى مختلف الغرف، متنقّلين من زاوية إلى أخرى في أرجاء المنزل.

لا يسعني إلا أن أقول إن أربعينية جِدُّو نعمان كانت مهرجاناً مثيراً.

شغلت النساء الغرف الداخلية، بينما امتلأت القاعات الخارجية بالرجال.

أشخاص يقدّمون القهوة، وآخرون يشربون.

أشخاص واقفون، وآخرون جالسون.

بعضهم يبكي، وبعضهم يضحك.

أشخاص أصواتهم عالية، وآخرون صامتون.

أناس همسوا، وهسهسوا، وآخرون تلفّتوا.

وأخيراً وصل اليوم ذروته. جاء الأُوْزِي. الأكلة الاحتفالية التقليدية التي تُقدَّم عادة في حفلات الزفاف والجنازات وأربعينيات الموتى. تُصنَع هذه الصُّرر الكبيرة من رقائق العجين المَحشوَّة بالأرز والبازلاء، وقطع اللحم المتبّلة، والصنوبر واللوز، ثمّ تُوضَع مسبَّقاً في فرن الحطب لخَبْزها. رائحة الأُوْزِي المقرمشة التي وُضعت في صوانٍ ضخمة، تنتقل عبر الفناء، وتتخطّاه مشوّشة على كل مَنْ هناك. سرعان ما جُنّد جيش من الأطفال والمراهقين لتوزيع أطباق، يحتوي كل منها على صرّة أُوْزِي واحدة، ووعاء فخّاري صغير من اللبن وملعقة. اعتذر بعض الناس بأدب جمّ، وطالب آخرون بأطباق إضافية، على نحو تخطّى حدود الأدب، في حين وصل الكثيرون كجيراننا في الوقت المحدّد لتناوُل الأُوْزِي. لم يأكلْ هؤلاء بشهية كبيرة وحسب، بل تمكّنوا أيضاً من أخذ عدد من صُرر الأُوْزِي، واختفوا. كانت فكرة إطعام المحتاجين وحتّى الجشعين جزءاً لا يُجتزأ من طقوس ذكرى الأربعين.

كان أكثر ما أثار دهشتي في أربعينية جِدُّو نعمان أداء فرقة المولوية، العرض الراقص للدراويش الصوفيّيْن. ما زلتُ مأخوذة حتّى بعد خمسين سنة بهذه الرقصات، ما زالت موسيقاهم في أذني، وما زلتُ أذكر بوضوح كل حركة راقصة، كما لو أنها حدثت بالأمس. وصل دراويش المولوية بمجرّد انتهاء ضجّة الأُوْزِي، وانتهاء العديد من جولات القهوة المُرّة.

جلستُ أخيراً على السلالم المُطلّة على الفناء منهَكَة حاملة طبق أُوْزِي في حضني، بعدما ساعدوني على المرور بين عشرات الصواني. نقرتُ فتحة صغيرة في العجينة المقرمشة، وأخذت بتناوُلها. كنتُ مشغولة في الوصول إلى اللوز والصنوبر من صرّة الأُوْزِي عندما وصل فجأة خمسة موسيقيّيْن. أمسك كلّ منهم بآلته الموسيقية، نايان وعود وطبل ودفّ. جلسوا بسرعة على كراسيّهم في الليوان، الجزء المغطّى من الفناء. وضع أحدهم آلة موسيقية أشبه بالطاولة أمامه مباشرة، وجلس على كرسيّ خلفها. علمتُ لاحقاً أن هذه الآلة تُدعى القانون، وأصبحتْ منذ ذلك اليوم آلتي المفضّلة.

عزف كلّ من الموسيقيّيْن بعض النوتات قبل أن يتقدَّم أحدهم، ويصدح بالغناء. شيء ما في إنشاده ملأني حزناً. وفجأة شعرتُ بالأسى الشديد على موت جَدّي. ساد الصمت في أثناء غنائه. استمعتُ بعناية شديدة إلى الكلمات التي كان يردّدها، ولكنني لسبب أو لآخر لم أستطع فهمها. وعلمتُ لاحقاً أنها كانت كلمات تركية. عندما سألتُ أمّي إذا ما كانوا يغنّون باللغة التركية، لأن أمّ جِدُّو نعمان كانت من إسطنبول، ضحكت وقالت: "لا، يا حبيبتي، الدراويش يغنّون دائماً بالتركية". كانت تلك طريقة أمّي في ألا تشرح شيئاً! تمكّنتُ مع ذلك من فهم بعض الكلمات العربية في بحر من العبارات التركية، وكانت العبارة: رسولي، يا حبيب الله، هي كل ما فهمتُ منها.

تأثّرتُ وكنتُ على وشك البكاء عندما سار شيخان مهيبان إلى وسط الفناء. تحرّكا ببطء، ووقفا في منتصف تلك المساحة المفتوحة أمام الموسيقيّيْن الخمسة، وبادروا جميعاً بالانحناء مرّة ومرّتَيْن. جاءت بعد فترة وجيزة فرقة من عشرة أو اثنَي عشر شابّاً، يرتدون ملابس جميلة، بعضهم صغار، وشكّلوا نصف دائرة. كانوا جميعاً يرتدون ملابس سوداء طويلة مطرّزة، تغطّي التنانير البيضاء. يتطابق لون حزام القماش العريض تماماً مع الأحذية الجلدية السوداء القصيرة. ولكن أكثر ما أثار دهشتي كان القبّعات المخروطية البنّيّة التي يرتديها الجميع، باستثناء الشيخَيْن الأكبر سنّاً، اللذَيْن كانا منحنيَيْن بزاوية غريبة.

كان الشّبّان مع استمرار الإنشاد يُلقون عباءاتهم السوداء على الأرض، ويتحرّكون ببطء لإغلاق الدائرة. يتواجه كل اثنَيْن منهم بين الحين والآخر، وينحنيان لبعضهما. وعندما يمرّان بالشيخ الكبير، يتوقّفان، ومن ثمّ ينتقلان للوقوف بجانبه مباشرة، وينحنيان. يقترب الشيخ ردّاً على هذه الحركة، ويهمس بشيء في أذنَيْهما أو يقبّل رأسَيْهما. بعد هذا الطقس يصالب كل شابّ ذراعَيْه، ويضع راحَتَيْه على كتفه، ويأخذان بالدوران. يمدّ كل واحد ذراعَيْه على نحو تدريجي كبتلات الزهور، ويضعهما على كتفَيْه، ويستمرّ في الدوران. يوجّه ذارعه اليمنى نحو السماء، منسجماً مع حركة الآخرين، بينما ذراعه اليسرى وعيناه مثبّتتان نحو الأرض. يستمرّ الدوران السِّحْرِي والاندفاع للأجساد الاثني عشر والإنشاد الإلهي في دورات متكرّرة لساعات.

داروا لساعات حتّى تساموا وحلّقوا وتماهوا مع خالقهم. لا بدّ أنني قد غفوتُ دون أن أدري في مرحلة ما، وحُملتُ إلى سريري، وسرعان ما تماهيتُ مع الوسادة الحنونة والفراش الناعم.

جِدُّو نعمان (1862-1960)

يقول المثل إن "الأب هو أوّل بطل لابنه، والحبّ الأوّل لابنته"

بالنسبة إلى أمّي، كان جِدُّو نعمان حبّها الأوّل والأخير.

من حكايات الأسرة وإشاعاتها والقصص الكثيرة المنسوجة حولها أن جِدُّو نعمان كان "واحداً من أغنى التّجّار في دمشق". وبما أن دمشق كانت واحدة من أغنى المُدُن في بلاد الشام (التي تمثّل اليوم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين)، فإن هذا يعني إمّا أنه كان في الواقع غنياً جدّاً، أو على الأرجح، كان لأمّي وأشقّائها قدرات عالية على المبالغة.

أدركتُ في مراحل لاحقة من حياتي، أن لأمّي قدرات جمّة على نسج الخيال، وتحويله إلى واقع خاصّة عندما يتعلّق الأمر بعائلتها. ويتجلّى ذلك بأبهى صورة عندما تصف أباها المثالي. فماذا تقول وكيف تتصرّف مع أمّ كانت تكرّر مقولتها: "عندما يكون أبي عارياً، يبدو وكأنه تمثال يوناني منحوت من رخام كرارا الأبيض؟!".

كانت هذه أوّل، وبالتأكيد أغرب، طريقة للتّعرّف على الحضارَتَيْن اليونانية والرومانية.وبما أنني كنتُ في التاسعة

من عمري عندما توفّي جِدُّو نعمان في عام 1960، وبما أنني أتذكّره جيّداً، لم أعتمد كلّيّاً على قصص أمّي المهووسة به.

لم يكن جِدُّو نعمان افتراضياً بأي حال من الأحوال، بل كان حقيقياً. كان جَدّاً حقيقياً، وأباً حقيقياً، وزوجاً حقيقياً، وسيّداً حقيقياً، ليس فقط مع الخادمات والعبيد الذين عملوا في قصره، بل مع شقيقاته الخمس وعائلة البارودي بأكملها. أستعيده رجلاً أنيقاً دمثاً عذب الكلام، حسن المظهر، وطويل القامة بجسد متين، ووجه نحيل رقيق الملامح، وذقن حليقة، وعينَيْن زرقاوَيْن، وبشرة بيضاء، تُعزى إلى تحدّره من أمّ تركية. أتذكّر بدلاته الرائعة بألوانها الثلاثة الفاتحة، والسترات الطويلة حتّى الركبة، مع عمامة بيضاء ملفوفة حول طربوش أحمر اللون، وغالباً ما كانت تغور عيناه الصغيرتان العذبتان العميقتان في ثنايا ابتسامة أكثر عذوبة. ورغم وسامة جِدُّو نعمان إلا أنه لم يورث بنيته الجسمانية لأيّ من أولاده، بل كان الشيء الوحيد الذي تمكّن من منحهم إيّاه، ولكامل ذرّيّته - باستثنائي - شهيّته الكبيرة للجنس. وقد تعرّفنا على العواقب المأساوية لهذا سابقاً.

نعم، كان من بين أوائل مَن امتلك سيّارة أولدزموبيل في أوائل عشرينيات القرن العشرين. ويقال أيضاً إن جِدُّو نعمان، الذي كان تاجر أخشاب، كان أوّل مَن امتلك مصنعاً للثلج. وقد حقّق ثروة كبيرة قبل الكساد العظيم عام 1929.

وهكذا سمحت له ثروته بشراء قصر البارودي أحد أروع قصور القرن الثامن عشر في مدينة دمشق القديمة.

ولكنْ، قبل أن أبالغ مثل أمّي، لا بدّ لي من القول إنه أُشيع أن ثروة جِدُّو نعمان اختفت فجأة، وعلى نحو غير متوقّع، لكونه الضامن لابني عمّه سالم ومروان التميمي، وهما تاجران آخران من التّجّار الدمشقيّيْن الأغنياء، وقد أفلسا. وهذا يفسّر لماذا جُرّدَت غرف الاستقبال جميعها الخاصّة بالقصر بالكامل في الفترة التي ترعرعتُ فيها هناك – القاعة الفوقا والصالة - من أي أثاث أو ديكورات ومفروشات. لم نطرح أي سؤال حول هذا عندما كنّا أطفالاً، وعندما كبرنا لم يتحدّثوا أمامنا أبداً عن هذا الفصل الحزين من حياة جِدُّو نعمان وحياتهم.

صدّقتُ، مثل معظم أحفاد جِدُّو نعمان، كل ما قالته أمّي، وخالاتي، وأخوالي لنا وللآخرين عن ثروة والدهم وروعته وفضائله. صدّقتُ هذا كله، ليس بسبب طبيعتي الساذجة وحسب، بل أيضاً بسبب أن:

جِدُّو كان أسطورة

جِدُّو نعمان البارودي وُلد قبل وقت طويل، طويل

وقت طويل جدّاً

لم يُولَد في القرن الذي وُلدتُ أنا فيه

بل قبلي بقرن، أي في أواسط القرن التاسع عشر

لو قُدّر لي أن أعيش بقدر ما عاش جَدّي، فإن حياتي وحياته ستمتدّان نحو قرنَيْن:

1862 – 2050

توفّي عام 1960، كان في الثامنة والتسعين، وكان عمري تسع سنين.

الفصل السادس عشر

الراء الضائعة (دمشق 1958)

كنتُ في الصّفّ الأوّل، وعلى وشك تقديم أوّل امتحان في حياتي. كانت المادّة هي الإملاء، والموضوع هو الحمار.

أرعبني الأمر، ليس بسبب الآنسة هلا المستبدّة وحسب، بل خفتُ أكثر من خالتي كريمة التي كانت تدرّس اللغة الإنجليزية في المدرسة نفسها، وليس لأنها كانت قاسية ومرعبة مثل الآنسة هلا، بل على العكس من ذلك، كانت خالتي كريمة أكثر الخالات كرماً وصبراً ومحبّة على وجه الأرض. ملأني الرعب من ارتكاب أي أخطاء إملائية، لأنها أمضت وقتاً طويلاً معي تُدرّبني على إتقان النّصّ الخاصّ بذلك الحمار الصغير اللطيف.

عندما كان قلبي الصغير يخفق بسرعة، تردّدتْ كلمات خالتي كريمة في رأسي المضغوط "لولو حبيبتي، أريدكِ أن تحصلي على درجة كاملة، مئة من مئة، دون أي خطأ واحد. اتّفقنا، مفهوم؟ بعد أن أمضيتُ هذه الساعات الطويلة في نصف الصفحة تلك، التي تصف الحمار الحيوان الرائع بخطّ عربي جميل، كنتُ واثقة تماماً من أنني سأحصل على الدرجة الكاملة.

لكنني لم أفعل.

اكتشفتُ بعدها بعقود بأنني مصابة بعسر القراءة على نحو خطير. ولكن عسر القراءة غير المشخّص هذا لم يكن السبب في وقوعي في ورطة في ذلك اليوم.

كان شهر أيلول 1958 بداية العام الدراسي في دمشق. أرسلتْنا أمّي، أختيَّ الأكبر سنّاً وأنا، إلى بيت جِدُّو في

دمشق. بينما كانت شقيقتي الكبرى مروة في الخامسة عشرة، كانت نانا في الثالثة عشرة من عمرها، وكنتُ في السادسة. قالت والدتي عندما قبّلتْني قبل يوم من انطلاقنا إلى هناك "ستبقين مع خالاتكِ حتّى تستقرّ الأمور في عمّان".

اعترضتُ بشدّة والدموع تبلّل وجهي الحانق: "إذا كان الوضع خطيراً هكذا، فلماذا تُبقين باسل معكِ في عمّان؟". تجاهلتْ والدتي تعليقي، لأنها كانت منزعجة ومشغولة بأمور أكثر خطورة.

"ليلة سعيدة، يا لولو. فلتنالي قسطاً من النوم الآن، ستأتي سيّارة الأجرة في الصباح الباكر". انتبهتُ كم كان صوت أمّي عصبياً وحزيناً ومتعباً في ذلك المساء، وفي كل مساء منذ أن أُلقي والدي في السجن قبل بضعة أسابيع.

عندما كنتُ طفلة (وحتّى عندما كبرتُ) لم أعترض على الذهاب مبكّراً إلى الفراش، لكنني طالما كرهتُ الاستيقاظ باكراً. انسللتُ إلى السرير في النهاية، وبالكاد أغمضتُ عينَي.

كنتُ أرغب بشدّة في أن يأتي أخي باسل، الذي يكبرني بسنة إلى دمشق. لم أستطع تخيّل الحياة من دون اللعب مع مَنْ هو بعمري. والأهمّ من ذلك أنني لم أتمكّن من تخيّل حياتي دون ألعابه المرعبة والمثيرة للهلع. صرخ بينما كنتُ أركض ناجية بحياتي: "لولووو اهربي بسرعة، لقد أتاكِ الوحش من الخلف، سيُمزّقكِ إِرْبَاً إِرْبَاً، ويأكلكِ بلقمة

واحدة". بعد بضع جولات من الجري داخل البيت، كنتُ سأخرج من الباب إلى الحديقة، ولو لم يمسك بي حينها، كنتُ سأهرب عبر السلالم الطويلة إلى شارع منكو. ضحكتُ وبكيتُ واستنفدت طاقتي كلها، إذ لم أدرك إن كان ذاك أخي بالفعل أو وحشاً حقيقياً ذاك الذي يسعى خلفي ليُمسك بي، وليقبض عليّ في النهاية، ويوقعني أرضاً.

يا إلهي، سيُغمى عليّ.

لقد بكيتُ كثيراً في تلك الليلة.

بكيتُ لأنني أردتُ أن يرافقني أخي باسل إلى دمشق.

بكيتُ لأنني اشتقتُ إلى أبي.

بكيتُ لأن والدي سُجِن مثل أغلب رجالات شارع منكو، ولم أفهم السبب.

"لقد ألقوا والدكِ في السجن، لأنه سرق البندورة".

صرختُ في وجه نبيل البالغ من العمر خمس سنوات "مستحيل! أبي رجل طيّب وأمين، ولا يمكن أن يسرق، وخصوصاً البندورة!" لقد دافعتُ عن والدي حبيبي، وعدتُ إلى بيتي راكضة أشكو لأختي نانا التي ابتسمت في وجهي، وأخبرتْني قصّة طويلة وغير مفهومة:

"لا، حبيبتي لولو، لا تستمعي لنبيل الصغير السخيف، فما الذي يعرفه حقّاً؟ والدنا سجين سياسي. والدنا يساري، ليس قومياً عربياً تماماً، وليس شيوعياً تماماً، ولكنه قريب جدّاً من الحزب الشيوعي. والدنا رجل يحبّ بلده، ولكن الأهمّ

من ذلك أنه مثل كثيرين غيره، ضدّ حلف بغداد. هل تعرفين ما هو حلف بغداد؟ سأشرح لكِ: قبل ثلاث سنوات في عام 1955، أعلن حلف بغداد أن... بلا... بلا... بلا... سينتو، وهو...بلا...بلا... ووالدنا مثل كثيرين آخرين في الأردن اعترضوا على انضمام الأردن إلى الحلف الذي أنشأه الأمريكيون. ونتيجة لذلك، ادّعى الملك حسين أنهم كانوا ينظّمون انقلاباً ضدّه، وبالتالي اعتقلوا معظم النشطاء السياسيّيْن: والناصريّيْن والشيوعيّيْن واليساريّيْن أو أي شخص آخر عارض حلف بغداد. أُرسلوا جميعاً إلى سجن الجفر (سجن الإتشفور). لكنْ، لا تقلقي، يا حبيبتي، فعاجلاً أم آجلاً سيعود والدنا حرّاً".

لطالما تمتّعتْ أختي بعادة الإطراء والإطالة في التفسير غير المفهوم، ولذا كانت رواية نبيل بالتأكيد أسهل وأقرب لفهمي، رغم أن حكاية سرقة البندورة جعلتْني أبكي، وجعلتْني أمتنع عن أكلها لسنوات قادمة.

نعود إلى الراء المفقودة

"إذنْ، يا بنات! اجلسنَ على مقاعدكنّ، وحضّرنَ مقطع الإملاء والدفاتر. واقرأنَ جميعاً بصوت عالٍ درس الحمار، جاهزات 1، 2، 3، هيّا!".

"اللّلحمار..."

أخذنا نقرأ بأعلى صوتنا الذي كان يرجُّ رؤوسنا، محرّكين أجسادنا الصغيرة ذهاباً وإياباً مع مقطع الإملاء بأصواتنا

الرتيبة، بينما كانت الآنسة هلا تكتبها على السبورة. عندما انتهت، غطّت مقطع الحمار بستارَتَيْن بنّيّتَيْن.

"أغلقنَ الكُتُب الآن، وأبعدنَ النّصّ من أمامكنّ، وافتحنَ الدفاتر"، أطعتُ مرتبكة مثل بقية زميلاتي الخمس والعشرين في الصّفّ.

"اسمعنَ جيّداً، واكتبنَ بخطّ واضح وجميل ما أمليه عليكنّ".

تبدأ الآنسة هلا تلاوة النّصّ ببطء "الحمار..."

"الحمار... هو... حيوان مدجّن، حيوان... إنه... ليس جميلاً... وحسب... بل مفيد... جدّاً أيضاً"، كرّرتْ: "مفيد جدّاً أيضاً".

"ومنذ زمن بعيد... كان البشر... يستخدمون الحمار... ليس كوسيلة نقل فقط... بل أيضاً... لنقل منتجاتهم الزراعية وسلعهم... والحمار القبرصي هو...".

كان قلبي يتوقّف عن الخفقان مع كل جملة، حيث يتردّد في رأسي صوت الخالة كريمة: "لولو، دون خطأ واحد حتّى!"

"حسناً، اتركنَ الأقلام الزرقاء الآن، وأمسكنَ الأقلام الحمراء. ليلى! هل سمعتِ ما قلتُه للتّوّ؟ توقّفي عن الكتابة، واتركي القلم من يدكِ". كنتُ أرتجف. "سوف أكشف السّبّورة، وسوف تقمنَ بتصحيح ما كتبتنّ. حدِّدنَ الأخطاء. عندما تنتهينَ سوف أساعدكنّ في وضع العلامات. أنتنّ تحسبنَ الأخطاء، وأنا أضع العلامات".

كشفت الآنسة هلا نَصّ الحمار على السّبّورة

اللعنة!

لم أصدّق عينَيّ.

لقد أخطأتُ في كتابة الكلمة الأولى!

كانت الكلمة المكوّنة من ستّة أحرف ا ل ح م ا ر ينقصها حرف الراء.

لقد نسيتُ كتابة الحرف الأخير

نعم، لقد كتبت الحما

كانت النهاية مفقودة

غششتُ على الفور، وأضفت حرف الراء. ولكنني ولسوء حظّي ارتكبتُ خطأ فظيعاً، فبدلاً من إضافته باللون الأزرق، أضفتُه بالأحمر.

وانفتحتْ عليّ أبواب الجحيم!

لم يُطلقوا عليّ لقب غشّاشة أمام الصّفّ بأكمله وحسب، بل أمسكتْني الآنسة هلا من يدي، وسحبتْني من وراء المقعد الخشبي، وجرّتني خارج غرفة الصّفّ عبر فناء المدرسة الرطب المعتم حتّى أدخلتْني غرفة المدرّسين التي كانت فيها خالتي كريمة. قرّرت خالتي كريمة، بعد أن ثارت ضجّة كبيرة حول حرف الراء في الحمار، أنه قد حان الوقت لحماية ابنة أختها الصغيرة من الآنسة هالة المتوحّشة، وأخذتْني إلى المنزل مبكّراً.

أمضيتُ فترة الظهيرة بأكملها أبكي، وأعلنتُ أنني لن أعود أبداً إلى المدرسة. وأخذتُ أصرّ على العودة إلى بيتنا في عمّان على الفور. وتوجّب على خالتي كريمة نتيجة لذلك أن تقدّم إليّ الكثير من الرشاوى. أمضيتُ معها طيلة فترة ما بعد الظهر أشتري الشوكولاته والآيس كريم، والكثير من علب علكة التشكلتس، وعصير الليمون اللذيذ من البائع أبو معروف. اشترت لي إضافة إلى ذلك أكبر دمية في سوق الحميدية. أطلقتُ على الدمية اسم نتاشا، اسم قردتنا في عمّان التي اشتقتُ إليها كما اشتقتُ لأخي باسل.

اليوم الثاني في المدرسة

جنّة ونار

لو لم يكن والدي في السجن بالفعل، لكنتُ ظننتُ أن الأستاذ حسن، أستاذ التربية الدّينية، سوف يشي بوالدي للسلطات الأردنية أو للملك حسين ملك الأردن نفسه.

لم يكن لديّ أي فكرة عمّا إذا كان لدينا درس إملاء في ذلك اليوم أو أن خالتي كريمة ستُقنع الآنسة هالة بتجاوز الدرس اليوم. ولا بدّ من القول إنني وعلى الرغم من الرشاوى العديدة التي تلقّيتُها، فما زلتُ مصدومة بمحنة حرف الراء.

كنتُ آمل فقط أن تكون أوّل حصّة تربية دينية مع الأستاذ حسن أقلّ رعباً من امتحان الإملاء الأوّل مع الآنسة هلا.

ولكنها لسوء حظّي لم تكن كذلك.

لم يُلقَ والدي في السجن، بسبب آرائه ومعتقداته السياسية، بل أُلقي في جهنّم أيضاً لعدم إيمانه بالله، وفقاً للأستاذ حسن.

شرح الأستاذ حسن بهدوء شديد مفهوم الجنّة والنار:

"وفقا للإسلام والمسيحية، ربّما ليس في اليهودية، فإن أولئك الذين لا يؤمنون بالله أو الذين تُراودهم شكوك حول وجود الله سيُلقون في جهنّم". فكّرتُ على الفور بأبي، وصرخت: "جهنّم؟"

"نعم، جهنّم وبئس المصير. سوف يُلقون في النار، ويحترقون حتّى الموت".

اعترضتُ على كلامه "يحترقون حتّى الموت! يا إلهي، ما هذا الجحيم؟!".

كنتُ قلقة على والدي المحبوب الملحد. وهمدتُ لفترة قصيرة محاولة امتصاص الصدمة.

"لكنْ، يا أستاذ، إذا كان شخصاً صالحاً وطيّباً ونزيهاً وكريماً وشجاعاً، يحبّ عائلته وأولاده وزوجته، لا يكذب ولا يسرق ولا يؤذي أحداً ومحبّاً لأصدقائه وجيرانه جميعهم، ويتصدّق على الفقراء والمحتاجين، ويحبّ بلده، ويدافع عنه، ولكنه لا يؤمن بالله، هل يذهب إلى جهنّم أيضاً؟"

"نعم. إذا كان لا يؤمن بالله، فسيذهب مباشرة إلى جهنّم".

لا. لا يمكن أن يذهب أبي إلى الجحيم.

جولة الكتب عراقية

"لكنْ، يا أستاذ، إذا كان طيّب القلب، وصادقاً و... و...".

أصرّ أستاذي مؤكِّداً ومشدِّداً على كلمة النار، المرادفة لجهنّم: "توقّفي عن هذا، يا ابنتي، سيرميه الله في النار".

وبما أنني فشلتُ في إنقاذ والدي من جهنّم، وبما أنني سمعتُ أيضاً أن سجن "الجفر" كان حارّاً، فقد تمنّيتُ أن يتمكّن أبي من التعايش مع حرارة جهنّم أيضاً.

خفتُ في أثناء عودتي إلى البيت برفقة خالتي كريمة أن يكون الأستاذ حسن قد أبلغها بما حصل، كما فعلت الآنسة هلا. أحسستُ بأنني سبّبتُ لها بالفعل ما يكفي من المتاعب، ولم أرغب بمشاركتها أوّل نقاش خضتُه في المدرسة، لذلك التزمتُ بالصمت بينما كانت تمسك يدي بإحكام عصر ذلك اليوم. ولأنني لم أكن متأكّدة من موقفها وردّ فعلها حول موضوع الجنّة والنار، فقد اخترتُ أن أُخبر أختي نانا التي أكّدت لي أن أبي كان على ما يرام "لولو حبيبتي، لا تقلقي. إذا لم يكن الله موجوداً، فلا وجود لجهنّم أصلاً".

يا لها من راحة تلك التي منحتْني إيّاها!

أخبرتْني نانا أيضاً أن أبي كان خبيراً في هذا الموضوع "لو بقينا في عمّان، فستدرسين مثلما فعلنا جميعاً كُتُب الأحياء الخاصّة بوالدي، والتي تتحدّث عن الانتخاب الطبيعي لداروين... التّطوّر... القرود... إلخ... إلخ..." لم يكن هناك طريقة لإيقافها عن الكلام. وكما هي الحال دائماً مع شقيقتي نانا، فقد قالت العديد من الأشياء التي لم أفهمها تماماً، الشيء الوحيد الذي لم أحبّه حقّاً هو أن أجدادنا

الأوّلين كانوا قروداً. ولكنْ، أن تكون قرداً أفضل بكثير من إلقاء أبي في النار واحتراقه حتّى الموت.

تساءلتُ عندما غضبتُ في تلك الليلة عمّا إذا كان أمثال "الأستاذ حسن" هم الذين تسبّبوا في سجن أبي.

اليوم الثالث في المدرسة

وبما أنني كنتُ مشغولة بسلامة أبي في هذا العالم، وبمصيره الحتمي في جهنّم، فإنني نسيتُ تماماً ما قالتْه الآنسة فاتنة، معلّمة الفنّ: "تأكّدنَ من إحضار أقلام التلوين الخشبية باثنَي عشر لوناً، منها ما يكون في علبة خشبية، أو معدنية، لا مشكلة لديّ مع أيّ منهما. المهمّ ألا تأتينَ إلى الحصّة في المرّة المقبلة من دونها".

طلبتُ من الآنسة فاتنة أن تكتب لي اسم الألوان على ورقة حتّى أُحضر الألوان المطلوبة، بما أنني لم أسمع من قبل بالألوان الخشبية، كنتُ أنوي إعطاء الورقة لخالتي كريمة عندما أراها في اليوم نفسه. لكنني لم أفعل. لقد نسيتُ تماماً.

كان الوقت قد تجاوز التاسعة مساء بكثير عندما استيقظتُ هَلِعَةً، وقفزتُ من السرير راكضة في الظلام عبر مجموعة كبيرة من السلالم المرتفعة، عبر الفناء الرطب الكئيب، ثمّ مجدّداً عبر مجموعة أخرى من السلالم المؤدّية إلى غرفة المعيشة الشتوية في الطابق الثاني. دفعتُ باب الفرنكة على مصراعَيْه، ووقفت بوجهٍ شاحبٍ وشفتي السفلى مقلوبة، يكلّلني العجز بجوار الباب.

فوجئتْ خالتي كريمة برؤيتي، بينما كانت تمضي أَمسيّتها مع خالتي ليلى، تلعبان البرجيس، وهي الكلمة العربية للعبة (البرسيس) parcheesi، وسيأتي التلفزيون بعد سنة أو سنَتَيْن، ليُلقيها في بئر النسيان، وسألتْني بقلق: "لولتي حبيبتي، ماذا هناك؟ ما الذي جاء بكِ في هذه الساعة المتأخّرة؟" اقتربت منّي، وعانقتْني، وضمّتْني إلى صدرها. وسرعان ما دفّأ صدرها الحنون جسدي البارد. قلتُ بصوت طفولي مرتعش يقارب البكاء وأنا أعطيها ورقة الآنسة فاتنة: "أقلام تلوين خشبية". وقرأت الخالة الورقة بصوت عال.

"لا بدّ أن نخرج على الفور لشراء أقلام التلوين. عليّ أن أُحضرها معي إلى حصّة التربية الفنّيّة غداً، وإلا ستغضب منّي الآنسة فاتنة".

ابتسمت خالتي كريمة وهي تسخر من مدرّستي، وقالت: "الغضب هو الوضع الطبيعي للآنسة فاتنة، لطالما كانت تلك المرأة مجنونة وغاضبة". ثمّ ألقت النرد على القماشة السوداء. "لا أعرف لماذا تتصرّف مدرّسة التربية الفنّيّة على هذا النحو؟! تلك المرأة مجنونة بالفعل!" قالت خالتي كريمة، ثمّ نقلت أحجارها وفقاً للرَّقْم الذي ظهر على النرد.

قلتُ لها: "سوف أرتدي ملابسي، لنخرج ونشتري أقلام التلوين".

"لا، ليس الآن حبيبتي، سوف أشتريها لكِ في طريقنا إلى المدرسة غداً". تملّكني شعور بأن خالتي كريمة لم تدرك

دوحة الكتب حصرية

الحاجة المُلحّة لهذا الأمر، لذا كرّرتُ القول: "لا بدّ لي من شرائها الآن، الليلة، الآن على الفور!"

كرّرت خالتي بصبر، لتُطمئنَني، ولكنْ، دون جدوى:

"لا، حبيبتي لولو، لا يمكننا الذهاب في هذه الساعة المتأخّرة. لقد قاربت الساعة العاشرة ليلاً، والمتاجر كلها مغلقة الآن. سنشتري الألوان في طريقنا إلى المدرسة غداً كما قلتُ لكِ، سيكون هذا أوّل شيء نفعله في الصباح، في الصباح الباكر".

"أريدها الآن!" وضربتُ قَدَمي على الأرضية الخشبية، فاهتزّت الأرضية تحت قَدَمي.

"لولو حبيبتي، أرجوكِ، توقّفي عن هذا. كفى، قلتُ لكِ في الصباح الباكر".

صرختُ مرّة أخرى، وانفجرتُ في البكاء: "لا! أريدها الآن!"

تدخّلت خالتي ليلى بعد أن أدركتْ أنني كنتُ في خضمّ واحدة من حالات عنادي المعهودة، "تعالي هنا، يا فارة، عندما تقول خالتكِ كريمة غداً، فهذا يعني غداً. هل تسمعين؟ توقّفي عن البكاء، وعودي إلى سريركِ فوراً".

توجّب عليّ حينها استخدام تكتيك آخر للفوز بهذه المعركة إدراكاً منّي لخطورة تدخّل خالتي ليلى. أدرتُ ظهري لخالتَيّ، وتوجّهتُ إلى غرفتي لأعود بعد عدّة دقائق مرتدية

ملابسي، وجاهزة للخروج من المنزل. كنتُ هكذا بالفعل: تلك الطفلة العنيدة.

كنتُ مصرّة تماماً بعد اليوم الأوّل والثاني الكارثيَّيْن في المدرسة على عدم الخوض في مشكلة ثالثة مع مدرّسة التربية الفنّيّة.

ما زلتُ أذكر بوضوح كيف كانت الأزقّة المعتمة الضّيّقة مخيفة في حَيّ مدحت باشا ليلاً، وهو الحَيّ المألوف والمزدحم عادة في النهار. لقد استُبدلت حتّى بتلك الرائحة المغرية لمصنع غراوي للشيكولاتة المجاور رائحة كريهة، تنبعث من تلال من القمامة وأكوامها الموضوعة بجوار المداخل، في انتظار أن يتمّ جمعها. كانت رطوبة الأسواق المسقوفة تتسرّب ببطء إلى عظامي. كان جسدي الصغير يتأرجح ذات اليمين وذات اليسار، حيث جرّتني خالتي كريمة بسرعة من يدي، وقد نفد صبرها. أقنعتْني الجولة الطويلة والمرهقة على المحلات المغلقة جميعها حول الجامع الأموي، وكذلك على طول الشوارع الضّيّقة لأسواق البزورية والقيمرية في نهاية المطاف أنه ليس هناك أمل في الحصول على أقلام التلوين قبل الصباح الباكر، كما كانت خالتي كريمة تكرّر من دون توقّف.

وفي الصباح الباكر، كنتُ وخالتي كريمة مرتديَتَيْن ملابسنا وجاهزَتَيْن أمام متجر أبو قاسم للقرطاسية منتظرَتَيْن بفارغ الصبر ظهوره، ليفتح البابَيْن الخشبيَّيْن لمتجره.

مكتبة العائلة العربية

مضيتُ أخيراً ناعسة بجوار خالتي كريمة ممسكة علبة الألوان المعدنية على صدري، في طريقنا إلى مدرستي وحصّة التربية الفنّيّة.

وضعتْ زميلاتي جميعهنّ في الصّفّ كراريس الرسم وعلب الألوان الخشبية المختلفة أمامهنّ في انتظار ظهور مدرّسة التربية الفنّيّة. كنتُ مثل الآخرين متلهّفة للاستماع إلى إرشادات الآنسة فاتنة قبل أن أقوم بملء دفتر الرسم بالألوان الاثنَي عشر التي أمامي الآن.

كم كنتُ متحمّسة لأصبح رسّامةً جيّدة مثل ابنة خالتي نورما التي كانت تجلس لساعات ترسم بورتريهات بالأسود والأبيض لأفراد عائلتنا وأصدقائنا، بالإضافة إلى رسوماتها الزيتية الملوّنة. أحببتُ ما أطلقتْ عليه ألوان الباستيل والألوان المائية التي غصّت بها كرّاسة الرسم لديها. لطالما تساءلتُ لماذا لم تستخدم نورما الألوان الخشبية على الإطلاق؟ ربّما لأنها مثلي لم تسمع بوجودها حتّى وقت قريب. كنتُ آمل أن تجعلني حصص التربية الفنّيّة شخصاً حرّاً ومرحاً مثل نورما. أو كما اعتادت خالتي كريمة أن تدعوها دائماً بمحبّة شديدة: نورما البرّيّة.

كم شعرتُ بالتّحرّر أخيراً لأن حصص التربية الفنّيّة أخذتْني بعيداً، وجعلتني أنسى قسوة الآنسة هلا وحصص الإملاء المرهقة للأعصاب والأستاذ حسن وحكاياته المرعبة التي تنتهي نهايات سيّئة مروّعة.

وأخيراً جاءت مدرّسة التربية الفنّيّة الآنسة فاتنة.

"مرحباً، يا أطفالي الأعزّاء! هل أحضرتنّ جميعاً كرّاسات الرسم والألوان الخشبية؟ جهِّزنَ الألوان الخشبية، وافتحنَ الصفحة الأولى من كرّاسة الرسم". أطعناها جميعاً مع الكثير من الضجيج والحماس، بانتظار المزيد من الإرشادات.

سرعان ما سحبت الآنسة فاتنة كرسيّها من وراء طاولتها، ووضعته أمامها. صَعَدَتْ على الكرسي بكثير من الحيوية على نحو فاجأنا، وكان الكرسي يهتزّ تحتها. كانت على وشك أن تسقط.

صرخنا جميعاً: "ييبي"، ولكن الكرسي والآنسة فاتنة سرعان ما استقرّا، وأخذت الطالبات بالضحك والقهقهة.

لقد استمتعنا بالمشهد، لدرجة إحساسنا بأننا في سيرك، ولسنا في حصّة التربية الفنّيّة.

صعقتْنا الصرخات الهستيرية لمدرسة التربية الفنّيّة، والتي انهالت علينا مثل صوت الرعد: "اخرسنَ! اسكتنَ! وإلا سأنزل وأضربكنّ".

ساد الصمت المطبق والخوف، وانقطع الضحك.

ساد الرعب تماماً.

"والآن! انظرنَ إليّ بعناية، وارسمنَني".

كنتُ آمل كما معظم الطالبات من حولي أن تبدأ الآنسة فاتنة حصص التربية الفنّيّة ببعض التعليمات والإرشادات

حول الرسم، ولكنها كانت تعتقد على ما يبدو أننا فنّانات بالفطرة.

أربكني مزيج الألوان التي كانت ترتديها الآنسة فاتنة في ذلك اليوم. يبدو أنها ترتدي ألواناً تتجاوز الأقلام الاثني عشر الموجودة في العلبة المعدنية التي اشترتْها لي خالتي كريمة يومها.

أحصيتُ الألوان مرتبكة: قبّعة حمراء، وبلوزة زهرية وصفراء وزرقاء، وتنّورة خضراء، عليها زهور برتقالية وبنفسجية، وبنطال بنّيّ وأسود وأزرق غامق، وصولاً إلى حذاء أحمر بكعب عال. لم أتمكّن من معرفة لون الزهرة اللامعة الملفوفة على قبّعتها، إذ لم يكن لونها بنّيّاً ولا برتقالياً، بل كان بين هذا وذاك.

سرعان ما استغرقتُ تماماً في أوّل رسم لوجه في حياتي. لا بدّ من القول إن هناك ما هو مقلق في ملامح وجه "عارضتنا"، وحركاتها المضطربة، وحالاتها المزاجية المتقلّبة. وأكثر ما أخافني الخطّان الأسودان لحاجبَيْها الشبيهَيْن بالأقواس، وعيناها الصغيرتان القلقتان تحتهما. ذكّرتْني النار المنبعثة من عينَيْها بالأستاذ حسن.

مرّت عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة قبل أن تقوم الآنسة فاتنة ببعض الحركات المضطربة، وكانت تنظر إلينا من علٍ مثل القَدَر.

كنّا مشغولات جميعاً، ومركّزات تماماً بتحسين رسوماتنا عندما أخذت الآنسة فاتنة تتمشّى بين صفوف المقاعد التي

كان كل منها يضمّ ثلاث فنّانات صغيرات.

"وْلِيْ، وْلِيْهْ، أنا هِيْكْ شَكْلِي؟ شُو هِيْكْ شَايِفْتِيْنِي بِشْعَة؟"

مرّت لحظات قبل أن تنزل الصفعة على وجه لمياء الصغيرة، ونتعرّف على اللوحة التي أغضبتْها.

صبّت الآنسة فاتنة علينا جام غضبها:

"لَكْ، يا غبية، أنا هِيْكْ شَكِلْ فستاني؟" صفعة!

"ما كِنِتْ أَعْرِفْ إنُّو وِشِّي هِيْكْ مْسَطَّحْ!" لطمة!

"الله يِلْعَنِكْ! هِيْكْ أنا سْمِيْنِة؟" ضربة!

ومع تواصل المجزرة وزيادة عدد الضحايا أدركتُ أن دوري سيحين قريباً.

"هَيْ أسوأ رسمة شِفِتْهَا خلال 12 سنة قضيتها في التدريس. هِيْكْ أنا شِنْعَة؟ لَهَيْ الدرجة؟" وبما أن رسمتي للآنسة فاتنة، تركّزت في معظمها على حاجبَيْها الشّرّيرَيْن، فقد كانت مختلفة عن أي شيء رأتْه في حياتها المهنية، وعليه فإنني تلقّيتُ عقاباً مختلفاً عن باقي زميلاتي.

رفعتُ ذراعَيّ لأستخدمهما كمصدّات تحمي رأسي الصغير، وتمنع الآنسة فاتنة من ضربي على وجهي، فأمسَكتْ ذراعي العارية النحيلة، وفجأة عضّتْني. نعم، لقد عضّتْني بأقصى ما تستطيع. وعندما تمكّنتُ من انتزاع ذراعي بعيداً عن أسنانها، كانت لديّ ساعة زرقاء داكنة مدوّرة على معصمي الأيسر.

عندما أتأمّل كيف أصبحتُ في نهاية المطاف مهندسة معمارية، لا تعرف كيف ترسم خطّاً مستقيماً، أتساءل دائماً ما الذي كان سيحلّ ببيكاسو لو أن مدرّسة التربية الفنّيّة عضّتْه وهو في السادسة من عمره؟!

الفصل السابع عشر

حمّام السبع زوام

لطالما صنّفتُ البشر وفي مرحلة مبكّرة من حياتي إلى فئَتَيْن. أولئك الذين يشبهونني ويعشقون المياه، فهم يحبّون الاستحمام كثيراً، ولأطول فترة ممكنة، والأشخاص الذين يشبهون أخي باسل، ويكرهون المياه، ويتمكّنون بطريقة أو بأخرى من التّسلّل والاختباء كلّما حان وقت حمّامنا الأسبوعي يوم الجمعة. كم كنتُ أتمنّى أن تكون هناك سبعة أيّام جمعة في الأسبوع، أو أكثر، ولكن هذا الحلم لم يتحقّق إلا في مرحلة متأخّرة من حياتي.

ما عوّض عن الاستحمام مرّة واحدة فقط في الأسبوع هو طول مدّة حمّام يوم الجمعة، إذ كان الاستحمام يستمرّ ساعة على الأقلّ، إلى أن تحمرّ أجسامنا ووجوهنا، وتصبح بشراتنا مثل البرقوق، ويرتفع ضغط دمنا إلى حدّه الأقصى، وتتوسّل رئاتنا للحصول على هواء منعش بارد. ولكنْ، في الوقت نفسه، لم يكن هناك طريقة للخروج من هذا الحمّام قبل أن يتمّ فحصنا و"التصديق على نظافتنا" من قِبَل مفتّشتنا الصارمة، خالتي ليلى.

كان حمّام بيت جِدُّو نعمان رائعاً كما الحمّامات التركية القديمة. كان في السقف العالي للحمّام المرتفع خمسة أمتار نافذة كبيرة، يتسرّب منها الكثير من الضوء، وباب خشبي وحيد يدخل الأجساد العملاقة مثل جسم جِدُّو نعمان وخالي صادق وخالي سامي الملتحفين بالمناشف القطنية وأردية الحمّام.

تبدأ طقوس الحمّام بتشكيل مجموعات من ثلاثة إلى أربعة أطفال. تألّفت مجموعتي من أخي باسل، وأختي نانا، وابنة خالتي نورما وأنا. وتدير عملية التحميم الجماعي خالتي كريمة، التي بمجرّد أن تُنهي حمّامها، تنتظرنا داخل الحمّام بينما تقدّم فاطمة يد المساعدة من الفناء المجاور.

يتجمّع أفراد المجموعة في الفناء الصغير، ويجُرِّدُون من ملابسهم، ويُوعَز إليهم بلبس قباقيبهم الخشبية. يخاطر الشخص الذي يمشي دون قبقاب بالانزلاق على أرضية الحمّام الرطبة المليئة برغوة الصابون. لم يكن العثور على قباب بقياس مناسب مهمّة سهلة على الإطلاق. استغرقني الأمر سنوات، لأدرك أن لا وجود لفردة يمنى أو يسرى، إذ بدت القباقيب جميعها متشابهة وغير متطابقة في آن معاً. واستغرق الأمر منّي وقتاً أطول، لأدرك أن مفهوم الفردة اليمنى واليسرى لم يكن موجوداً في الماضي. عندما يصبح أعضاء المجموعة كلهم جاهزين يتأرجحون وهم يمشون بقباقيبهم، كان باب الحمّام يفتح مواربأ على نحو يكفي لانزلاق أجسادنا الصغيرة واحداً تلو الآخر دون السماح

للحمّام الحارّ حتّى الغليان بأن يُسرِّب الحرارة والبخار الكثيف.

كان ترتيب الدخول إلى الحمّام هرمياً حسب العمر، لذلك كان من الطبيعي أن يكون جِدُّو نعمان وتِيْتِة بسيمة البادئَيْن، أو بالأحرى جِدُّو أوّلاً، ثمّ تِيْتِة (لم أستفسر أبداً عمّا إذا كانا يستحمّان معاً أم لا)، ثمّ خالتي ليلى، ثمّ أمّي، فأبي، ثمّ خالتي كريمة، وعندما يحين دورنا، يكون البخار في الحمّام كثيفاً.

ما زلتُ أتذكّر كيف كان الأمر يستغرق بضع دقائق قبل أن يتمكّن نظر أحدنا من اختراق الضباب الكثيف والبخار في الحمّام المفعم برائحة البلّوط المحترق وخشب الكافور. ويتطلّب اكتشاف مكان خالتي كريمة بعض الوقت، وبدورها تأخذ كل واحد منّا من يده مدركة سوء الرؤية في الحمّام، وتساعدنا على الدخول والجلوس واحداً تلو الآخر على المقاعد الخشبية المنخفضة التي تحيط بالجرن الحجري الدائري المملوء بالماء الساخن. كنّا نسكب الماء على أنفسنا، باستخدام الطاسات النحاسيّة التي تحمل نقوشاً قرآنية، حتّى نبلّل أجسادنا، ونُدفئها. كانت خالتي كريمة في هذه الأثناء تمرّ علينا، تغسل رؤوسنا وشعورنا ووجوهنا بصابون حلب الضخم، صابون الغار. وقد ورثتُ، وأشقّائي جميعهم، عشق خالتي ليلى لهذا الصابون.

وإذا كان ثمّة ما أذكره جيّداً من الروائح الكثيرة في بيت جِدُّو نعمان، فهي رائحة هذا الصابون الرّبّاني. لا تزال

رائحة صابون الغار تُعيدني إلى الماضي، وتُبلّل عينَيّ بالدموع حتّى اليوم، مستعيدة لسعةُ لعينَي، يا إلهي، كم كان ذلك مؤلماً! أُغلق عينَيّ، وأصرخ طالبة مساعدة خالتي كريمة، وهي تُزيل الصابون عن عينَيّ ووجهي بالماء العذب، وتأمرني، وهي تنتقل لمساعدة باسل والاعتناء بنورما ونانا: "اذهبي الآن، وافركي رأسكِ وشَعْركِ حتّى أنتهي من أخيكِ". غالباً ما كنتُ أغادر الحمّام بعينَيْن حمراوَيْن كعينَي الأرنب.

حالما نغسل شعورنا سبع مرّات أو كما يقول الكبار في السّنّ "حتّى يصفِّر شَعْرك"، تستعدّ خالتي كريمة للخطوة التالية: تنظيف كل جزء أجزاء من أجسامنا. تتمّ عملية الفرك بكيس الحمّام المصنوع من قطعة سوداء من قماش خشن.

تُلفّ المناشف الصغيرة حول أجسادنا الجافّة تقريباً لزيادة الاحتكاك بين كيس الحمّام وجلدنا الناعم. يكشط هذا الاحتكاكُ طبقةَ الأوساخ والجلد الميت. كنّا نتناوب على فرك ظهور بعضنا، لأن هذه العملية تتطلّب الكثير من الجهد. حان الوقت الآن بعد تقشير أجسامنا وتنشيطها لشطف بشرتنا واستخدام الصابون مرّة أخرى. كنّا نفرك ونفرك باستخدام ليفة كبيرة حتّى يوشك الدم أن ينبثق من جلدنا المتجدّد المنكمش الشّفّاف.

أصبحنا الآن مستعدّين لتلقّي جولة أخرى هامّة، وهي آخر غسلة، ويُطلَق عليها اسم الغسول، وهي الجولة الأخيرة من

مياه، نُقعت فيها أحجار معدنية خاصّة مستخرَجة من جبال الأطلس في المغرب، تُذوّب في الماء الدافئ، وتُخلط مع ماء الورد. كانت لها وظيفة مزدوجة: فهي صيغة بدائية لبلسم الشَّعْر عدا عن كونها معطّراً لأجسادنا.

وتُستدعى خالتي ليلى بمجرّد الانتهاء من الحمّام التقليدي المكوّن من سبع جولات إلى الحمّام لإجراء الفحص النهائي. توقّفنا صفّاً بينما تجول هنا وهناك، تشمّ رائحة أجزاء مختلفة من أجسامنا، لتتأكّد من أن كل جزء أو شقّ في أجسادنا نظيف ومهفهف. تنادي خالتي ليلى بعد أن نجتاز اختبار النظافة القصوى على فاطمة وغالية وساجدة، ليجلبنَ المناشف القطنية الضخمة، وليُجفّفن أجسادنا النظيفة وشعورنا التي تصفّر، وخدودنا اللامعة.

ترافقنا النسوة إلى أَسِرَّتنا ونحن منهكِين ملفوفين بالمناشف مثل الأطفال الرّضّع، لترتاح أجسامنا وأرواحنا لمدّة ربع ساعة أو نحو ذلك قبل أن نرتدي أفضل ملابسنا، ونُحضّر أنفسنا لوليمة يوم الجمعة الاحتفالية.

الجزء الخامس

ماتريوشكا نورما: مجموعة من القصص المتشابكة

الفصل الثامن عشر

ما الحياة إلا مسرح، وما المسرح إلا حياة

ليس لديّ أي فكرة عن مَنْ سمّاها نورما ربّما والدتها بالتّبنّي خالتي كريمة أو ربّما أمّها الحقيقية الخالة التي لا

نعرف اسمها حقيقة الأمر أنني لا أعرف لا يهمّ فلن يُشكِّل هذا أي فرق على الإطلاق في هذا السياق ولكنّ ما أعرفه حقًّاً، أنه باستثناء اسم كارمن، فلا يمكن أن تحظى باسم يناسبها أكثر من هذا الاسم فهي أشبه بكارمن الإسبانية (جميلة وبرّيّة.. برّيّة وجميلة) منها بنورما الشقراء: الكاهنة السِلْتِيَّة الدرويدية من العصر الحديدي في إيرلندا.

وقصّة نورما أقرب إلى قصّة عايدة لفيردي.

تجري أحداث أوبرا عايدة لفيردي كما نعرف في مصر، قلب العالم العربي.

وعايدة أيضاً اسم عربي، فهي عائدة. ونأمل، كما في أوبرا عايدة لفيردي، أن تعود نورما إلى الوطن يوماً.

فهي ما توقّفت يوماً عن حلم العودة إلى القدس، حيث وُلدت وتُركت.

وكما يقال: الجرح الأوّل عَصيّ على الشفاء.

وهذا ما حدث مع نورما قد لا يكون صحيحاً أيضاً أمر تشابه نورما مع عايدة فيردي، إذ إن الأخيرة ابنة إمبراطور أو ملك فلسطين في ذلك الوقت، فنورما لا تملك شيئاً، إلا أنها مثل عايدة "التُقطت" واقتِيدت إلى بلد مجاور.

وفي حين جُلبَتْ عايدة فيردي من إثيوبيا إلى مصر، كانت نورما، كما أصبحنا نعرف الآن، قد هُرّبت من فلسطين إلى سوريا، وعلى نحو أدقّ من القدس إلى دمشق.

ومثل راداميس، المحارب المصري الشّابّ، كانت خالتي كريمة تحبّ نورما حبّاً جمّاً. ونتيجة لذلك، دخلت أيضاً حروباً لا نهاية لها، بعضها متحضّر، وبعضها الآخر لم يكن كذلك، لصون حبّها الأوحد، وحمايته، حبّها الأبدي الذي يُدعى نورما.

مهما كانت أوجه التشابه، أو الاختلاف، في حياة وقصص هاتَيْن البطَلَتَيْن، فلم يكن هناك شكّ في أن ابنة خالتي نورما كانت لها نظرة، بل، والأهمّ من ذلك، صفات وميزات السوبرانو المشهورين عالمياً كلها: الصوت الدرامي، العالي، التعبيري، العاطفي، المحبّ، الكاره، الغضوب، الجريء، يقع في الحبّ ويفارقه في الحال. وفي أكثر الأحيان، كانت مغامراتها العظيمة تنتهي نهايات غير منطقية، وغير متوقّعة، وميلودرامية.

نظرة نورما الإسبانية، عيناها السوداوان الجميلتان الكبيرتان المكحّلتان كحلاً ربّانيّاً، وشَعْرها الأسود الطويل اللامع مسحوباً إلى الوراء على شكل ذيل الحصان، فم صغير بشَفَتَيْن ممتلئَتَيْن شهوانيَّتَيْن، لم يمسسهما البوتوكس، أنف مدبّب مرفوع إلى الأعلى، بشرة زيتونية برونزية وجسد ممشوق. عزّز ذلك كله شبهها ببطلات السوبرانو، وزاد أدوارها إثارة، ومنحها حضورها. ومثل الأوبرات كلها التي "لا تنتهي حتّى تغنّي السّيّدة البدينة"، فقد حدث الكثير حين ظهرت على الساحة، وإن لم تكن بدينة أبداً، وكانت لائقة لختام درامي.

وبينما كانت أوبرا فيردي مكوّنة من أربعة فصول، كانت حكاياتها لانهائية، وغير قابلة للحصر. كان التواجد مع نورما يشبه دائماً الظهور على خشبة مسرح من مسارح العصور القديمة. وقد توصّلت بفضلها، وفي سنّ مبكّرة، للمفهوم القائل: وما الحياة إلا مسرح، وما المسرح إلا حياة.

لقد أحببتُ نورما، وهذا عائد لطبيعتها والأجواء الميلودرامية المحيطة بها، ولطالما كنتُ أقدّر الأوبرا الحقيقية أيضاً. أتذكّر نورما المراهقة تستمع إلى صوت ماريا كالاس والسوبرانو مونسترسيرات كاباللي الصادحَيْن النابضَيْن بالحياة، يتردّدان في فناء بيت جِدُّو نعمان الواسع. يهزّ الصوت العالي الأشبه بالصوت على خشبة المسرح ألواح زجاج النوافذ، وكاد يوقع المزهريات الصينية المنتصبة في الفترينة. ويملأ الصوت المكان ممّا يجعل من المستحيل على نورما سماع صرخات الاستهجان التي يطلقها الجيران من الجدران المجاورة والمارّة على باب المدخل الرئيس.

حكايات نورما المتشابكة

يبدو أن كل شيء حدث عندما كنتُ في التاسعة من عمري، أي عندما توفّي جِدُّو نعمان. حينها لعبتُ دوري الأوّل والأخير على خشبة المسرح، وتعلّمتُ أهمّيّة كتمان الأسرار. وباستثناء وفاة جِدُّو نعمان، فإن كل ما حدث حينها كان متعلّقاً بابنة خالتي نورما.

لا بدّ لي من القول إن مجموعة القصص المتشابكة المعشّشة في رأسي عن ابنة خالتي نورما، تبدو وكأنها الدمية الروسية ماتريوشكا، قصّة داخل قصّة داخل قصّة. ليس لديّ أي فكرة عمّا إذا كان هذا يتعلّق بغنى طفولة نورما المضطربة وسنوات مراهقتها المعذّبة، أو أنه يتعلّق على الأرجح بذاكرتي التي تلاشت اليوم. يشعر المرء عندما يكتب حكاية عائلية، وهو في الثالثة والسّتّين، والنسيان رفيقه، بإحساس مَنْ يفتح مجموعة متداخلة من الصناديق دون التّمكّن من دخولها.

لذا دعوني أركّز وأروي هذه الحكايات واحدة تلو الأخرى، بدءاً بالأقلّ أهمّيّة: تلك القصّة حول مشارفتي فقدان حياتي تقريباً، بسبب تهوّر نورما. كدتُ أموت نتيجة "عبثها" العنيف أو جنونها، إذا أردتُ أن أكون أكثر دقّة. ولكنني حتّى عندما وصل الموضوع إلى هذه الظروف القاتلة حقّاً، لم أخبر أمّي أو أمّها بشيء. وهكذا أعطتْني قدرتي على كتم الأسرار مكانةَ القريبة المفضّلة لنورما.

شحنات الصيف

لم يكن صيف 1957 مختلفاً عن أي صيف آخر. شحنتْنا أمّي في اليوم نفسه الذي انتهينا فيه من المدرسة، نحن أطفالها الأربعة، إلى منزل أبوَيْها في دمشق. ولم تكد تمضي بضعة أسابيع، وأحياناً بضعة أيّام فقط، قبل أن تتعب من وجودنا الخالتان المنهكَتان كريمة وليلى.

لذلك أضافتا إلينا ابنة خالتي نورما، وشحنتانا جميعاً إلى عمّتهما أمّ أكرم في بيروت. وذلك، بالطبع، ليس لأننا كنّا قريبين من عمّتهما أمّ أكرم، فأنا لا أذكر حتّى اسمها الأوّل، لكنْ، لأن منزلها كان قريباً من البحر! وكان أهمّ ما في الأمر. أرسلتْنا أمّ أكرم بعد وصولنا بساعات إلى شاطئ البحر، وواظبت على ذلك في كل يوم، وفي أبكر وقت ممكن.

أتذكّر دائماً أن أمّ أكرم كانت تحتضر على الدوام، أو على وشك الموت. ليس لأنها مريضة، بل لأنها كانت قد بلغت من العمر عتيّاً. بينما تجاوز ابنها أكرم الستّين، وكانت ابنتها جنّة في أواخر الخمسينيات. وأكرم وجنّة عانسان، سلوكهما أشبه بسلوك الأطفال. كل ما أذكره أن أكرم وأمّه حوَّلا حياة جنّة إلى جحيم. كانت جنّة سعيدة برؤية والدتها، ثمّ أخيها لاحقاً، يمضيان، أي يختفيان. نعم، أقصد يموتان. ولم يكن هذا من تخميني أصلاً. لأن جنّة أعلنت بصراحة ووضوح وبوجه محايد أن "الحياة أسهل بكثير بدونهما". أعلنت ذلك بعد بضعة أشهر عندما ذهبنا للإقامة عندها. أعلم أنه لم يكن من المناسب أن يقول المرء مثل هذا الكلام حول أمّه وأخيه الوحيد، ولكن هذا كان الصدق بعينه، فالحياة أسهل وأسعد بدونهما، ليس بالنسبة إلى جنّة وحسب، بل بالنسبة إلينا نحن الأطفال كذلك.

أتذكّر، بالإضافة إلى وشك فقداني حياتي في هذا الصيف، كم كان العمّ مدلّلاً. تُجلسه أخته في كل صباح على طاولة الطعام، لتقطع لأخيها المنقوشة إلى قِطَع صغيرة مناسبة

لفمه، ثمّ تجلس بجواره، وتُطعمه قطعة قطعة. كل ما كان عليه فعله هو فتح فمه، وإغلاقه، ومضغ الطعام، ومتابعة قراءة جريدته أو أخذ استراحة من الطعام، والدخول في محادثة بطيئة مع والدته المحتضَرَة. تستغرق محادثاتهما الكثير من الوقت، وكأن الموت لن يأتي أبداً. وإذا اشتكت جنّة من أن لديها أشياء أخرى تقوم بها بدلاً من إطعام شقيقها السّتّينيّ، تنفتح عليها أبواب جهنّم.

لم يكن الشقيق ينفجر في نوبة غضب فحسب، بل كذلك أمّه المحتضرة. تأخذ تصرخ فجأة بأعلى صوتها المرتعش "ماذا لديكِ في حياتكِ أكثر أهمّيّة من إطعام هذا الفتى المسكين؟ لا تغادري المنزل قبل أن تُطعمي أخاكِ". كنّا جميعاً نأخذ بالضحك على ذلك الموقف، ونريد بفارغ الصبر مثل العمّة جنّة مغادرة المنزل. نبقى في الخارج طيلة اليوم، ونتسلّل بهدوء عائدين مع حلول الظلام.

نكون أو لا نكون (بيروت 1956)

كنتُ ألتقط أنفاسي، مستلقية على ظهري منهَكَة من أوّل درس في السباحة، عندما نهضت نورما فجأة من مقعدها، ولفّت منشفة زرقاء على كتفها، ومسرحية هاملت للأطفال في يدها، وقالت بأعلى صوتها "أكون أو لا أكون، هذا هو السؤال". شدَّدَتْ على كلمة "هو" مكرّرة الجملة نفسها، وكأنها أسطوانة مشروخة.

خجلاً دفنتُ رأسي مباشرة في كتاب مغامرات تان تان وميلو في الصحراء التونسية (عندما كانا على وشك

اكتشاف الذهب الأسود)، إذ لم يسبّب المشهد المسرحي الشكسبيري لنورما الإحراج لي فحسب، بل جذب انتباه المتشمّسين جميعهم حولنا المتّكئين تحت المظلات الكبيرة الصفراء لـ "نادي سانت جورج بيتش".

هذا بالضبط ما سعت إليه نورما.

وكان هذا ما حظيتْ به.

الانتباه والانتباه، والمزيد من الانتباه.

كنتُ عادة أرافق أبي إلى حوض السباحة في نادي الضبّاط في مدينة الزرقاء الصغيرة في الأردن، إلا أنه لم يكلّف نفسه عناء تعليمي السباحة. يضعني والدي ببساطة في دولاب مطّاطي عائم، ويتركني في الجزء الضحل من المسبح، لأنه كان مشغولاً بكومة هائلة من المجلات والصحف. كنتُ وأبي نتبادل بعض النظرات المطمئِنَة من حين لآخر. أتابع سباحتي إلى أن تتعب ذراعاي أو حتّى أُنهك تماماً بحسب ما يأتي أوّلاً. وعند هذه المرحلة فقط ينتبه والدي إلى حالتي السّيّئة. يسحبني من البركة، ويجرّدني من ملابسي تماماً أمام ضبّاط الجيش الأردني، ويجفّفني بمنشفته، ويساعدني على ارتداء بنطالي الأبيض الجافّ الذي يغطّي نصف جسدي المرتجف.

كنتُ أبكي من الإحراج والخجل، وأطلب منه أن يأخذني إلى غرف تغيير الملابس. "لولو حبيبتي، لا تبكي، أخبريني فقط إلى أي غرفة تغيير ملابس تريدين الذهاب؟ غرف السّيّدات أمّ الرجال؟"

لطالما وجدتُ صعوبة في الإجابة عن الأسئلة التي يتحدّاني بها والدي. اشتكيتُ لأمّي بعد أن رفضتُ رؤية الأمور من وجهة نظره في اللحظة التي وصلنا فيها إلى البيت: "من الآن فصاعداً، لن أرافق أبي ما لم يأخذني إلى غرف تغيير الملابس، وما لم تُفصّلي لي مايوه بيكيني بقطعَتَيْن"!

غرق والدي في الضحك "لكنْ، لولو حبيبتي مؤخّرتكِ derrièreجميلة مثل وجهكِ! لماذا يسمح للناس رؤية وجهكِ الجميل، ولا تريدين منهم رؤية مؤخّرتكِ derrièreالرائعة؟

لم يكن لديّ أي فكرة عن السبب الذي جعل والدي يستخدم الكلمة الفرنسية كلّما أشار إلى الأرداف، كما لو كنتُ بحاجة إلى هذا التّحدّي الإضافي عندما يتعلّق الأمر بتعليقاته التي غالباً ما تكون مُحيّرة. أصررتُ على أنني لن أسبح مرّة أخرى في ملابسي القطنية البيضاء، ونتيجة لذلك جلست أمّي في النهاية على ماكينة الخياطة، وفصّلت لي أول بيكّيني من قطعَتَيْن. وبعد أن تكلّمتُ كثيراً عن الأمور المُملّة في الأردن ومسبح نادي الضبّاط، فلنعد إلى شواطئ بيروت المثيرة وهاملت نورما.

كان جوني مدرّب السباحة اللبناني جادّاً بشأن السباحة، عكس أبي تماماً، كان متطلّباً ويقظاً "ينبغي أن تكوني قادرة على السباحة في القنال الإنجليزي بحلول نهاية الصيف". لم يكن لديّ أي فكرة عمّا يتحدّث عنه، أو أين كان يقع هذا القنال الإنجليزي، ولكنني شعرتُ بالارتياح، لأنني سأكون

قادرة على السباحة عبر شيء ما. شعرتُ بالإثارة وأنا مستلقية على ظهري، أجري خلف تان تان وميلو، وكأنني أعبر القنال الإنجليزي، وربّما أكثر.

"أكون أو لا أكون، هذا هو السؤال". كانت نورما لا تزال تُكرّر.

لا بدّ أنه كان هناك شيء مثير، ودراماتيكي وخارق حول الكتاب الذي كانت ابنة خالتي تقرؤه. "إنه كتاب رائع! فيه كل شيء. كل ما تريدين: الحبّ، والخيانة، والانتقام، والغَيْرة، والقتل. كل شيء! صدِّقيني كل شيء! يا له من عبقري! لقد كان شكسبير هذا عبقرياً". ولأنني كنتُ في الخامسة من عمري في ذلك الوقت، لم أكن أدرك أن بيت شكسبير الشِّعْري هذا لم يفتن شخصية ابنة خالتي المسرحية وحسب، بل فتن العالم بأسره، وعلى مدى قرون.

صحيح أن نورما كانت مأخوذة تماماً بهاملت، لكنها كانت دائماً هكذا في أي شيء تفعله، مع كل قصّة قرأتْها، ومع كل فيلم شاهدتْه، ومع كل مسرحية حضرتْها، مع كل قصّة حبّ عاشتْها أو لم تعشْها. كانت تَنْهَوِسُ في آخر شيء اختبرته حتّى يحل شيء جديد مكانه. ما زلتُ أتذكّر كيف اِنْهَوَسَتْ بفيلم الذبابة، وباتت تتحدّث عنه دون توقّف. ورغم أنها أخافتْني بما فيه الكفاية، كي لا أشاهده، إلا أنني ما زلتُ أتذكّر كل مشهد من مشاهده من خلال وصفها

المثير والحيوي، إلا أن روايتها عن الفيلم استمرّت لفترة أطول بكثير من الفيلم نفسه.

لم تفارق الكُتُب يَدَي نورما، رغم سوء أدائها في المدرسة، وعدم إنجازها لأي واجب مدرسي، القصص الخيالية وغير الخيالية، الخيال العلمي والروايات والمسرحيات والمجلات والفنّ والموسيقى والتاريخ والعلوم والشِّعْر. لطالما كرّرت خالتي كريمة: "لو خصّصتِ عشر وقت القراءة فقط لكُتُبكِ المدرسية، فستكونين الأولى في صفّكِ".

وتردّ نورما ضاحكة: "نعم، لكنهم لو كتبوا هذه الكُتُب المدرسية بالطريقة التي كتب بها نابوكوف لوليتا، لرأيتَ إلى أي مدى ستصبح الكُتُب المدرسية مثيرة، وسوف أكون الأولى في صفّي"، قالت نورما وهي تعطي رواية لوليتا لوالدتها التي وضعتْها على الفور تحت إبطها.

"الآن فهمتُ أين اختفت تلك الرواية السّيّئة، أعيديها إليّ فوراً!"

"إذا كانت لوليتا رواية سيّئة، فلماذا تقرئينها أنتِ وخالتي ليلى؟" وأطلقت نورما واحدة من ضحكاتها الهستيرية المعروفة.

العودة إلى شاطئ البحر

أخيراً كان هناك صمت نسبي وبعض الظّلّ تحت شمسيّتنا. وبما أن الصمت ساد فقط عندما غفت نورما، غفوتُ أنا أيضاً، لتُوقِظني بضحكتها المجلجلة عندما كانت تتحدّث مع صبيّ يبدو أكبر سنّاً منها، وتمازحه، وتغازله. لا بدّ أنه

كان في الرابعة عشرة من عمره أو حتّى في الخامسة عشرة، وكانت هي في الحادية عشرة من عمرها فقط. ولكنني لم أستغرب، هكذا كان الحال دوماً مع نورما، فلطالما أحبّت الأولاد الأكبر سنّاً. شاهدتُ، نصف نائمة، نورما والصبي يلعبان المصارعة، وأخيراً دفعا بعضهما نحو الجانب العميق من المسبح. تبعتهما بقعتان كبيرتان وموجات كبيرة عندما اختفيا عميقاً تحت سطح الماء. ولكن نورما والصبي ظهرا بسرعة على السطح، وخرجا من المسبح، وتابعا جولة أخرى من المغازلة. كان كل ما فكّرتُ فيه في تلك اللحظة، بما أنني صغيرة جدّاً على أن أغار من مغازلتهما، هو القنال الإنجليزي. كنتُ متشوّقة لحصّة تدريب سباحة أخرى رغم التعب الشديد الذي أصابني في هذه الدروس. كنتُ أتشوّق أيضاً للقفز في الجانب العميق من المسبح، وإصدار هذه البقع المثيرة، وتلك الدوائر كلها على سطح الماء.

حان الوقت لتناوُل طعام الغداء، بما أنني لم آكل قبل حصّة تمرين السباحة. أخرجتُ الشورت القصير، وأخذتُ الليرات اللبنانية التي أعطتْني إيّاها خالتي كريمة، وذهبتُ باتّجاه نورما. سألتُها لأعرف إذا ما كانت الفكّة التي أملكها كافية للحصول على رقائق التشيبس وآيس كريم الشوكولاته. كانت نورما والولد المعجَب بها يقفان على حافّة حمّام السباحة مباشرة. عندما فتحتُ كفّي الصغيرة، لأُري الفكّة لنورما، قالت قبل أن أطرح عليها السؤال:

"لولتي حبيبتي، لماذا لا تُرين سامر كيف يمكنكِ السباحة عبر القنال الإنجليزي؟"

ولم تمضِ ثوان حتّى دفعتْني إلى الجانب العميق من بركة السباحة. كل ما أتذكّره كيف كنتُ أدور وألتفّ وأغوص عميقاً في ظلام حوض السباحة، أبلع المزيد من الماء في كل مرّة أحاول فيها التّنفّس. عندما عدتُ إلى الحياة كان فم مدرّب السباحة يبثّ الأنفاس في فمي، ويضغط على صدري بانتظام، وقد بدا وجه نورما الباكي من بين عشرات الرؤوس الغريبة والوجوه التي شكّلت دائرة حولي.

عانقتْني نورما، والدموع تسيل من عينَيْها متوسّلة أن أسامحها. وطلبت منّي ألا أخبر أحداً. وهكذا كانت الصفقة التي توصّلنا إليها: أُبقي فمي مغلقاً مقابل الحصول طيلة فترة الصيف على ما أريد من التشيبس والهامبرغر والميلك شيك والعصائر الطازجة والآيس كريم متى أردتُ. لم تكن نورما لتحصل على صفقة أفضل من هذه بفضل جسمي النحيل وقلّة شهيّتي.

الفصل التاسع عشر

برنامج تلفزيوني مباشر

"إذا كان هذا صحيحاً، فأنا لستُ مسؤولة عن ما أقوله أو أفعله عندما أمشي في نومي"، أجبتُ كلاً من نورما ونانا والشّكّ والريبة يملآنني عندما زعمتا أنني استيقظتُ في

الليلة السابقة، واتّهمتُهما بتناول الموزة الذي أعطتْني إيّاها أمّي.

"كنّا ساهرَتَيْن نُدردش حتّى وقت متأخّر في الليلة الماضية عندما هبطتِ السّلّم من غرفة نومكِ، ووقفتِ في وسط الفناء، وزعمتِ أن الموز الذي تناولناه للتّوّ كان لكِ. وعندما سألناكِ "أيّ موز؟" قلتِ: "حسناً، تعرفان بالضبط ما أقصد. هذا الموز الذي أكلتُماه كان غالياً على قلبي، لأنه كان هدية من أمّي. بدا الأمر وكأننا قد ابتلعنا للتّوّ بعض قطع الماس أو الزمرّد". وأخذتا تضحكان. "ثمّ أدرتِ ظهركِ لنا، وصعدتِ السلالم، وعدتِ إلى السرير. نظرنا إلى بعضنا، وانفجرنا ضاحكَتَيْن، ثمّ تبعناكِ بعدها، لنكتشف أنكِ عدتِ للنوم على الفور، تُهمهمين وتتذمّرين حول خسارتكِ".

لطالما وصفتْ كل من نورما ونانا باستمتاع ما يحدث لي بالتفصيل حين أمشي ليلاً. ولطالما كنتُ أفاجأ تماماً، لأنني لا أتذكّر شيئاً، وأشعر بالحرج.

"لا تفعلي ذلك مجدّداً، وإلا ستنتهين مثل ابن خالتكِ نادر الذي سقط من الشرفة على ارتفاع طابق كامل.

سألتُ خائفة: "يا إلهي! هل هذا سبب عرجه؟"

"نعم، يا أختاه، لا بدّ أن تنتبهي جيّداً عندما تصعدين وتنزلين هذه الدرجات والسلالم في أثناء النوم، وصدِّقيني، لم يلمس أحد موزكِ البارحة. وكما تعرفين، فإن الموز لا

يتناسب مع البيرة. كنّا نتناول المكسّرات. ولكنكِ فقدتِ رشدكِ البارحة!"

أخذتُ أضحك معهما غير مرتاحة تماماً، وتحوّلَ إحراجي إلى قلق. شعرتُ بالخوف من فكرة أن يستيقظ المرء فعلاً في منتصف الليل، وأن يخوض محادثة أو جدالاً أو حتّى عراكاً مع الناس أو يسقط من أعلى الجدار ويكون غير مدرِك تماماً لما يفعل. احتفظتُ بهذا القلق الذي يشغلني لنفسي، ودعوتُ الله ألا يحدث لي هذا مرّة أخرى.

لكنني وجدتُ نفسي مستيقظة في منتصف الليل مرّة أخرى. يمكنني سماع موسيقى نورما الأوبرالية تصدح من خلال النوافذ الزجاجية في غرفة نومي في الطابق الأوّل من بيت جِدُّو. كانت الأضواء التي تتسرّب من الفناء هي التي ساعدتْني على رؤية سرير خالتي كريمة فارغاً. وعندها تذكّرتُ أن خالتيَّ وفاطمة ذهبتا لقضاء بضعة أيّام في الزبداني، حيث كانت خالتي فايزة تمتلك منزلاً صيفياً جميلاً.

توجّبَ عليّ ونورما أن نبقى هنا للتحضير للامتحانات النهائية، لأن السنة الدراسية لم تنتهِ. نادراً ما كنتُ أبقى بمفردي في البيت مع نورما بضعة أيّام. كنتُ آنذاك في التاسعة من عمري، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها "أكبر من لوليتا بسنَتَيْن" كما كانت تقول مازحة. يبدو أن شكسبير ولوليتا كانا المرشدين الروحيَّيْن لنورما هذا العام.

كانت الحاجة المُلحّة للتّبوّل، وليس الدفاع عن الموز، ما أخرجني من السرير هذه المرّة. نزلتُ السلالم الطويلة الضّيّقة نصف نائمة أو نائمة تقريباً، ووصلتُ إلى الفناء، لأكتشف أن برنامجاً تلفزيونياً مباشراً كان يُبَثُّ في أحد جوانب الفناء على ضوء الشمعة.

هل كنتُ أحلم أم كان هذا أحد مشاهير التلفزيون السوري نديم غفّار؟ كان يرتدي كما كان دائماً ملابس أنيقة، وكانت نورما ابنة خالتي في أبهى حللها أيضاً. ولكنّ أكثر ما كان يُربكني في الحقيقة هو أن البرنامج التلفزيوني كان ملوّناً تماماً بينما كان التلفزيون السوري لا يزال بالأبيض والأسود.

كان يرتدي بدلة بيضاء من الكتّان، وقميصاً بلون بنفسجي داكن، ونورما ترتدي فستانها الأحمر الإسباني والحذاء ذا الكعب العالي. مشهد آخر مثير من أوبرا كارمن. لم أكن متأكّدة ما إذا كان هذا حلماً أم حقيقة، لكنني رأيتُهما يُمسكان بيَدَي بعضهما، ويتبادلان القبل جالسَيْن على طاولة مستديرة، أعدّتْها نورما بأناقة لتناول العشاء. استطعتُ رؤية الأكواب تلتمع في الضوء الخفيف لعشرات الشموع التي نشرتْها نورما في الفناء، وعلى مائدة الطعام المستديرة، حيث جلسا. لم أكن قد قرأتُ رواية لوليتا أو شاهدتُ الفيلم الجديد المقتبس عنها، ولكنني كنتُ أعلم أن لوليتا كانت في الثانية عشرة من عمرها بينما كان عشيقها البروفسور همبرت همبرت في السابعة والثلاثين. كانت نورما في هذه الحالة في الرابعة عشرة من عمرها، وكان

هو، في منتصف العشرينيات من عمره. لم أكن أهتمّ بالأعمار في تلك الليلة، بل كانت مشكلتي في التعامل مع هذا الوضع.. إلحاح التّبوّل. بما أن المرحاض كان على الجانب الآخر من الفناء، فسيرياني لو عبرتُ الفناء للوصول إلى الطرف الآخر. أدرتُ ظهري بمثانة ممتلئة ورأس صغيرة مختلط، وتناسيتُ كل شيء، وصعدتُ تلك الدرجات المتعبة، وعدتُ إلى الفراش.

أغرتْني بالطبع فكرة مشاهدة الحلقة التلفزيونية الملوّنة من نافذة غرفتي، ولكنني قرّرتُ ألا أقوم بذلك كونها حلقة خاصّة بهما، وليست للجمهور. غطّيتُ رأسي وفضولي بالملاءة البيضاء، وحاولتُ جاهدة أن أغطّ في النوم، ولكنْ، كان من الواضح أنني لم أستطع النوم. أخذ قلبي الصغير ينبض بقوّة، وبقيتُ مستلقية في السرير، أفكّر كم كانت حياة ابنة خالتي نورما مثيرة ومحطّمة للأعصاب، في الوقت نفسه.

وكما كان الحال دائماً مع نورما، لم أتمكّن من معرفة ما إذا كان هذا حلماً أم عرضاً واقعياً، وحتّى في اليوم الذي تمّ استدعائي فيه للتحقيق العائلي، الأشبه بالاستجواب، والذي قاده خالي حكيم. لم أكن على ما يبدو الشاهدة الوحيدة على ليلة الشموع تلك، وبالتالي كان عليّ أن أدلي بشهادتي في التحقيق، لاكتشاف ما إذا كان ما رآه الجيران، وأخبروا به خالي حكيم صحيحاً أم من نسج خيالهم. زعمتُ يومها أنني لم أسمع ولم أرَ أي شيء، حيث بقيتُ ونورما ساهرَتَيْن ندرس حتّى ساعة متأخّرة من تلك الليلة.

الفصل العشرون

اللقيطة

الحياة كانت مسرحية: ومسرحيّتها كانت أكبر من الحياة (عمّان، 1961)

كنّا في احتفالات نهاية العام الدراسي.

ولماذا تحتفل مدرسة بنهاية السنة الدراسية؟

ليست لديّ أدنى فكرة،

على عكس السنوات السابقة.

لم يتمّ حرق الكُتُب المدرسية في احتفالات نهاية العام الدراسي لهذا العام.

أعلنوا عن يوم المسرح بدلاً من ذلك.

لماذا هذا التغيير الجذري؟ لا أعرف أيضاً،

لكنْ، عليّ أن أقرّ بأن الهتاف والقفز فوق اللهب البرتقالي للكُتُب المحترقة كانا ممتعَيْن.

كان ذلك أكثر إمتاعاً من المسرحية الحزينة لهذا العام التي جعلت دموعنا تنهمر بدلاً من الضحك.

كان حرق الكُتُب والمخطوطات أكثر توافقاً مع التقاليد العريقة على الأقلّ في منطقتنا هذه من العالم.

بدأ هذا التقليد عام 1252، إن لم يكن قبل ذلك، عندما أعطى هولاكو المغولي بركاته لإلقاء كُتُب مكتبة بغداد الكبرى، المعروفة أيضاً باسم "بيت الحكمة" في نهر دجلة،

كانت أكبر مستودع للكُتُب المخطوطة في العالم في ذلك الزمن. غرقت ملايين الكُتُب والوثائق، ولم تجعل لون نهر دجلة أسود بلون الحبر فقط، بل أتاحت أيضاً للناس عبور النهر على جسر مَبني من المخطوطات.

مسرحية مَنْ كانت؟

كان عام 1961 العام الذي اضطرّت خالتي كريمة فيه لاتّخاذ قرار صعب، حيث كانت سترسل ابنتها الوحيدة، لتعيش معنا في عمّان. ولم تكن تقصد بهذا أن يكون بمثابة حركة تبادلية (أو عملاً انتقامياً)، لأن أمّي أرسلت بناتها الثلاث ليعشنَ مع خالَتَيْهما كريمة وليلى في دمشق قبل ثلاث سنوات، أو أنها كانت تُرسلنا لقضاء كل صيف في طفولتنا معهما.

تبيّن أن العيش معنا طيلة عام يمثّل الحلّ الأقلّ ضرراً لنورما المضطربة في سنّ المراهقة. ربّما رأت خالتي كريمة في أبي شخصية والد كانت نورما في حاجة إليه في تلك السّنّ الحرجة. أو ربّما اعتقدت أننا كنّا "العائلة المثالية" التي حُرمت منها ابنتها طيلة حياتها. ولكن وجود أختي نانا أيضاً، صديقة نورما المقرّبة، ساهم في اتّخاذ هذا القرار. كانت كلّ من نانا ونورما "فتاتَيْن وجوديَّتَيْن" اتّفقتا على بيع مجوهراتهما الثمينة، والهروب إلى باريس، لتحظيا بصحبة جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار. ربّما كانت خالتي كريمة، لأنها تعرف شخصية ابنتها المغامرة، تبحثُ عن رفيقة لها، فيما لو تحقّقت تلك الأحاديث الكثيرة

حول الهروب في نهاية الأمر. لقد فرّت نورما في الحقيقة في نهاية المطاف. ذهبتْ إلى برلين وحدها بعد عام أو عامَيْن، بينما تحوّل حلم أختي الطوباوي إلى حلم يقظة، امتدّ طيلة الحياة.

تمكّنت خالتي كريمة حتّى ذلك الحين، مسلّحة بدعم جِدُّو نعمان وخالتي ليلى ومحبّتهما، طوال أربعة عشر عاماً من المناورة في حياتها وحياة ابنتها، لتتخطّى تلك الاضطرابات الإيجابية والسلبية كلها في حياتهما، حياة أمّ عزباء غير متزوّجة، لديها طفلة بالتّبنّي.

ولكن خالتي كريمة واجهت منذ وفاة جِدُّو نعمان قبل عام، المزيد من المتاعب التي تتجاوز قدرتها على التعامل معها، إذ أدّت وفاته إلى حالات وأشكال غير مسبوقة من الفظاظة والقسوة والاعتداء تجاه نورما المراهقة. جاءتها مثل هذه الاعتداءات من أعلى مستويات السلطة، وأخفضها أيضاً في الأسرة، من خالي حكيم، وكذلك الخادمة فاطمة المخادعة والغيورة. كان لكل منهما أساليبه الخفية والماكرة والفظّة لتقديم النصيب الكبير من الأذى.

كان خالي حكيم سياسياً محافظاً يمينياً ونائباً برلمانياً (يمثّل نسخة مبكّرة من ستّينيّات القرن الماضي من برلسكوني، ولكنه كان أكثر وسامة)، مَنْ قال إن سوريا في أوائل السّتّينيّات كانت أقلّ مرحاً وتسلية من إيطاليا اليوم؟ لم يكن لديه أدنى قدر من التسامح مع نورما المتمرّدة. لم يعد بإمكانه تحمّل وجود نورما على الإطلاق عندما انطلقت

الشائعات التي تقول إن ابنة أخته كانت على علاقة مع أحد المشاهير، أشهر مراسل تلفزيوني سوري في تلك الفترة، وهو المراسل نفسه الذي غالباً ما كان يجري المقابلات مع خالي حكيم حول حياته السياسية التي يسعى إلى ترسيخها وهو في سنّ الأربعين، ممّا أعطاه التغطية أو العذر اللازم ليُطلق العنان لذلك الرفض الذي امتدّ طيلة حياته لهذا التّبنّي "إنها ليست من عائلة البارودي، ولن أسمح لها بأن تكون، وهذه نهاية القصّة".

لطالما ذكّرت خالتي ليلى أخاها الأصغر منها مراراً وتكراراً قائلة: "ليس هناك أي قصّة، ولقب عائلة البارودي ليس ملكاً حصرياً لكَ"، ولكنْ، لا حياة لمَنْ تنادي.

"قلتُ لكِ منذ زمن إن هذه البنت كارثة، ولا ينتج عنها سوى الكوارث".

كثيراً ما سمعتُ خالتي كريمة تتمتم لنفسها "اللّي بِيْتُو مِن إزَازْ، لا يِرْمِي النَّاسْ بالحْجَارْ".

ينبغي أن أقول إن سنوات مراهقة نورما كانت مضطربة ومقلقة. كانت أعواماً مليئة بالمطبّات، بل أشبه بالقطار الأفعواني. كانت مشاعرها غير المستقرّة فيما يتعلّق بالعديد من الأسئلة المفتوحة حول حياتها قد أثّرت عليها. غالباً ما كانت تتساءل عن نفسها، من أين أتت، وكان لديها مشكلات متعلّقة بهويتها واحترامها لذاتها وحبّها، وحياتها الجنسية وانتمائها وتوقّعاتها. غالباً ما انطلق سلوكها من هذه الدوافع. كانت خالتي كريمة رغم وقوفها إلى جانبها

دائماً، تجد نفسها في وضع يصعب عليها فيه الدفاع عن تصرّفات ابنتها وسلوكها. خاصّة عندما لا تُفوّت نورما فرصة لنشر النميمة والكلام البذيء حول خالها حكيم.

لكن موقف فاطمة ومشاعرها كانت متقلّبة، على عكس موقف خالي حكيم الثابت تجاه نورما، فقد كان مقدار كرهها أو محبّتها لنورما يعتمد على مزاجها المتقلّب. وغنيّ عن القول إن طفولة فاطمة الصعبة، وشعورها الكبير بانعدام الأمان، وكذلك غَيْرتها التي لا يمكن التّغلّب عليها، ساهمت جميعها في مقارنتها التي لا تنتهي بين نورما وابنها محمّد: "كيف يمكن لطفلة مولودة بالخطيئة، "لقيطة"، أن تتمتّع بوضع أفضل من طفل شرعي؟"

وهكذا روت فاطمة لنورما الطفلة، ثمّ المراهقة، وبكثير من البغض والحقد، حكايات مبتكرة وقاسية عن أصلها.

عَلِمَتْ نورما من فاطمة للمرّة الأولى أنها لم تكن ابنة حقيقية لأمّها كريمة "أمّكِ لم تتزوّج قطّ، ولم يكن لها زوج مات كما يخبرونكِ. هذه كذبة، كذبة كبيرة. اسأليني أنا وسأقول لكِ الحقيقة، أنتِ طفلة الخطيئة، لهذا ألقتْكِ أمّكِ في القمامة، وهربتْ".

حافظتْ نورما البالغة من العمر خمس سنوات على هدوئها، وضبطت دموعها حتّى انتهت فاطمة من قساوتها، وابتعدت عنها. بَكَتْ نورما بصمت، ووعدت نفسها بعدم مشاركة هذه القصّة مع أي شخص كان. لكن ذلك لم يمنعها من محاولة السؤال هنا وهناك، لتعرف معنى طفلة

الخطيئة. تأكّدتْ من عدم ورود هذه الكلمة خلال أي جملة من حديثها حتّى لا تكشف ذلك السّرّ المؤلم الذي جعل النوم يجافيها ليالي طويلة.

"ماذا تعرفين عن الخطيئة؟ هذه كلمة سيّئة. أين سمعتِها؟"

"تسألين ما هي الخطيئة وأنتِ صغيرة على معرفة كلمة كهذه!".

"الخطيئة شيء فظيع. يُلقي الله الخاطئَ في جهنّم، ليحترق إلى أبد الآبدين". قرّرَتْ نورما بعد سماع هذه التفسيرات المخيفة التّوقّف عن طرح الأسئلة حول معنى الخطيئة.

نجح كل من فاطمة وخالي حكيم في صيف عام 1961 أخيراً في دفع نورما المراهقة المضطربة بالفعل إلى الحافّة، فقد حاولت الانتحار. أصبحت مسألة أكون أو لا أكون مسألة مُلحّة وخطيرة.

العودة إلى المدرسة واحتفالات نهاية العام

ازداد على الدوام إعجابي وحبّي لابنة خالتي نورما رغم فارق السّنّ بيننا، مع إعجابي بجنونها الذي تضخّم عندما جاءت للعيش معنا في عمّان. أصبحنا حليفَتَيْن مقرّبَتَيْن، وأصبحتُ أكثر من ذي قبل كاتمة أسرارها الكثيرة. كرّمتْني نورما في المقابل من خلال منحي الدور الرئيس للبطلة الوحيدة في مسرحيّتها "اللقيطة" كنوع من الامتنان. كانت هذه طريقة نورما في تقديم الشكر لي، لأنني لم أَصَبْ بالضعف أو الانهيار تحت استجوابات الأسرة التي لا تنتهي.

كنتُ على خشبة المسرح

كانت أمّي في الصّفّ الأوّل

نورما، كاتبة النّصّ ومخرجة المسرحية، كانت وراء الكواليس، لتتمكّن من أن تعطيني التعليمات من وراء الستارة المخملية الحمراء، والأهمّ أن تشاهد وتدقّق بمتعة وألم المتفرّج الوحيد الذي بكى طيلة عرض المسرحية.

يقول شكسبير: "البكاء يقلّل عمق الحزن"، وفي حالة أمّي: "البكاء يزيد عمق الحزن".

تمّ إرشادي على نحو صارم ومتكرّر طوال تدريباتي العديدة، في المنزل من وراء ظهر أمّي، وفي المدرسة أيضاً أن أنظر مباشرة إلى الجمهور، بينما كانت أمّي تنظر إليّ.

كان عمر الممثّلة الرئيسة في المسرحية، والتي تتلو المونولوجات تسعة أعوام، وكان عمر كاتبة النّصّ والمخرجة المسرحية أربعة عشر عاماً، وكان عمر المشاهدة المستهدفة التي وقعت في الفخّ ثمانية وثلاثين عاماً.

عَدَّتْ نورما لي من وراء الكواليس، لتحدّد لي مدّة الوقوف الطويلة، بمجرّد أن فتحت الستائر "1-2-3-4-5-6-7-8-9-10 تحرّكي الآن!". كانت مصرّة على العَدّ لتحديد مدّة التّوقّف الطويلة، لأنني كنتُ أميل إلى تقصير مدّة الوقوف الضرورية في المشهد الافتتاحي.

سُلِّطَتْ بقعة ضوء على المسرح المظلم، وشكّلتْ دائرة صغيرة، تتركّز على الممثّلة الوحيدة. أوضحت نورما لعادل، الشخص المسؤول عن الصيانة في المدرسة، والذي أطلقت عليه توصيف مصمّم الإضاءة: "ينبغي أن تكون بقعة الضوء صغيرة كزنزانة ضيّقة في سجن. وينبغي أن تقفي يا لولو في قلب تلك الدائرة مثل الفنّانين الفرنسيّيْن. صحيح أنكِ في زنزانة، لكنكِ في الوقت نفسه تمثّلين مركز الكون، الكون بأكمله". مهما بدا هذا الكلام متناقضاً، فقد تردّدت إرشادات نورما في رأسي المليء بالكلمات. تحرّكتُ قليلاً إلى اليسار، للتّأكّد من أنني في مركز العالم، كما طُلب منّي.

وقفتُ في المنتصف، ووقعت عليّ بقعة الضوء بعد أن رُفِعَت الستارة، وكنتُ مطرّقة وكأنني حزينة أنتحب.

"هيّا!" رفعتُ رأسي ببطء وحزن وبتعابير وجه بائس أتلو سطور دوري:

مَنْ أنا؟

نعم، أنا أسألكم.

مَنْ أنا؟

صرختُ بأعلى صوتي المرتجف مشدّدةً على كلمَتَي: أنا وأنتُم.

توقّفتُ مجدّداً بعض الشيء، ونظرتُ مباشرة إلى الجمهور، كما لو كنتُ أنتظر منهم الرّدّ. لم يجرؤ أحد على

أن ينبس ببنت شفة، كما هو واضح مع هذه الدراما كلها، ولم يكن أحد يتوقّع منهم الرّدّ بالطبع. ساد الصمت عندما انبهر الجمهور بسؤالي البسيط. أو كما أوضحت نورما "قد يبدو الأمر سهلاً، ولكنه ليس كذلك".

مَنْ أنا؟

ما هو اسمي؟

هل اسمي نورما؟

لا أعرف

مَنْ هي والدتي؟

لا أعرف

أين هي أمّي؟

والدتي الحقيقية

الأمّ التي ولدتْني

لا أدري

واصلتُ بعد صمت قصير بصوت أكثر هدوءاً:

أمّي، هل تسمعينني؟

أمّي، أين أنتِ؟

ما اسمكِ؟

ما هو شكلكِ؟ أخبريني

هل أُشبهكِ؟

هل عيناي تشبهان عينَيْكِ؟

هل أنفكِ مدبّب مثل أنفي؟

هل شفتاكِ ممتلئتان مثل شَفَتَيّ؟

هل شَعْركِ أسود؟

شدّدتْ عليّ نورما في الحقيقة ألا أنظر في اتّجاه أمّي طيلة المسرحية، ولكنني سعيتُ غريزياً للحصول على موافقتها على أدائي، فنظرتُ إليها. وكان أكثر ما أدهشني أن والدتي كانت بطلة مشهدها الخاصّ. كانت تنوح وتبكي. رأيتُ أكتافها تهتزّ، وتخيّلتُ أن الكحل في عينَيْها قد انساح على سائر وجهها، وأخذ يقطر من ذقنها.

لقد جرفت دموعها التي تشبه الفيضانات سطور حواري. أبعدتُ نظري عنها على الفور، وركّزتُ على النّصّ الخاصّ بي. لثانية، فقدتُ السيطرة على كلامي، ثمّ، تذكّرتُ حواري بأكمله، والحمد لله:

أمّي، هل أشبهكِ؟

أم أشبه أبي؟

ومَنْ هو أبي؟

أين التقيتِ به؟

هل أحببتِهِ؟

هل أحبَّكِ؟

هل كنتُ نتيجة فعل الحبّ؟

هل كنتُ نتيجة شهوة ورغبة؟

أم أن ولادتي كانت نتيجة فعل عنف وغضب واغتصاب؟
لا بدّ أن أعرف

نعم، أريد أن أعرف لأتابع حياتي

صمتٌّ عدّة دقائق، كما هو محدّد من قِبَل مخرجة المسرحية في هذه المرحلة، بعد وقت قصير، انتهكت الموسيقى الكلاسيكية الصمت، ولم تكن هذه الموسيقى سوى أجزاء من سيمفونية بيتهوفن التاسعة، وكذلك فعلت كلمات الجوقة المسجّلة مسبَّقاً.

"لا بدّ أن أعرف. لا بدّ أن أعرف. لا بدّ أن أعرف حتّى أتمكّن من متابعة حياتي، والمضي قُدُماً".

وقف بعض المتفرّجين العاطفيّيْن في اللحظة التي توقّفت فيها الموسيقى، وأخذوا يصفّقون لفترة طويلة. وبعد فترة وجيزة، وبقليل من التّردّد، تبعتْهم بقية الجمهور. مَنَحَني هذا بالطبع الفرصة لانتهاك تعليمات نورما، ونظرتُ مجدّداً إلى أمّي مباشرة. تمكّنتُ بالفعل من رؤية تنهّداتها تضيع بالكامل في هتافات الجمهور المستمتع. وهنا شاهدتُ الآنسة عليا، إحدى صديقات أمّي المقرّبات تعانقها.

كانت همسات المخرجة هي التي أعادتْني إلى المسرح "هيّا، يا لولو، تحرّكي مع الإضاءة، وتذكّري تحريك يَدَيْكِ في هذا المشهد".

تذكّرتُ بالطبع أنه ينبغي عليّ، وعلى عكس المشهد الأوّل الذي كنتُ أقف فيه ساكنة، ونادراً ما حرّكتُ جسدي أو يدي، في هذا المشهد أن أكون أكثر "حيوية" بينما أواصل تلك السلسلة الطويلة من "الأسئلة الوجودية"، كما كانت نورما تسمّيها.

وأين وُلدتُ؟

في بيت؟

في مستشفى؟

في الشارع؟ أو ربّما تحت ظلّ، أو ظلام، شجرة البلّوط؟

مَنْ يعلم؟!

ربّما في دَيْر بعيد

نعم، مع الراهبات

تابعتُ وأنا ألاحق دائرة الإضاءة

أمّي،

كيف كان إحساسكِ يوم ولادتي؟

وكيف شعرتِ في اليوم الذي أدرتِ ظهركِ لي ومضيتِ بعيداً؟

ولم تعودي لتُريني؟

لا بدّ أن أعرف

لا بدّ أن أعرف ما هو شعوركِ في اللحظة التي تركتِني فيها

في اليوم الذي تخلّيتِ فيه عنّي
في اليوم الذي أحسستِ فيه أنني لا أستحقّ أن تحتفظي بي
كيف كان شعوركِ في اليوم التالي على هجرانكِ لي؟
وفي الأسبوع التالي
بعد شهر
بعد عام
وكيف تشعرين الآن؟
أخبريني، يا أمّي، ما هو شعوركِ بالتّخلّي عن طفلتكِ؟
أحتاج أن أعرف لفهم السبب الذي يدفع أمّاً لتتخلّى عن طفلتها؟
لا بدّ أن أعرف، لا بدّ أن أعرف، لأمضي قُدُماً في حياتي.

سمعتُ في هذه اللحظة أصواتاً صاخبة قادمة من اتّجاهات مختلفة، وليس من الصّفّ الأوّل وحسب. تمكّنتُ الآن من رؤية تأثير هذه الحوارات والكلمات التي وصفتْها نورما بأنها: "منحوتة من ذاتي الداخلية البركانية، فيما يشبه انتصار مايكل أنجلو على تلك القطعة من الرخام الأبيض، لإجبار داود على الظهور والتعبير عن نفسه. ليحكي القصّة، ليكشف الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة. نعم، الحقيقة الصعبة". وبعد أن تأمّلتْ نورما ما قالتْه، أضافت: "لم تكن مسرحيّتي مبهرة فنّيّاً بالطبع مثل داود". وأضافت وهي تُريني صورته المنحوتة "وليست مُرضية تماماً من الناحية الجمالية، ولكن الأهمّ زخم المشاعر الداخلية

وصدقها فيها". لم أستطع سوى أن أتّفق معها، لأن دموعها جرت على خَدَّيْها في خطوط من الكحل الأسود الداكن خلال البروفات. ولكنني لطالما شعرتُ بالحَيْرة مع نورما: أحياتها أشبه بالمسرح أم مسرحها أشبه بالحياة!

سمعتُ نورما مجدّداً من وراء الكواليس تعطيني الإرشادات خلال المشهد الأخير "لولو، تذكّري الآن أن عليكِ أن تختمي بصوت ضعيف ومنخفض، أقرب إلى الهمس" لاحقتُ دائرة الإضاءة الخافتة مجدّداً، وتحدّثتُ بهدوء، ليسمعني الجمهور المأخوذ تماماً:

أخبريني، يا أمّي

هل اشتقتِ إليّ، كما اشتقتُ أنا إليكِ؟

هل تتساءلين كيف حالي؟ وأين أنام كل ليلة عندما تضعين رأسكِ الثقيل على تلك الوسادة المبلّلة بالدموع؟

هل تبكين كما أفعل أنا؟

هل تشعرين بالفراغ كما أفعل؟

هل يهرب منكِ النوم كما يهرب منّي؟

هل تشعرين أن حياتكِ لا معنى لها؟

قولي لي، يا أمّي

هل كنتُ سيّئة إلى هذه الدرجة؟

هل كنتُ قبيحة إلى هذه الدرجة؟

ألهذا تخليّتِ عنّي؟

ألهذا هجرتِني؟

ووهبْتِني للتّبنّي؟

هل كنتِ خجلةً بي؟

هل جلبتِ لكِ العار؟

هل وُلدتُ نتيجة الخطيئة، من الكره، من الشّرّ، من الفجور؟! هل لهذا كنتُ أستحقّ أن تهجريني،

وأن تتخلّي عنّي

لأصبح لقمة سائغة

للتّبنّي؟

هذه طفلة لا يريدها أحد، هل تريدونها؟

إذا لم تحبّكِ أمّكِ

فَمَنْ الذي سيُحبّكِ؟

وإذا أحبّوكِ

سيكون هذا بدافع الشفقة فقط

بدافع اللطف

بدافع من الإنسانية

وإذا أدارت والدتكِ ظهرها لكِ

فَمَنْ سيبقى لكِ؟

انظري إليّ، يا أمّي، أنا ضائعة في هذا العالم

انظري إليّ، يا أمّي، وحيدة وغير مرتبطة بأي شيء على الإطلاق

انظري إليّ، يا أمّي، تنهشني الوحدة

لا حبّ يمكن أن يعوِّض حبّ الأمّ الحقيقية

وقفة طويلة، ثمّ أعود إلى وضعية الحزن الأولى.

وقفة طويلة بينما تَعدّ لي نورما من وراء الكواليس:

"9-8-7-6-5-4-3-2-1 و10 ستارة "، ونزلت ستارة المسرح.

النهاية

صفّق الجمهور تصفيقاً حارّاً. رُفعت الستارة. تقدّمتُ، وانحنيتُ للجمهور. انضمّت إليّ نورما، وأمسكنا بيَدَي بعضنا، وانحنينا معاً للجمهور. وأُسدِلَتْ الستارة إلى الأسفل شيئاً فشيئاً.

لم أستطع منع نفسي من التفكير بفاطمة عندما تجمّع حولنا الجمهور المتأثّر للتعبير عن إعجابهم وامتنانهم للممثّلة الرئيسة والوحيدة وللمخرجة،

كانت فاطمة المساهمة الرئيسة والمحرّضة الأساسية لهذه المسرحية.

ما بعد المسرحية

بعد تلك المسرحية، ولسنوات عديدة، جعلتْني سذاجتي وثقتي أصدّقُ بأن أمّي بَكَتْ بسبب تمثيلي الرائع. لم أكن

أعرف أنني لم أكن سوى وسيلة، صرخة لطلب المساعدة، لاستجواب الشخص الوحيد في الجمهور الذي يمكنه الإجابة على أسئلة كاتبة السيناريو.

أمّا بالنسبة إلى أمّي، فعلى عكس تمثال داود الذي خضع في نهاية المطاف لسيّده، وتحدّث، وحكى الحكاية، وكشف الحقيقة، فقد جلست أمّي طوال فترة المسرحية بشَفَتَيْها المزمومَتَيْن، وقاومت. بَكَتْ من قلبها كله، ولكنها بقيت تقاوم. بَكَتْ نتيجة شعورها بالذنب والحزن، وهي تعلم أنها غير قادرة على فعل شيء لتغيير حالة نورما. وكما يقول المثل "الدموع هي الكلمات التي لا يستطيع القلب التعبير عنها".

في الواقع، كانت أمّي تعرف الكثير عن حقيقة قصّة نورما، أكثر ممّا استطاعت أو كانت على استعداد أن تكشف عنه. لم تكن هذه المرّة الأولى، ولن تكون الأخيرة التي تبقى فيها أمّي ساكنة هادئة مثل (أبو الهول) أمام تلك الأسئلة. ولا يمكن لأية كلمات أن تتجاوز قوّة الصمت.

استنتجت نورما أنه يمكن لمسرحية أن تدّعي بأنها تشبه الحياة، ولكن الحياة لا يمكن التلاعب بها.

الفصل الحادي والعشرون

ليس الفصل الأخير بالتأكيد

"حتّى تبقى الأمور على حالها، لا بدّ لها أن تتغيّر".

جوزيبه تومازي دي لامبيدوزا

دمشق 1970

كانت النقرات الثلاث المتتالية، تك تك تك، للقفل الثقيل هي التي أعلنت نهاية القصّة التي حطّمت قلب أمّي، وأطلقت حسرات كلّ من فاطمة وغالية المُسنَّتَيْن. أمّا أكثر الصور التي أذكرها من هذا الفصل الحزين في بيت جِدُّو نعمان، فهي بكاء أمّي عندما ذهبت لتأخذ نصيبها من الأثاث من منزل بيت جِدُّو المهجور، عندما أغلقت شقيقتاها الأكبر بابه للمرّة الأخيرة، وذهبتا للعيش مع ابنتهما نورما في الدوحة.

لم يكن أمام فاطمة في سنّ السّتّين أي خيارات أخرى، سوى العودة إلى حوران للعيش مع محمّد، ابنها وعائلته. بينما لم يكن لدى غالية المنهكة البالغة من العمر سبعين عاماً من طاقة إلا بالقدر الذي أتاح لها الانتقال من بيت جِدُّو نعمان إلى (أبو رمّانة)، أرقى أحياء دمشق، حيث كانت خالتي إسعاف تعيش حينها. لم يُستثنَ من هذا المشهد الحزين سوى ساجدة. كانت قد توفّيت قبل بضع سنوات، بعد أن انتقلت أصلاً من بيت جِدُّو نعمان للعيش مع ابنها سامي.

خشيت أمّي ذلك المشهد، ولذا أجّلته عاماً كاملاً. ما زلتُ أتذكّر كيف كانت تدور حول نفسها، وتتنقّل بين الغرف الصغيرة والوسيعة في قصر البارودي الكبير. واصلت الاحتجاج مراراً وتكراراً والدموع تنهمر من عينَيْها على وجهها: "حصّتي! لا أريد أي حصّة، مَنْ قال إنني أريد أن

أكون شريكة في تجريد منزلي، ومنزل أبي وعائلتي من الأثاث؟". توقّفتْ بعدها، واستدارت محدّقة بغضب في شقيقتها كريمة التي كانت تهرول خلفها محاولة عبثاً مساعدتها وتهدئتها أيضاً.

"بربّكِ، يا أختي! ما الذي سيُعيدني إلى دمشق، بمجرّد ذهابكِ وإغلاق بوّابة هذا البيت؟"

بكيتُ أنا أيضاً في ذلك اليوم، لأنني مثل أمّي وآخرين سنفتقد هذا البيت، ولن نستطيع بعد الآن القدوم إلى بيت جِدُّو نعمان، ولأنني كنتُ أؤمن أيضاً بالحقيقة المرّة: كان بيت جِدُّو نعمان، وفقط بيت جِدُّو، البيت الوحيد الذي تعترف به أمّي. كانت دمشق، وفقط دمشق، مدينتها. وكان من المؤلم بالنسبة إليّ أن أقبل أنني لم أستطع مع أشقّائي الثلاثة، وبالتأكيد أبي أيضاً، أن نجعل أمّي تشعر بأنها في بيتها، وأننا نحن عائلتها، وأن عمّان، المدينة التي عاشت فيها معظم حياتها، هي مدينتها، أو حتّى القدس، المدينة التي زعمت أنها أحبّتها.

"وكيف يمكنني تركيب هذه المرآة التي يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار في السقف الذي يبلغ ارتفاعه مترَيْن في عمّان؟ وماذا أفعل بهذه الكراسي؟" كانت أمّي تشير إلى مرآة ضخمة مطعّمة بالصدف: الجادينة والكراسي الاثنَي عشر المطعّمة بالصدف التي تتوزّع على جانبَي الليوان الذي يبلغ طوله ستّة أمتار، والأشبه بمعرض مفتوح.

ظلّت الجادينة أجمل قطعة من قطع الأثاث وأكثرها قيمة في بيت جِدُّو نعمان، وقد حرص الوَرَثَة جميعهم على الحصول عليها. ولكن خالتي ليلى قرّرت حصّة كل شخص من إخواتها. وذهبت هذه الجادينة وكراسيّها الاثنا عشر إلى سامية، وليس لأحد سواها.

ورغم قيمتها العاطفية والمادّيّة الكبيرة – حيث كانت خالتي ليلى تستقبل أفراد العائلة والضيوف في اجتماعات وليمة الجمعة، وفي مناسبات أخرى كثيرة - فإن كل شيء بالنسبة إلى أمّي في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة بلا معنى أو أي قيمة. لم يكن هناك أي قيمة لأي قطعة من قِطَع الأثاث: لا طقم الصيني، ولا طبق، أو مزهرية، أو سجّادة فارسية، أو كرسي مطعم بالصدف أو أي طاولة قهوة، أو ثريّا لها أي قيمة في اللحظة التي جُرّدت فيها، وأُبعدت عن المكان الذي تنتمي إليه في بيت جِدُّو نعمان. كان الأمر أشبه بحبّات مسبحة من الأحجار الكريمة، بمجرّد أن قِطَع الخيط انفرطت الحبّات بألوانها المختلفة. ستزول الذكريات الجماعية، وروعة بيت جِدُّو نعمان الفاتن وسِحْره، بيت آل البارودي إلى الأبد أو ربّما كما قالت غالية بكل بساطة وحكمة:

"في اللحظة التي مات فيها جِدُّو نعمان، تلاشت الروائح الرائعة لبيت البارودي إلى الأبد. لم يكن من قبيل الصدفة أن تختفي رائحة الياسمينة البيضاء، وأزهار الليمون، وأن تتوقّف السمكة الحمراء عن الحركة في الوقت الذي سكنت فيها المياه في النوافير كلها رغم أنه كان يوماً مشمساً

لطيفاً، وتوقّفت الطيور جميعها عن الغناء، بما فيها الطيور والراقصات المنحوتة والمرسومة يدوياً على ساعة الوقواق العتيقة. توقّفوا جميعاً في الساعة 4.47 مساءً جرّاء الحزن، وهي اللحظة ذاتها التي انفصلت فيها روح جِدُّو نعمان عن جسده".

إذا فكّرنا بالأمر قليلاً، سنجد أن غالية كانت على حقّ، فقد بدأ كل شيء، أو انتهى بالأحرى، في اليوم الذي مات فيه جِدُّو نعمان.

حدثت أشياء كثيرة منذ ذلك الحين، وسارت الأمور بسرعة كبيرة في غضون عشر سنوات: من اليوم الذي توفّي فيه جِدُّو نعمان إلى اليوم الذي أتت فيه أمّي لأخذ ورثتها، لم يبقَ شيء على حاله، أو لم يعد يمكن لأي شيء أن يبقى على حاله.

أثبت الزمن أن أمّي كانت على حقّ، ولو لمرّة واحدة في حياتها: بكت أمّي بمرارة في اليوم الذي مات فيه جِدُّو نعمان، ثمّ غمغمت بضع كلمات: "لن يكون هناك حياة بعد أبي نعمان". ففي اليوم الذي مات فيه، ملأت الدموع الصامتة تلك التجاعيد العميقة في وجه خالتي ليلى، وكانت تلك المرّة الأولى التي يراها فيها أفراد عائلة البارودي المتحلّقين حولها، تبكي. خاطبتْهم جميعاً: "الرجال الذين يخافون من الموت يموتون في الليل، ولكن أبي نعمان كان بطلاً حقيقياً، فقد توفّي في وضح النهار". كفكفت دموعها مثل الآخرين، ثمّ أضافت: "أريدكم جميعاً أن تتذكّروا أن

أبي نعمان لم يمت، لقد جمعَنا حوله كلنا بكل شجاعة لثلاثة أيّام، ودّعَنا، ثمّ مضى. كانت وفاته كريمة مثل حياته، لأن الموت هو انعكاس لحياة المرء" تهدّج صوتها قليلاً، لتُكمل: "إنه في داخل كل واحد منكم، لذلك فإن الحياة في هذا البيت، بيت البارودي ينبغي أن تستمرّ...".

مكّنتْني تلك الصورة الواضحة التي رسمتْها خالتي ليلى لجِدُّو نعمان أن أراه حياً يخرج من غرفة نومه متوجّهاً إلى الفناء، ويختفي مديراً ظهره لنا في عتمة ممرّ المدخل الضّيّق الملتوي. رافقتْني صورة جِدُّو نعمان يبتعد وعصاه في يده اليمنى لبقية حياتي.

نهض خالي حكيم يوم وفاة جِدُّو نعمان وتحدّث. وقف وردّد بصوت رجولي رخيم مسرف في الثقة مثلاً عربياً شائعاً: "اللي خلّف ما مات" مشيراً إلى نفسه. نظر من حوله، واستشعر الفراغ في القاعة المزدحمة، ثمّ انتحب كطفل.

وقفت خالتي كريمة التي أربكها كلام أخيها الأصغر منها والانهيار الرجولي غير المتوقّع، ونظرت باتّجاه أختها ليلى، وقالت "الله يحفظكِ فوق رؤوسنا، يا أختي"، وتوقّفت لفترة قصيرة، ثمّ أضافت "لن تُغلق أبواب بيت البارودي وأنت حَيّة، وستبقى دائماً مفتوحة على مصراعَيْها". عانقت خالتي كريمة ابنتها المراهقة نورما، بينما كانتا واقفَتَيْن كطفلَتَيْن يتيمَتَيْن.

بدا واضحاً للجميع أن خالتي كريمة كانت تخشى أنَّ تدخّل أخيها حكيم وعدوانيّته تجاه ابنتها نورما سيُطلق له العنان بعد موت جِدُّو.

إذا كان هناك شخص يخشى عواقب موت جِدُّو نعمان، فلا بدّ أن تكون نورما. ولكن قلب نورما الفتيّ لم يعرف الخوف يوماً رغم حزنه العميق. ولكنْ، في المقابل، إذا كان هناك شخص قد شعر على نحو غريزي، أو عرف بيقين، بأن الحياة في بيت جِدُّو نعمان لن تبقى، ولا يمكن أن تبقى على حالها بعد رحيله، فقد كان الفتاة المراهقة نورما. شعرَتْ منذ اليوم الأوّل بأن محاولات خالتي كريمة لحمايتها وحماية وجودها في هذا البيت كلها، لن تحول دون تقلّص حرّيّتها إلى حدّها الأدنى. حدست بأنها لا تملك مساحة كافية للمناورة في إطار المنافسة غير المعلنة بين خالتي ليلى وخالي حكيم. أو على رأي خالتي ليلى: " الصيصان كلهم بعد ممات أبي نعمان صاروا طواويس".

في حين كان الحيّز الفعلي لنورما يتقلّص إلى الحدّ الأدنى، كانت آفاق عالمها الخارجي تتوسّع يوماً بعد يوم. كانت برّيّة حرّة وحكيمة في الوقت نفسه بالقدر الكافي لتدرك أن بانتظارها الكثير خارج جدران قصر البارودي المرتفعة، وخارج جدران دمشق أيضاً: كانت برلين هي المدينة التي أحبّتْها وتشوّقتْ إليها عن بُعد، والتي كانت بانتظارها. وهكذا كانت كلّ من باريس وبيروت. بعد عامَيْن من وفاة جِدُّو نعمان كانت نورما في طريقها إلى برلين.

لم أنتبه مثل بقية الأحفاد الأصغر سنّاً والأكثر براءة للفروق الدقيقة بين كل ما قيل يومها وأهمّيّته. لم أكن أدرك عندها أننا شهدنا موت البابا وانتخاب شخص جديد: فقد أُعلنت تعهّدات الولاء لحظة اختفاء جِدُّو نعمان من الوجود.

كان كل فرد بالغ من عائلة البارودي، باستثناء الصغار والبريئين، يدرك أن هناك فراغاً في السلطة لا بدّ من ملئه، وهكذا ظهر ذلك التّوتّر والتنافس الخَفيّ بين خالتي ليلى غير المتزوّجة، والبالغة 62 عاماً من عمرها وخالي حكيم، شقيقها الوسيم والبالغ من العمر 40 عاماً، والوزير المعيّن حديثاً في الحكومة السورية الانفصالية. الحكومة الانفصالية نفسها التي تمكّنت من إسقاط الجمهورية العربية المتّحدة التي أعلنها الرئيس عبد الناصر بين مصر وسوريا (1958-1961). ولكنْ، وكما علّقت خالتي كريمة بعد عام أو عامَيْن: "إذا نجح الانفصاليون في تحطيم الوحدة العربية بين مصر وسوريا، فَمَنْ يعتقد حقّاً بأن حكم سيّدة حكيمة كأختي ليلى لن يتمّ إسقاطه من قِبَل الحكومة نفسها؟!".

فعلت خالتاي ليلى وكريمة كلّ ما في وسعهما، منذ وفاة جِدُّو نعمان إلى اليوم الذي جاءت فيه أمّي، لتأخذ نصيبها من الأثاث، للحفاظ على الكرم اللامتناهي والوفرة في ولائم واجتماعات يوم الجمعة لعائلة البارودي. أخذت قائمة الطعام في الوليمة الكبرى مع كل يوم جمعة يمرّ تنقص طبقاً أو طبقَيْن، أو شخصاً أو اثنَيْن من أفراد العائلة

الكبيرة. وفي حين كانتا مشغولَتَيْن بالحفاظ على وليمة يوم الجمعة، كان خالي حكيم يمارس سلطاته السياسية كلها ونفوذه لجمع أكبر عدد من أعضاء حزبه السياسي الحاكم في القاعات الكبرى، وفي الفناء الفسيح لبيت جِدُّو نعمان.

لا شكّ بأن تفكّك عائلة البارودي الموسّعة وتضاؤل ثرواتهم لم يكن بسبب وفاة جِدُّو نعمان في عام 1960 فحسب، بل جاء أيضاً بسبب التّغيّرات السياسية والاجتماعية الدراماتيكية التي حدثت في سوريا في تلك المرحلة. لم تشهد البلاد، خلال أقلّ من عقد من الزمن تشكيل الجمهورية العربية المتّحدة وتفكّكها وحسب، بل شهدت أيضاً سلسلة من الانقلابات، كان أوّلها الانقلاب البعثي عام 1963، وتبعه الانقلاب البعثي الآخر في عام 1966. وهكذا تلاشت ثروة عائلة البارودي ومكانتها مثل بقية طبقة التّجّار الأغنياء في دمشق وأماكن أخرى في سوريا.

ومثل قائمة طعام الوليمة الكبرى في أيّام الجمعة التي كانت تنقص طبقاً أو طبقَيْن كل يوم جمعة، أخذ الحزب السياسي لخالي حكيم يفقد المزيد من الأعضاء في كل اجتماع من اجتماعات يوم الاثنَيْن. سُجن خالي حكيم عام 1966 ليتبع الإفراج عنه مغادرته سوريا نهائياً. خرج من البلاد مهرَّباً في صندوق سيّارة، نقلتْه من دمشق إلى بيروت، في طريقه إلى السعودية، حيث عاش وعمل مهندساً مَدَنياً، إلى أن وافتْه المنية عام 1986.

مثل فارسة على حصان أبيض، ظهرت نورما يوماً، لتُعلن أنه قد حان الوقت لتأخذ والدتها وخالتها لخالة ليلى بعيداً. أو كما قالت بالضبط: "لأُنقذ أمّي وخالتي ليلى من التّمسّك بفتات ما تبقّى من عزِّ بيت جِدُّو نعمان، ومن تهاوي الطبقة الأرستقراطية في سوريا". لقد عاشت أمّها وخالتها ليلى حتّى الآن حياة مترفة، و"سأحرص على أن يعيشا على هذا النحو حتّى آخر يوم من حياتهما. وإن لم يكن هذا في دمشق، فليكن في الدوحة، إذنْ".

كان إعلان نورما الدرامي مُشبَعاً بشخصيّتها المسرحية.

ولكنها قُوبلَت كما هو متوقّع بمقاومة كبيرة. اعترض معظم أفراد عائلة البارودي، كلّ لأسبابه، ودوافعه الخاصّة.

ولكن كل ما أتذكّره ويتذكّره الجميع من غياب نورما الذي امتدّ سنوات طويلة هو دموع خالتي كريمة. ساد الحزن والقلق في حياتها وهي تنتظر ساعي البريد، ليعطيها رسالة من رسائل ابنتها النادرة. كانت خالتي كريمة، سواء كنّا في زيارة لبضع ساعات أو في نزهة ليوم كامل، ترسلني بسرّيّة تامّة إلى بيت جِدُّو نعمان، لأحضر رسالة، قد تكون وصلت من نورما.

في المناسبات النادرة التي تنزلق فيها إحدى الرسائل تحت الباب، كنتُ أركض كالمجنونة على طول الطريق السرابي الذي أخذني من بيت جِدُّو نعمان، من خلال سوق الحميدية المسقوف إلى المكان الذي تكون فيه خالتي كريمة. كانت

السعادة تغمرني عند رؤية وجهها يشرق مجدّداً، ولكن التجارب السابقة علّمتْني أن هذه مجرّد ابتسامة وجيزة مسبوقة بنهر من دموع الشوق. دموع عندما تصل الرسالة، ودموع عندما لا تصل. دموع عندما تقرأ رسالة نورما للمرّة الأولى، والمزيد منها عندما تقرؤها للمرّة الثانية، والثالثة، ولمرّات لا تُحصى. كانت تُروى أخبار ابنة خالتي المفقودة من خلال الغصّات والابتسامات. سمعنا في النهاية أخبار نورما التي أصبحت فنّانة في شوارع برلين، وأخبار نورما تعمل كدليل في دار الأوبرا في برلين، وأخبار التحاقها بدروس الدراما. ولكنْ، كان هناك بالإضافة إلى الأخبار الواردة من خالتي كريمة الشائعات والأكاذيب التي تطلقها "الشّرّيرة فاطمة" كما اعتادت أمّي أن تسمّيها. كانت هناك شائعة تقول إن نورما تركت الجامعة. وقبل ظهور نورما بقليل، انتشر خبر يقول بأنها تزوّجت وأصبح لديها طفل. أو ربّما كان العكس هو الصحيح وفقاً لفاطمة: حبلت بالطفل أوّلاً، ثمّ اضطرّت بعدها إلى الزواج، إلا أن أحداً لم يكن يعرف الخبر المفرح بأن نورما وجدت أخيراً فارس أحلامها: حسن، الرجل الغني والوسيم الذي سيهب نورما الثروة كلها التي تريدها، والحبّ الرجولي كله الذي كانت تتطلّع إليه والأمان كله الذي يصاحبه، والكثير الكثير أيضاً.

"جئتُ لآخذكِ معي إلى أرض الأحلام وبيت الأحلام وإلى فارس أحلامي.. أريدكِ أن تري القصر الذي شيّدته

خصّيصاً لكِ. لن تصدِّقي عينَيْكِ، إنه نسخة طبق الأصل من بيت جِدُّو نعمان".

فتح الجميع عيونهم مندهشين: "نسخة طبق الأصل من بيت جِدُّو نعمان!"

تبادل البعض نظرات الشّكّ، لا يعرفون ماذا يقولون أو يفعلون، وتمتم البعض متذمّراً.

"وواصلت شهرزاد كلامها المباح".

وأُعجب القليلون مثلي أنا وخالتي كريمة بانتصارات نورما العظيمة.

"نعم، قصر مثل بيت جِدُّو نعمان تماماً. لن تصدِّقي المشاقّ التي تكبّدتها في سبيل بناء هذا القصر الأغرب من الخيال".

وقفت نورما، ولفّت الشال الأسود حول كتفَيْها العريضَيْن، ثمّ أضافت:

"جبتُ العالم بأكمله، واستخدمتُ عدداً هائلاً من المهندسين المعماريّيْن، أكثر ممّا تتخيّلين، وعشرات الحرفيّيْن، والبنّائين، والنّجّارين، والحدّادين، والنّحّاتين، وكل ما يخطر ببالكِ... طرتُ إلى أماكن بعيدة وقريبة: من دمشق إلى حلب، من مومباي إلى جاكرتا، من اسطنبول إلى أزمير، وأين أيضاً؟ أوه، نعم إلى سمرقند وتبريز".

كنتُ أنا مَنْ عبر عن الغضب هذه المرّة قائلة: "ها هي تعود إلى كلامها المباح مرّة أخرى".

نعم، ينبغي أن أعترف أنني مثل أمّي، شعرتُ أن هناك خطأ ما في وجود نسخة طبق الأصل من بيت جِدُّو نعمان في الدوحة أو في أي مكان آخر.

أحسستُ بالضبط كما شعرتْ والدتي تجاه مرآة الجادينة المطعّمة بالصدف والكراسي الاثنَي عشر التي جاءت معها: نسخة من بيت جِدُّو نعمان، ليست بيت جِدُّو نعمان، ولا يمكنها أبداً أن تكون البيت نفسه. لم أستطع، بقدر ما أحببتُ نورما وأُعجبتُ بمواهبها وقدراتها، أن أفكّر أو أتخيّل أو أقبل بهذا البيت المطابق خارج زقاق الصّوّاف، خارج حَيّنا حَيّ مدحت باشا، أو خارج دمشق القديمة.

ربّما كان شعوري الداخلي بأن دمشق مدينتي الحبيبة، ومركز التّجمّع التجاري والزراعي لبلاد الشام، وكذلك الدول والثقافات العربية المتوسّطية جميعها، كانت تفقد بريقها لصالح البلدان العربية النفطية الغنية الفتية. كانت الحقائق والإغراءات الاقتصادية تجذب الناس، ليُولّوا وجوههم عن البحر المتوسّط باتّجاه الخليج العربي. وقد علّمني الزمن يوماً: أن الخسائر الثقافية والثمن الذي دفعناه جميعاً في النهاية أغلى بكثير من النفط أو حتّى الذهب.

أثبت إعلان نورما الدرامي المثير بكل ما يحمله من أداء مسرحي عن حياة والدَيْها (ليلى وكريمة) برفاه حتّى آخر يوم في حياتهما أيضاً أن نورما سيّدة أفعال، بقدر ما هي سيّدة أقوال. عاشت كلّ من خالتي كريمة وخالتي ليلى في

الحقيقة مثل السلاطين في الدوحة حتّى آخر يوم من حياة كل منهما.

ماتت خالتي ليلى في سنّ الخامسة والثمانين، ودُفنت في الدوحة. وامتدّ عمر خالتي كريمة أمّ نورما حتّى بلغت الثانية والتسعين. ماتت خالتي كريمة بسلام في صيف 1998، وكانت نورما بجوار سريرها في فيلا فخمة في برمّانا، المصيف الشهير في جبل لبنان. عندما أسلمتْ الروح بابتسامة باهتة. حزنتْ نورما كما هو متوقّع حزناً شديداً وأبدياً، بقدر حبّ والدتها لها.

الجزء السادس

الأمّهات

"يبعث الله الحياة من الموت، والموت من الحياة، من دون أن يهدر قطرة واحدة".

الفصل الثاني والعشرون

عبر دمشق

كنتُ وحدي في المقعد الخلفي لسيّارة الأجرة التي أخذتْني من عمّان إلى بيروت عبر دمشق. وكم كانت عبارة "عبر دمشق" غريبة! فكيف يمكن لدمشقي أنا، ودمشق أمّي ودمشق تِيْتِة بسيمة وجِدُّو نعمان أن تصبح نقطة عبور. لم يبدُ الأمر غريباً، لأن دمشق كانت أقدم مدينة وأعرق مدينة في العالم وحسب، بل لأنها كانت أيضاً مركز حياتي وحياة

أمّي وحياة جِدُّو وتِيْتِة. لكن هذه أصبحت الحقيقة الأكبر من حقيقة حيواتنا كلنا.

كنتُ ذاهبة من عمّان إلى بيروت عبر دمشق، لأقدّم التعازي لابنة خالتي نورما في وفاة أمّها. شعرتُ رغم أنني قد تأخّرت شهرَيْن على ذلك بأن عليّ أن أكون بقرب نورما في هذه اللحظة الحرجة من حياتها. أحسستُ بالحاجة، لنتشارك إحساسنا العميق بالخسارة: ذلك الثقب الأسود والفراغ الذي يملؤنا عند فقدان أحبّتنا.

مضى وقت طويل منذ آخر مرّة قابلتُ فيها نورما. رأيتُها في بيروت في صيف 1970 لآخر مرّة منذ حوالي ثلاثين سنة. وإذا كنتُ أُقارِبُ الخمسين من عمري اليوم، فلا بدّ أنها في خمسينيّاتها. شعرتُ بالإحراج متبوعاً بالندم، لأن ظروفي حالت بيني وبين حضور جنازة خالتي كريمة، أنا التي أُكنّ لها حبّاً كبيراً، هي ونورما.

ارتجفَ صوت نورما حين روت لي على نحو مروّع ذلك المشهد المفجع: "كان هناك ثلاثة أشخاص في جنازة أمّي. ابنة خالتي جميلة، وممرّضة أمّي، وأنا". ساد الصمت على جانبَي خطّ الهاتف.

تذكّرتُ عندما حدّقتُ من نافذة السّيّارة كم كانت خالتي كريمة محبّة وطيّبة ومعطاءة، ليس لابنتها نورما وحسب، بل لكل واحد منّا: بنات وأبناء أخواتها العديدين. لم أستطع سوى أن أبتسم عندما تذكّرتُ كيف أخذتْني وأنا في السادسة من عمري في ظلمة الليل في أزقّة دمشق القديمة

بحثاً عن أقلام ألوان خشبية. رغم الحقيقة المُرّة أنه في ذلك الصباح، وبعد أن اشترت لي الخالة كريمة الألوان الخشبية، قامت مدرسة التربية الفنّيّة، بِعَضِّي وضربي.

تذكّرتُ أيضاً أوّل دمية اشترتْها لي، وكم حاولتْ بصعوبة إقناعي بالحصول على دمية سوداء مثل ساجدة وغالية، وكيف رفضتُ بقوّة وعناد. حاولتْ معي محاولتها الأخيرة "ما رأيكِ بدمية من لونكِ: بنّيّ داكن زيتوني؟". "لا، أريد دمية شقراء، شقراء مثل الدمية التي اشتريتِها لابنة خالي ريما".

استعادتي لزياراتنا اليومية إلى محلّ بوظة بكداش في سوق الحميدية، أعادت إليّ بالمذاق اللذيذ للبوظة العربية بنكهة المستكة والفستق. وكيف كان أبناء الإخوة والأخوات وبناتهم الذين تصحبهم خالتي كريمة إلى هناك يمسّهم شيء من الجنون من مجرّد النظر إلى الألوان المختلفة للبوظة محتارين أي نكهة وأي لون سيختارون. كم كانت صبورة وسخية ومحبّة خالتي كريمة، رحمها الله.

وسرعان ما وصلنا إلى طريق حوران - دمشق: الطريق نفسه الذي سارت عليه تِيْتِة بسيمة، منذ مائة عام أو أكثر (1892 - 1998). المشهد المتغيّر على طول الطريق أعاد إليّ ذكريات سعيدة وحزينة، في الوقت نفسه. تذكّرتُ كيف عبرت تِيْتِة هذا الطريق مرّتَيْن: مرّة في بداية حياتها الزوجية: عروساً جميلة في الرابعة عشرة من عمرها تتطلّع للمضي قُدُماً في حياتها، والمرّة الثانية وهي تنوء

تحت عبء خسارَتَيْن: وفاة أمّها وخسارة البريق في حياتها الزوجية نتيجة خيانة جِدُّو نعمان. وكم كانت كلمات خالتي ليلى في مكانها عندما قالت: "موت المرء انعكاس لحياته". عاشت تِيْتِة بسيمة بصمت، ورحلت بصمت. عاشت في الحزن، وماتت في الحزن. وغادرت تِيْتِة بسيمة هذا العالم، من دون أن يلاحظها أحد تقريباً.

أدركتُ، عندما اجتازتْ سيّارة الأجرة الأجزاء الجديدة من دمشق، ثمّ أخذتْ طريقاً فرعياً، وتابَعتْ وجهتها إلى بيروت، أنني مثل أمّي، لم أزر هذه المدينة الخلابة منذ ثلاثين عاماً: منذ عام 1970، عندما جاءت أمّي لأخذ حصّتها من بيت جِدُّو نعمان. الآن فقط فهمتُ تماماً لماذا حافظتْ أمّي على القَسَم الذي قطَعتْهُ على نفسها هذه السنوات كلها؟: لأن المجيء إلى دمشق وعدم الذهاب إلى بيت جِدُّو نعمان كان يتسبّب في آلام عميقة. مسحتُ دموعي، وعدّلتُ جلستي، وذكّرتُ نفسي بأنني بحاجة إلى أن أكون في مزاج جيّد، إذ كنتُ سأقابل نورما بعد قليل.

إعصار نورما

ظهَرَتْ قبل أن أدرك أنها هناك، وقبل أن تُتاح للسائق فرصة ركن سيّارته أمام فيلا نورما الرائعة في برمّانا. كانت تستند بجسدها أمام أحد الأعمدة الكورنثية الثلاثة للشرفة الأمامية العالية، كما لو أنها أمام عدسات المصوّرين.

ها هي رائعة ومثيرة كما أتذكّرها، وربّما أكثر، وفي أبهى حالاتها. بدَتْ كأنها لوحة إسبانية من القرن السابع عشر لكونتيسة متّشحة بالسواد. ساعَدَ توهّج ضوء الظهيرة في إبراز ثناياها وملامحها النسائية: صدرها الكبير، وعقدة شَعْرها السوداء، وخطوط الكحل السميكة حول عينَيْها البرّاقتَيْن.

اختفى هذا السكون والهدوء كلاهما في لحظة واحدة.

نزلَتْ درجات السّلّم القليلة بسرعة كالعاصفة، وركضت نحوي فاتحة ذراعَيْها. عانقتْني بقوّة، ورحّبتْ بي كما يليق بابنة خالة غائبة منذ زمن طويل:

"يا مية أهلا وسهلا لولتي حبيبتي، كيف حالكِ؟ لن تصدِّقي كم افتقدتُكِ، أنا سعيدة لأنكِ تمكّنتِ من المجيء إلى هنا، سعيدة بمجيئكِ، سعيدة لرؤيتكِ بعد هذه السنوات كلها، تبدين جميلة، هيّا، تفضّلي بالدخول... هيّا" دخلتْ نورما حديقتَها الوارفة، وصعدتْ الدرجات القليلة للمنزل، وتَبِعتُها.

"ألف أهلاً وسهلاً، يا مية هلا... لولتي حبيبتي، لا بدّ أنكِ متعبة، اخلعي سترتكِ، اخلعي حذاءكِ، واستريحي هنا، تفضّلي، اشربي كوب الماء البارد هذا، لقد أضفتُ بضع قطرات من ماء الزهر إليه، واشربي هذا، لقد أعددتُ لكِ عصير ليمون طازجاً مع النعناع وماء الورد، إليكِ هذه المنشفة المبلّلة، امسحي وجهكِ ويَدَيْكِ، تعالي، حبيبتي لولو، دعيني أريكِ المنزل، انظري إلى هذه الإطلالة

المذهلة من الشرفة، ما رأيكِ بهذه اللوحة؟ اقتنيتُها في رحلتي الأخيرة إلى نيويورك، انظري معي إلى هذا النقش الرائع، خذيها إن أحببتِ، لقد اشتريتُ اثنَتَيْن منها، دعيني أريكِ إيّاها، أنا متأكّدة من أنكِ سوف تقدِّرين قيمتها... انظري..." بالكاد تمكّنتُ من متابعة أو مجاراة ما أطعمتْني إياه أو أخبرتْني به أو أَرَتْني أو أهديتْني إيّاه.

"مهلكِ عليّ، حبيبتي نرموش، تذكّري أنني سأكون معكِ ليومَيْن كاملَيْن، لذلك لدينا متّسع من الوقت...".

"ماذا! يومان فقط! لا بدّ أنكِ جُننتِ، تعطينني يومَيْن فقط بعد ثلاثين عاماً، مستحيل بأي حال من الأحوال، يجب عليكِ البقاء أسبوعَيْن على الأقلّ أو حتّى شهر...". تابعتْ نورما دعوتها المرحة المُلحّة حيث اضطررتُ في النهاية إلى مقاطعتها:

"هل أنتِ وحدكِ؟"

"تعلمين جيّداً، يا ليلى، لطالما كنتُ وحيدة".

"نرموش، أرجوكِ، لا تدعينا ننغمس في الفلسفة الآن"، شعرتُ كما لو أن ديناميات طفولتنا عادت مجدّداً.

"لن أتفلسف، يا ليلى، بل هذه هي الحقيقة، أشعر بالوحدة خصوصاً بعد وفاة أمّي... لا يمكنني أن أصف لكِ مدى الوحدة والفراغ اللذَيْن أعانيهما هذه الأيّام".

اقتربتُ من نورما، وعانقتُها بشدّة، لأُعوِّض عن عباراتي التي تفتقر إلى الحساسية. عانقتْني مجدّداً، وتنهّدتْ، ثمّ

أفلتَتْني.

كان عليّ أن أذكّر نفسي إلى أي مدى يمكن لابنة خالتي أن تتحوّل إلى شخص طاغٍ ومستأثر. خصوصاً الآن وهي متحمّسة لرؤيتي. مرّت سنوات عديدة منذ آخر مرّة رأيتُها فيها، لكن شيئاً لم يتغيّر. كنتُ قد أُنهِكْتُ بالفعل، وأصبحتُ جاهزة لقيلولتي رغم عدم مضي أكثر من نصف ساعة:

"نرموش، لماذا لا تريني غرفة نومي؟ أريد أن أرتاح قليلاً".

"نعم، دعيني أساعدكِ في حقيبة سفركِ، هيّا، اتبعيني، دعيني أُريكِ غرفتكِ، خصّصتُ لكِ غرفة بإطلالة رائعة". ذكّرتْني ضحكتها بالأفلام التي كانت مغرمة بمشاهدتها، والتي ما تزال تتابعها حتّى اليوم كما هو واضح. "تعالي، انظري، كم هو رائع وجميل منظر البحر من غرفتكِ. لا بدّ أن يجعلكِ هذا تبقين صيفاً كاملاً هنا معي". فتَحتُ الستائر، ونظرتُ من النافذة التي بعرض الجدار وطوله. كانت مُحقّة تماماً: كانت الإطلالة البحرية مذهلة.

"سأتركك الآن، يا لولتي، ولكنْ، انزلي لتناوُل طعام الغداء، لا بدّ أنكِ تتضوّرين جوعاً الآن". رغم أننا كنّا في النهار، تجوّلتْ نورما في أنحاء الغرفة، وأنارت الأضواء كلها في غرفتي، وفي الشرفة المجاورة، وفي حمّامي الخاصّ. ثمّ خرجتْ من الغرفة، وأغلقت الباب خلفها.

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وهمستُ لنفسي: أخيراً!

أخذتُ وقتي عمداً في تعليق ملابسي قطعة قطعة، وببطء. ثمّ أخذتُ دشّاً بارداً لاستجماع طاقتي، وتجديدها، وغامرتُ بالنزول لمواجهة إعصار نورما مرّة أخرى.

صرختْ نورما وأنا أنزل السّلّم المنحني: "تعالي إلى هنا، أنا في غرفة الطعام". وعندما كنتُ أتساءل كيف لي أن أعرف مكان غرفة الطعام، ظهرتْ نورما، وسحبتْني من يدي.

كانت غرفة الطعام فخمة وكبيرة مثل الأجزاء الأخرى جميعها من الفيلا التي رأيتُها حتّى الآن. تضمّنت المائدة التي يبلغ طولها أربعة أمتار كل طبق، يمكن أن أتذكّره من بيت جِدُّو نعمان، لكنْ، مع وجود فارق واحد كبير: في حين كانت مائدة الطعام في بيت جِدُّو نعمان تضمّ حولها خمسين شخصاً، كانت هذه الطاولة تضمّ شخصَيْن فقط.

"تعالي، لولتي حبيبتي، واجلسي بجانبي، تناولي التّبّولة والفتّوش، وسَلَطَة الخيار، والبابا غنّوج، تناولي القليل من باذنجانكِ المفضّل، نعم، لا زلتُ أتذكّر الطبق المفضّل لديكِ، هيّا، أعطيني طبقكِ، دعيني أسكب لكِ من الكبّة اللّبنيّة، أعلم أنكِ تعشقينها، جرِّبي الكفتة مع صلصة البندورة الطازجة، إنه طبق تِيْتِة بسيمة المفضّل، جرِّبي هذا، وذاك، وتلك، ما رأيكِ بالمزيد من هذا؟ هل أصبّ لكِ كأساً آخر من العَرَق؟ إنه أفضل أنواع العَرَق في لبنان كله، صحيح أنه قد يجعلكِ تسكرين في أي لحظة، ولكنه يستحقّ أن يُشرب، هيّا، يا لولتي، بصحّتكِ، اشربيه دفعة

واحدة، ولديّ زجاجة عَرَق أخرى لكِ، سأمزج كأساً أخرى. "يا إلهي... هل شربنا نصِّيَّةً كاملة من العَرَق فعلاً؟" كانت هذه الكلمات القليلة الوحيدة التي انزلقت من فمي خلال الغداء الذي استمرّ ساعَتَيْن.

بدا أن تذكُّر الوليمة الكبرى في بيت جِدُّو نعمان في أثناء الأكل والشرب حتّى التخمة الطريقة الأكثر طبيعية وملاءمة لإحياء ذكرى أمواتنا، ليس خالتي كريمة وحسب، بل جميع أحبّائنا أيضاً: تِيْتِة بسيمة، وجِدُّو نعمان، وخالتي ليلى، وخالاتي كريمة، وإسعاف، وفايزة، وأخوالي حكيم، ورفيق، وناجح، وسامي، ثمّ ساجدة، وغالية، ووالدي. لا عجب أن تكون أمّي الصلبة وفاطمة القاسية ما زالتا على قيد الحياة.

"رحم الله الخالة كريمة"، لاحظتُ أنني لم أعزِّ نورما حتّى الآن.

"شكراً، حبيبتي، رحم الله أمّي... أنتِ الوحيدة، يا ليلى، التي تعرفين كم أحببتُها".

"وأنا الوحيدة التي أعرف كم أحبّتكِ، يا نورما".

تعانقْنا عناقاً طويلاً آخر.

قالت نورما "ليلى، لم أنسَ عاداتكِ، اصعدي الآن لتحظي بقيلولتكِ المقدّسة، لدينا وقت طويل لمعرفة أخبار بعضنا".

أيقظتْني طرقات نورما على بابي.

"هذه قهوتكِ بالحليب من دون سكّر، إذا لم تخنّي ذاكرتي. خذي وقتكِ، وانزلي لمشاهدة غروب الشمس عندما تكونين جاهزة، ولكنْ، عديني ألا تعودي للنوم مجدّداً".

ابتسمتُ وأنا أستوي جالسة في السرير "أعدكِ بأنني لن أعود للنوم".

لن نخرج من البيت في ذلك المساء، لففتُ نفسي بعباءة الحرير الدمشقية بالطريقة نفسها التي كنّا نرتدي فيها عباءاتنا الحريرية مساءً في فناء بيت جِدُّو نعمان.

عندما نزلتُ السّلّم الخشبي الأنيق، رأيتُ نورما تنتظرني في الشرفة المفتوحة. أتعبتْ نفسَها مجدّداً، وعملت على إعداد طاولة خاصّة لمشروباتنا المسائية. كان هناك على طاولة منخفضة مباشرة أمام صينيَّتَي المقبّلات الكبيرَتَيْن، عشرون صحناً من الفخّار الأزرق الداكن مليئة بالمكسّرات، من الأنواع كلها: اللوز، والجوز، والكاجو، والفستق، والفول السوداني، البزر الأسود والأبيض: وبزر البطّيخ المحمّص، وبزر عبّاد الشمس، والقضامة. كان هناك أيضاً أطباق أكبر حجماً، تحتوي على أصناف مختلفة من الفواكه المجفّفة: المشمش، والخوخ، وخمسة أنواع من زبيب العنب. هذا بالإضافة إلى ثلاثة أطباق كبيرة مرتّبة: واحد يحتوي على فواكه طازجة، وآخر على خضار طازجة، وثالث مليء بالفطائر: فطائر السبانخ والجبن، وأخرى مَحشوّة بالجبن النابلسي الأبيض المالح الذي أودى بأبي. ولكنْ، كان هناك أيضاً طبق خشبي جذّاب، يحتوي

على أصناف مختلفة من الأجبان. وضعت نورما على طاولة جانبية أنواع المشروبات الروحية كلها التي يمكن أن يتخيّلها المرء.

سألتْني نورما: "جِنْ وتونيك؟ أم غيّرتِ عاداتكِ؟"

"حتّى لو غيّرتُ عاداتي، فلا بدّ إكراماً لذكرى أيّامنا الغابرة، أن نبدأ بالجِنْ والتونيك، ثمّ ننتقل بعدها إلى النبيذ الأحمر".

"حسناً، لديّ زجاجة بارلو رائعة من حبيبتكِ إيطاليا".

"عظيم، لماذا لا نفتحها؟ ويمكننا، في الوقت نفسه، البدء بالجِنْ وتونيك الذي يعود إلى أيّام مراهقتنا".

"بصحّتكِ، يا لولتي".

"بصحّتكِ، يا نرموش".

نظرتُ مذهولة والكأس في يدي إلى البحر المتوسّط الرائع في الأفق البعيد. كانت الشمس تغرب، وتذكّرتُ كم أحببتُ ونورما مشاهدة ذلك في بيروت. كان غروب الشمس والأوبرا الشيئَيْن الوحيدَيْن اللذَيْن يُبقيانها صامتة وهادئة على نحو مدهش.

شاهدتُ مع نورما الصامتة قرص الشمس المتوهّج يغوص في الأفق البعيد، بينما تحتلّ الخلفية الموسيقية أوبرا فيردي "La Forza Del Destino" قوّة القَدَر (التي تعود لعام 1862 العام الذي وُلد فيه جِدُّو نعمان).

مرّت بضع ثوانٍ من الصمت قبل أن ننظر إلى بعضنا، ونبتسم، وقبل أن تمتلئ عيناها وعيناي بالدموع.

"لقد مضى وقت طويل، يا لولتي".

"نعم، أعلم، يا نرموش، بصحّتكِ".

مرّت لحظات فقط قبل أن تكسر نورما الصمت، وتُمطرني بأخبارها. أخبرتْني ولساعة كاملة من دون توقّف، كم كانت حياتها الزوجية سعيدة، وكم كان ابنها وابنتاها مرحَتَيْن وناجحَيْن، وكم كانت خالتاي سعيدَتَيْن في القصر الذي بنتْه خصّيصاً لهما. وكم تدلّلتا حتّى آخر يوم من حياتهما. ضحكتْ وقهقهتْ بصوتٍ عالٍ عندما روتْ قصصاً عن خالتها ليلى، وكيف أنها بقيت الطاغية الإمبراطورة التي كانتها دائماً في بيت جِدُّو، وكيف احترمها الجميع، وخشوا منها أيضاً. وصفتْ نورما لي بعبارات رقيقة وابتسامة خفيفة المحبّة والعناية والعطاء الذي منحتها أمّها لأحفادها الثلاثة، وإلى أي مدى عشق الأحفاد تِيْتِة كريمة. وكيف كان الجميع سعداء ومنسجمين. ينبغي أن أقول إنني سررتُ لسماع تلك "النسخة الأشبه بالحلم" من حياة نورما في تلك الليلة. كنتُ سعيدة على وجه الخصوص، لأنني أتذكّر دائماً أنه لطالما كان لدى نورما ومنذ الطفولة نسختان من القصّة نفسها: "النسخة السعيدة الأشبه بحكايات الأطفال" و"النسخة الشّرّيرة". لذلك لن أندهش لو استيقظتْ نورما في اليوم التالي، وأخبرتْني كم كان زواجها تعساً، وعن مدى المعاناة التي يعيشها أطفالها الثلاثة، وكم كانت

خالتاي حزينَتَيْن ومكتئبَتَيْن منذ اليوم الذي غادرتا فيه بيت جِدُّو نعمان حتّى موتهما في المنفى. ولكنني رغبتُ في الوقت الحالي في التّمسّك بالنهايات السعيدة. ومضى الأمر على هذا النحو حتّى منتصف الليل عندما تغيّر صوت نورما ولهجتها فجأة تغيُّراً كبيراً. انتبهتُ إلى أن مزاجها قد تغيّر. كنتُ أعرف نورما جيّداً، لدرجة يمكنني أن أؤكّد أن حالتها المزاجية يمكن أن تتأرجح بسهولة من الخفّة والطيران حتّى السماء السابعة إلى الكآبة التي تصل إلى عمق ستّة أقدام تحت الأرض. ولكنني كنتُ مستعدّة لأي شيء، فقد فقدت أمّها مؤخّراً، كنتُ متهيّئة لحالاتها المزاجية المتأرجحة والسوداوية، والروايات المختلفة والمتناقضة للقصّة نفسها.

أو هكذا ظننتُ.

فجأة توقّفتْ نورما عن سرد إحدى قصصها التي لا تنتهي، ووقفتْ بقوّة حصان جامح، وأدارت ظهرها، وبدأتْ تخطو بعصبية جيئة وذهاباً على طول شرفتها الطويلة. شعرتُ بأن نورما على وشك أن تدلي بواحد من تصريحاتها الهامّة، أو عباراتها الرّنّانة أو "بيت القصيد"، كما اعتادت أن تسمّيها في أثناء تدريبات المسرح. قلتُ بعد أن شعرتُ أنها بحاجة للمساعدة:

"ماذا دهاكِ، يا نورما؟ هل هناك شيء تودّين إخباري به؟ هيّا... قولي، يا نرموش".

عليّ الاعتراف أنني كنتُ سكرانة قليلاً ومليئة بالسكينة والفرح عندما وقفتْ نورما لبضع ثوان، ثمّ عادت إلى مقعدها بجانبي. أدارت جسمها كله باتّجاهي، وأخذتْ نَفَساً عميقاً، ثمّ قالت:

"ليلى، هناك شيء هامّ، أريد أن أخبركِ به".

أفزعتْني الرعشة غير المألوفة في صوت نورما، وأجبرتْني على التركيز رغم سُكْري.

"ماذا هناك، يا نورما؟ أخبريني". كان هناك شيء مثير للقلق في ملامح وجه نورما جعلني أشعر بالرعب حقّاً. نظرتْ إلى الأفق مجدّداً، ثمّ باتّجاهي، وعادت إلى الأفق، ثمّ نظرتْ إلى وجهي: "ليلى..."، ثمّ توقّفت محاولة استجماع قواها، لتحاول مجدّداً:

"هل ستساعدينني في العثور على أمّي؟"

ما هذا الذي كانت تقوله؟ هل أصابها مَسّ من الجنون؟

"العثور على أمّكِ؟!" أجبتُها في محاولة لاستيعاب ما رمَتْهُ في وجهي للتّوّ. "لم تتوقّفي يوماً عن مفاجأتي، يا نرموش".

ساد صمت مطوّل محطّم للأعصاب، لم يجرؤ أحد على كسره، وبالأخصّ أنا.

كانت والدتها، الخالة كريمة قد ماتت للتّوّ. ما الذي كانت تقصده؟

"لولتي حبيبتي، أحتاج مساعدتكِ للعثور على أمّي الحقيقية. أمّي البيولوجية". ارتجف صوتها، ونزلت دموعي.

"الأمّ الحقيقية. الأمّ البيولوجية". وجدتُ نفسي أكرّر ما قالتْه قبل أن ألجأ إلى الصمت.

سيطرتْ نورما على الوضع مجدّداً بعد أن أدركتْ حالة الصدمة التي تسبّبَ فيها طلبها:

"أعلم أنه طلب صعب، يا ليلى، لكنكِ الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي في العثور عليها".

قلتُ لنفسي، طلب صعب! إنها مهمّة مستحيلة. كنتُ مضطربة أكثر ومنزعجة من التفكير في معنى عبارة الأمّ الحقيقية!

لم أرغب في طرح فكرة إشكالية مثل هذه على نورما المرتبكة في هذه اللحظة الوجودية من حياتها، كانت العبارة الوحيدة التي عصفتْ بذهني المضطرب في تلك اللحظة، وربّما الفكرة الوحيدة، هي عبارة أمّي التي طالما كرّرتها:

"لم أرغب في الزواج يوماً، ناهيكِ عن إنجاب الأطفال".

هل كانت أمّي البيولوجية أكثر أمومة من والدة نورما؟

هل كانت أمّي أكثر أمومة من خالتي كريمة التي لم تتزوّج قطّ، ولكنها فعلت المستحيل للحصول على هذه الطفلة التي أحبّتها حبّاً جنونياً، واحتضنتْها، وحمتْها؟!

يا إلهي، ذلك الحبّ كله غير المشروط، وذلك الاهتمام كله، والعناية والرعاية التي منحتْه خالتي كريمة لابنتها نورما، طفلتها الوحيدة، وتبحث نورما في السّتّين من عمرها، وبعد ستّين يوماً فقط من وفاة أمّها، عن " أمّها الحقيقية" أو "البيولوجية".

لماذا؟

ساد السكون. لم يسعني سوى أن أتذكّر بروفات مسرحية نورما قبل عقود مضت، حين أعطتْني تعليمات كمخرجة: "لولتي حبيبتي، عليكِ أن تقدّمي للجمهور لحظة صمت، كي يستوعب ما قلتِه له، ويتفاعل بعدما قلتِهِ له للتّوّ". كل ما أذكره هو أن لحظة الصمت هذه كانت مليئة بالدموع.

استغرق الأمر منّي لحظات طويلة قبل أن أسيطر على أفكاري المشوّشة وعواطفي المتضاربة، ناهيكِ عن موقفي الأيديولوجي المتعلّق بتبنّي الأطفال. لقد جعلني بحث نورما عن أمّها البيولوجية أُدرك أن هذا لم يكن سؤالاً أيديولوجياً ولا فلسفياً، بل سؤالاً وجودياً: يبدو البحث عن الأمّ البيولوجية أمراً غريزياً، ليشفي ذلك الجرح الأوّل، فيما لو كان يمكن شفاؤه أصلاً.

بعد أن استسلمتُ لرغبة نورما في البحث عن أمّها البيولوجية، وجدتُ نفسي أتساءل: لماذا أنا الشخص الوحيد الذي يمكن أن يساعدها؟ ثمّ أدركتُ أن ذلك ليس فقط بسبب علاقتنا الوثيقة والخاصّة، ولكنْ، أيضاً لأنني كنتُ الفرد الوحيد في عائلتها الذي كان بإمكانه الوصول إلى مسقط

رأسها. كنتُ أقيم على بُعد أربعة عشر كيلومتراً من القدس، في حين فَصَلَتْ مئات الكيلومترات بيروت، وآلاف الكيلومترات الدوحة عنها (ناهيكِ عن استحالة عبور الحدود). إنها حقيقة سياسية، لا يسمح لنورما أو لأي فرد آخر من أفراد العائلة ممّنْ يعيشون في دمشق أو بيروت أو عمّان أو الدوحة بزيارة فلسطين، لذلك سواء رضيتُ عن دوري هذا أم لا، فقد كنتُ "الشخص المختار" لهذه المهمّة. بعد هذا العصف الفكري والعاطفي كله أصبحتُ الآن في وضع يسمح لي بالاستماع بعناية وانتباه إلى ما أرادت نورما أن تُخبرني به.

"لولو، استمعي بعناية إلى ما سأقوله لكِ، وأرجو أن تضعي في اعتباركِ أنه تمّ استدعائي من قِبَل عمّة أمّي زهوة بينما كانت أمّي طريحة الفراش، أعني قبل أشهر من وفاة أمّي". فهمتُ ما قالتْه نورما للتّو، ولكنه ما يزال بحاجة إلى توضيح:

" زهوة! تقصدين والدة وسيم؟"

أجابت نورما: "نعم، السّتّ زهوة التي كانت تعيش في القدس"، ثمّ تابعت:

"قبل أقلّ من عام، استدعتْني السّتّ زهوة الجمل إلى فيلتها في بيروت. أخبرتْني ابنتها سناء أن والدتها تحتضر، وأنها تريد رؤيتي على وجه السرعة. وبما أنني لم أرَ السّتّ زهوة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لم أتمكّن من التفكير في سبب يدفعها لذلك. ظهرتْ سناء في اللحظة التي دخلتُ فيها

الحديقة الوارفة لفيلا عائلة الجمل الرائعة، وأخذتْني إلى غرفة نوم أمّها زهوة. قالت سناء في أثناء صعودنا الدرج: من الرائع أنكِ جئتِ، يا نورما، أمّي مريضة جدّاً، بالكاد تتكلّم. ولكنّها أصرّت رغم وهنها على التّحدّث معكِ. فهمتُ ما عنتْه سناء في اللحظة التي دخلتُ فيها غرفة نوم العمّة زهوة، التي لم تستطع في الحقيقة حتّى أن تردّ تحيّتي. عندما اقتربتُ لأقبّل جبينها، سحبتْ سناء كرسياً، ووضعتْه لي بالقرب من رأس أمّها.

خرجتْ سناء من الغرفة على الفور قائلة: أمّي، ها هي نورما، سأتركِكِ بمفردكِ معها، أبلغيني إذا احتجتِ أي مساعدة. تمتمت السّيّدة زهوة بصوت لا يكاد يُسمَع: ابنتي العزيزة، اقتربي حتّى تسمعي ما أريد أن أُخبركِ به. وضعتُ أذني أقرب ما استطعتُ إلى فم السّيّدة زهوة الجاف. شعرتُ بنبضها الضعيف عندما وضعتُ يدي المتعرّقة على كفّها الباردة المرتجفة. "اقتربتْ نهايتي كما ترين، يا عزيزتي نورما، ولا بدّ أن أُريح ضميري قبل أن أقابل وجه ربٍّ كريم. حبيبتي نورما لديّ ما أبوح به، لا، بل أن أعترف به".

"اعتراف!" قلتُ وقد تحجّر لساني، وأوشك أن يخنقني.

"لن تصدّقي، يا ليلى، كم كنتُ خائفة عندما ذكَرتْ كلمة اعتراف. كانت يداي ويدا العمّة زهوة ترتجفان".

"لا بدّ أن أكشف لكِ الحقيقة، الحقيقة كاملة. بعد خمسة أشهر من تبنّي أمّكِ كريمة لكِ، جاءت أمّكِ، أمّكِ الحقيقية

تبحث عنكِ. نعم، ظهرتْ في بيت جِدُّو نعمان تطلبُ استعادتكِ".

تجمّدتُ في مكاني بينما سالت الدموع على خَدَّي العمّة زهوة.

جلستُ هناك أحدّق في العدم

كان رأسي فارغاً من أي فكرة

كانت عيناي فارغَتَيْن

كنتُ جامدة تماماً

لم أذرف دمعة واحدة

وكانت عيناي مغلقَتَيْن.

غرقتُ في الصمت حتّى تماسكت السّيّدة زهوة مجدّداً، واستجمعتْ طاقتها المتضائلة، وتابعتْ:

"حبيبتي نورما، جميعنا نعلم كم أحبّتْكِ أمّكِ كريمة، وكم كانت تعشقكِ، كانت تحبّكِ أكثر من حبّ أي أمّ لطفلها، ولهذا السبب كذَبَتْ عليكِ. نعم، لقد كذبت بدافع الحبّ. كَذَبَ كلّ من ليلى وكريمة وحتّى جِدُّو نعمان نفسه على أمّكِ. أخرجتْكِ كريمة الخائفة من المنزل سرّاً، وخبّأتكِ، ومزقتْ الوثائق جميعها التي جاءت معكِ، بينما استقبلت ليلى وجِدُّو نعمان والدتكِ الحقيقية والشّابّ الذي رافقها في ذلك اليوم. أخبروها أنكِ قد متِّ. نعم، أخبروها أنكِ مرضتِ مرضاً شديداً بعد وصولكِ إلى بيت جِدُّو نعمان، وتوفّيتِ. لقد كذبوا عليها. رفضَتْ تصديقهم، صرخَتْ، وبكَتْ،

وانتحبَتْ، ولم يكن أمامها شيء آخر لتفعله. جرّتْ قَدَمَيْها في نهاية المطاف، وعادتْ إلى حيفا ظانّة أنكِ متِّ حقّاً. ولسبب أو لآخر لم تعد أبداً".

"حيفا! لماذا حيفا؟ لقد ظننتُ أنني وُلدتُ في القدس، في القدس الغربية!"

في الواقع، لقد وُلدتِ في مستشفى الدّجاني في القدس، وأنا متأكّدة من هذا، لأنني كنتُ أعيش هناك، ولكن والدتكِ واسمها لمياء الحمصي جاءت من حيفا. إمّا أنّه تمّ خداعها لتصدِّق بأنكِ متِّ، أو أنها لم تعد أبداً، لأن الحدود كانت مغلقة مع إنشاء دولة إسرائيل، ولم يكن هناك أي إمكانية للخروج أو الدخول من حيفا".

"لم أشعر بشيء

فقدتُ قدرتي على الكلام

وعلى البكاء

كان لأمّي اسم:

لمياء الحمصي. لمياء الحمصي. لمياء الحمصي. لمياء الحم..."

كان اسم أمّي يدور في رأسي الفارغة مثل أسطوانة مشروخة، لحين بوح عمّتي زهوة بآخر مشاعرها:

"سامحيني، يا نورما، لأنني كتمتُ هذا السرّ هذه السنين كلها". ثمّ أغمضت عينَيْها، وغطّت في نوم عميق".

كرّرتُ مثل نورما اسم والدتها: لمياء... لمياء... لمياء... حتّى قاطعتْ نشوتي هذه بسؤال:

"نورما، وماذا قالت خالتي كريمة حول هذا كله؟"

قالت نورما: "لم أخبرها بأي شيء"، ثمّ أضافت بعد صمت وجيز:

"لماذا، يا ليلى؟ كانت طريحة الفراش في الثانية والتسعين من عمرها، لم يكن هناك حاجة لذلك. لقد تركتُها تموت بسلام. رحم الله روحها الطاهرة".

شعرتُ برجفة تخلّلت جسمي كله.

"هل ستساعدينني، يا لولو، يا حبيبتي، في العثور على والدتي لمياء؟ لا بدّ أن أطلب منها السماح والمغفرة".

"المغفرة! بحقّ الله، يا نورما، تتحدّثين عن المغفرة! غفران ماذا؟! بعد كلّ ما فعلَتْهُ أمّكِ كريمة من أجلكِ؟ لا أفهم مَن الذي ينبغي أن يسامح مَن؟! ومَن الذي ينبغي أن يطلب المغفرة ممّنْ؟!" أحسستُ بغرابة اضطراري إلى إضافة اسم كريمة بعد كلمة أمّكِ.

"نعم، نعم، أعرف، يا ليلى. أعرف، صدِّقيني أنني أعرف..."، وضعتْ نورما رأسها، المضطرب بالأفكار، بين يَدَيْها. وأنا عرفتُ أيضاً، وشعرتُ بالحرج بسبب عباراتي الطائشة في هذه اللحظة الحسّاسة من حياتها، وقد كانت في مساس الحاجة لدعمي وتعاطفي الكاملَيْن.

تجاهلتْ ردَّ فعلي، وبقيت تتملّكها الحَيْرة وهي محاصرة تماماً بمشاعرها وأفكارها:

"لن تصدِّقي كم أنا مرتبكة ومشاعري مضطربة، يا ليلى. حاصرتْني طيلة الليل والنهار التفاصيل كلها التي أخبرتْني بها عمّتي زهوة، إلا أنني كنتُ، في الغالب، مسكونة بصورة والدتي الآتية للبحث عنّي... يا إلهي، ما كان أشدّ ألمي لمعرفتي بأنهم أخفوني بعيداً عنها، وادّعوا أنني ميتة، ألم يوازي سعادتي بمعرفة أن والدتي جاءت بحقّ للبحث عنّي".

يا ربّ، ساعدْني على تخطّي هذا كله. لم أتمكّن من معرفة ماذا أفعل أو كيف أفكّر بعائلتي: خالتي كريمة، وخالتي ليلى، وجِدُّو نعمان أو حتّى أمّي، كلهم متآمرون كذبوا على أمّ نورما الحقيقية قائلين إن طفلتها قد ماتت. وجدتُ نفسي بعد أن فقدتُ الكلمات المناسبة للتعبير عن المشاعر التي تعتريني أشبه بالأشخاص الذين يقولون دائماً الشيء الخطأ أو النكتة والمزحة السّيّئة عندما يُصدَمون:

"بالرغم من ادّعاءاتهم المغرضة ما زلتِ على قيد الحياة، يا نمروش".

سكتت نورما لفترة طويلة، طويلة بما يكفي لأظنّ أنها لم تعد في حالة ذهنية، تسمح لها بمواصلة هذه المحادثة، أو على الأقلّ، ليس مع ابنة خالتها الخرقاء، ولكنها أدهشتْني، وتابعت الكلام:

"لن تصدِّقي ماذا عنى لي ذلك، أو كيف شعرت تجاه إخفاء هذا كله عن أمّي المريضة طريحة الفراش. كانت هذه أطول الأيّام وأصعبها عليّ، ولا تزال حتّى اليوم من أحلك الليالي في حياتي كلها.. مرّت عليّ لحظات شعرت فيها بالحاجة المُلحّة، أو الدافع، أو الضرورة العاطفية لمشاركة كل شيء معها، بالطريقة نفسها التي تبادلنا بها كل شيء على مَرّ السنين. أردتُ أن أسألها عن كل ما أخبرتْني به العمّة زهوة... كان لديّ الكثير من الاستفسارات حول زيارة أمّي... يا الله! أردتُ أن أسأل أمّي كريمة إذا كانت تعرف ما الذي جعل والدتي تتخلّى عنّي... الآن بعد أن أصبحتُ أمّاً، لا يمكنني أن أتخيّل ما الذي يمكن أن يُجبر أمّاً على التّخلّي عن طفلتها! يا الله، يا ليلى، كنتُ بحاجة إلى أن أسألها هذه الأسئلة كلها والكثير الكثير غيرها، ليس لأنها كانت تمتلك الأجوبة كلها، ولكنْ، في الوقت نفسه، مَنْ يعلم ربّما كانت لديها هذه الأجوبة كلها، لا أعلم حقّاً" أطرقتْ نورما لفترة قصيرة، ثمّ أضافت:

"لكنني كنتُ أسأل نفسي في النهاية، لماذا، يا نورما؟ لماذا تسبّبين الكثير من الألم لأمّكِ في الوقت الذي ترحل فيه بسلام وهدوء وهناء؟... لم أستطع في النهاية إجبار نفسي على إيذائها... ليس بعد كل ما فعلتْه من أجلي... ليس بعد الحبّ كله الذي وهبتْني إيّاه... لا".

"لكنها فعلت ذلك بدافع الحبّ، يا نورما" وجدتُ نفسي أستعمل كلمة "ذلك"، لأنني لم أستطع التعامل مع فعل إخفاء الطفلة وإخبار أمّها بأنها ماتت. بدا الأمر وكأنني

كنتُ ونورما نتبادل الأدوار والمواقف باستمرار. لم يعد من الواضح مَنْ كان يدافع عمّنْ، أو مَنْ يلوم مَنْ، أو مَنْ يطلب المغفرة مِمَّن؟"بالتأكيد بدافع الحبّ، ولكنْ، ليس من السهل تحمّل الألم الذي لا بدّ أنه استعر في قلب والدتي.." الضعف والوهن في صوت نورما كاد أن يخنقني.

"وهكذا، ومهما كانت الأسباب توصّلتُ في النهاية إلى هذا القرار الصعب: إذا كان حبّ أمّي العارم لي قد دفعها إلى إخفاء هذا كله عنّي لمدّة ستّين سنة، لماذا لا يدفعني حبّي الكبير نفسه لإخفاء هذا عنها للأسابيع أو الأيّام القليلة الباقية لها في حياتها؟ لذلك قرّرتُ بدافع الحبّ الخالص في النهاية أن أردّ لها حبّها وصمتها من خلال تصرّف آخر قائم على الحبّ والصمت".

كانت نورما تبدو ضائعة ومرتبكة كما ينبغي لطفلة بوالدَتَيْن. وكأن امتلاك أمّ واحدة وعائلة واحدة لا يكفي!

حدّقتُ في نورما الساهمة بعيداً، وتأمّلتُ تلك الابتسامة الرقيقة والوحدة المؤرّقة المحفورة على وجهها.

الفصل الثالث والعشرون

لكل عائلة جانبها المظلم وعائلتي ليست استثناء

كنتُ مأخوذة تماماً في طريق عودتي إلى عمّان، حيث تعيش أمّي، ولم أتمكّن من إبعاد حالة نورما والمشاعر المقلقة كلها التي تمرّ بها عن تفكيري أبداً: أفعال الحبّ والصمت والغفران، فضلاً عن أفعال الخداع كانت أكثر ما يطارد تفكيري، ويشغله.

خرجت تنهيدة عميقة رغماً عنّي من أعماق صدري المضطرب.

كان ذهني يعيد ويشكِّل دون توقّف كل مشهد وصفتْه نورما لي بوضوح في اليومَيْن الماضيَيْن. ضعتُ في سهل حوران الشاسع، وفكّرتُ كم كان من الصعب تخيّل أنه تحت ذلك الاتّساع والنقاء والسِّحْر لهذه الأرض الخصبة، كان هناك بركان خامد وثوران محتمل. هكذا فكّرتُ تماماً بعائلتي، عائلة البارودي، أو أي عائلة أخرى.

فكّرتُ وأنا أحدِّق من النافذة، كم كان ذلك كله خادعاً!

قال رينيه ماغريت: "هذا ليس غليوناً".

انفجرتُ بصوت عال: "هذه ليست عائلة"، ثمّ قلتُ لنفسي ربّما كان هذا بالضبط ما يُفترَض أن تكون عليه العائلة.

يا للهول من العائلات!

لم يمنحني أحد في حياتي الأمان كما منحتْني إيّاه عائلتي، ولم يكن لأحد أن يُسبّب لي المزيد من انعدام الأمن والضعف أكثر من عائلتي.

ولكنّ السفر على هذه الطريق أيضاً لم يكن ليُسهِّل الأمور عليّ. على غرار طريق الآلام في القدس ذي المحطّات التي تصف عذابات السّيّد المسيح، كان في طريق بيروت – دمشق -عمّان العديد من المحطّات العائلية وذكريات عائلة البارودي:

نظرتُ إلى جبل الشيخ، وتذكّرتُ تِيْتِة ووالدها يوسف.

نظرتُ إلى قرى حوران، منتشرة هناك في الأفق البعيد، وتذكّرتُ فاطمة: لقد تحدّرت من واحدة من تلك القرى الصغيرة، هذه القرية التي عادت إليها بعد خمسين سنة. أجبرتْني فكرة التساؤل عمّا إذا كانت هذه المرأة العنيدة لا تزال على قيد الحياة على زرع ابتسامة على وجهي.

لم أستطع منع نفسي في اللحظة التي مررْنا فيها بجرش وبقايا المدينة الرومانية المهيبة، من التفكير في خالتي ليلى، إمبراطورة عائلة البارودي، وعلاقاتها العاطفية غير المعلنة. يقول أندريه مارلو: "الإنسان ليس ما يعتقد أنه عليه، بل ما يُخفيه" وكم كان هذا صحيحاً في حالة الإمبراطورة ليلى! لكن ذلك جعلني أفكّر في (أبو الهول) والطبيعة الصامتة لأمّي أيضاً. فكّرتُ في المهمّة المستحيلة التي لا تزال تنتظرني في عمّان.

توصّلتُ ونورما إلى استنتاج أنه لا أحد سوى أمّي كان قادراً على حلّ لغز نورما. ليس فقط لأنها كانت آخر فرد لا يزال على قيد الحياة من هذا الجيل من عائلة البارودي، ولا بسبب علاقة أمّي الخاصّة مع ابن عمّها وسيم وأمّه زهوة، أو حقيقة أن أمّي كانت بالفعل شاهدة ومشاركة في الحلقة الأولى من حكاية طفلة القدس، ولكنْ، لأن أمّي، على الأغلب، كانت موجودة في بيت جِدُّو نعمان يوم الجمعة عندما دُقّ جرس الباب، وظهرت والدة نورما عند باب البيت.

استغرق الأمر منّي بضع ليال بلا نوم، وبضعة أيّام من الأعصاب المحطّمة قبل أن أستطيع مواجهة أمّي بالجملة الوحيدة التي كانت تتخمّر وتطنّ في ذهني:

"أمّي، هل صحيح أن أمّ نورما البيولوجية أتت إلى بيت جِدُّو نعمان بحثاً عنها بعد بضعة أشهر فقط من تبنّي خالتي كريمة لها؟" ارتعشتُ قليلاً، ثمّ تجمّدتُ، إلا أنها دخلت في صلب الموضوع مباشرة، وأجابتْ بثقة متناهية:

"ما الذي تقولينه؟ مَنْ أخبركِ بهذه الحكاية المجنونة؟ مَنْ غير نورما بالطبع؟". كانت أمّي ساكنة مثل (أبو الهول) غير متأثّرة بما قلتُه رغم أن وجهها أصبح شاحباً قليلاً.. أو هكذا ظننتُ.

"لا، عمّتكِ زهوة، هي التي حَكَتْ هذا كله لنورما".

"عمّتي زهوة! وماذا تعرف تلك المرأة العجوز؟ الجميع يعرف أن عمّتي زهوة كانت تُهلوس على فراش الموت؟" لم يعد بإمكاني تحمّل لامبالاة أمّي، لذلك أصررتُ مجدّداً:

"دَخِيْلِكْ، يا أمّي، لماذا لا تقولين لنا الحقيقة؟ هل جاءت أمّ نورما تبحث عنها أم لا؟"

"لا. أبداً. هذا كله جزء من شرّ فاطمة وكيدها. لم تتوقّف تلك المرأة عن نشر الأكاذيب منذ اليوم الذي وصلتْ فيه إلى بيت أبي إلى اليوم الذي غادرتْه فيه. وانظري إلينا، ما زلنا بعد ثلاثين سنة محاصرين في واحدة من أكاذيب فاطمة الشّرّيرة"، أصررتُ غير مصدِّقة أذني:

"أمّي، هل أنتِ متأكّدة؟"

"بالطبع أنا متأكّدة. أتذكّر يوم الجمعة ذاك بوضوح، كما لو كان بالأمس: كانت فاطمة فقط هي التي ادّعتْ أنها سمعتْ جرسَ الباب، وكانت فاطمة الوحيدة التي هرعتْ لفتحه، وزعمتْ أن والدة نورما جاءتْ تبحث عنها".

"هل أفهم من كلامكِ أن جرس الباب لم يُقرَع يوم الجمعة؟"

"لا. لم يُقرَع جرس الباب أبداً يوم الجمعة ذاك".

النهاية

ملاحظة بعد النهاية:

كانت هناك على الأقلّ ثلاث شخصيات في عائلتي تقف على الحدود بين الواقع والخيال:

أمّي سامية

الخادمة فاطمة

ابنة خالتي المتبنّاة نورما

إذا كان قارئ هذا الكتاب غير قادر على تبيّن اللحظة التي ينحرف فيها الواقع، ليغرق في الخيال، فهذا يعود أساساً إلى مَكْر هذه الشخصيات الثلاث، إضافة إلى خالتي ليلى المخادعة وجِدُّو نعمان الحصيف حافظ الأسرار.

أتساءل، أنا التي نشأتُ في ظلالهم، لماذا أجد مثل هذه الصعوبة في قول الحقيقة كما هي؟ ولماذا كنتُ أشعر

برغبة في إخفاء شيء ما؟